كتاب الرياض ١٦

العدد السادس عشر . أبريل ١٩٩٥م



ⓒ مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

البليهي، ابراهيم

بنية التخلف

... ص، .. سم (كتاب الرياض، ١٦)

ردمك ٧ - ١٤ - ٧٨٠ - ٩٩٦٠

ردمد X ١٩٠ - ١٣١٩

١- السعودية - المقالات العربية ٢ - الأحوال الاجتماعية أ - العنوان

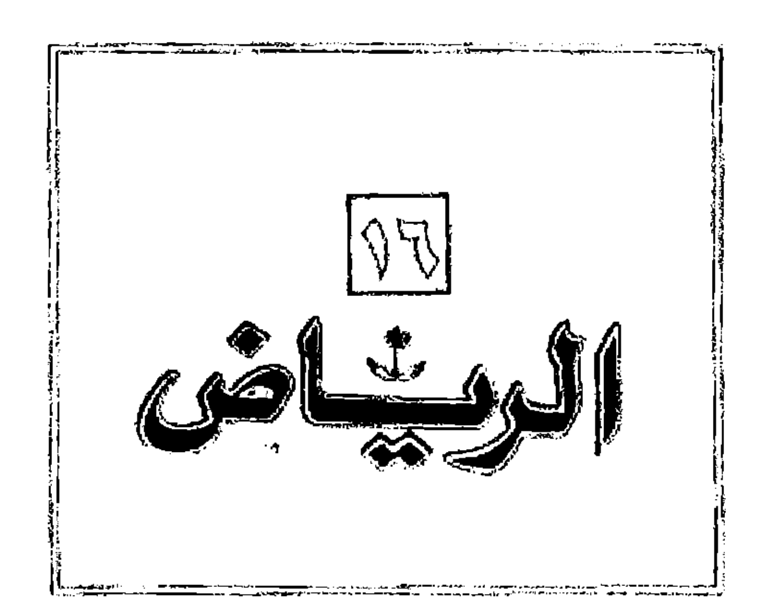
ب - المملكة

٠٨١،٥٣١ ١٥/٣٦٣٠

رقم الإيداع: ١٥/٣٦٣٠

ردمك: ٧ - ١٤ - ٧٨٠ - ٩٩٦٠

ردمد: X ١٩٠ - ١٣١٩



١٦
الرياض

المقدمة

للتخلف بنية مغلقة قوية ومتماسكة تنطوي على آلية معقدة تضمن لها الاطراد واستمرار البقاء وهذه البنيـة هي الأصل في تكوين كل المجتمعات، وهذا هو السبب في أن فـيضانات التخلف تغمـر معظم مجتمعات الأرض لأن التخلف هو الحالة الطبيعية أما الانعتاق منه فهو الحالة الطارئة التي لا تتحقق لأي مجـتمع إلا بتضافر متين بين قوى العقل والوجـدان والضمير والارادة بحيث يتحول هذا المزيج المتوازن إلى سلوك عام في المجتمع فكراً وممارسة ولكن هذا التـضافر المـتوازن لا يتحـقق إلا في حالات نادرة لأن المجـتمع لا يسـتطيع أن يخرج عن بنـيتـه المغلقة فـيعلو فـوق ذاته إلا في ظروف استثنائية..

لذلك فإن أي مـسـح سريع لأوضاع البشـر في كل مكان سوف يكشف بأن معظـم مجـتمعـات الأرض تعاني من التـخلف في كافـة المجالات وان الازدهار لم تحرزه سوى مجـتمعات قليلة هي أشبه بالومـضات الخاطفة وسط الظلمة الحالكة فالتخلف في المجتـمعات هو الوضع الطبيعي الشائع أما الازدهار فهو الوضع الاستثنائي النادر..

والسبب في اتساع مساحة التخلف أنه ليس حدثاً طارئاً يعرض لحياة المجتمعـات وإنما هو الأصل في تكوين أي مجتمع أما الانفـلات من قبضة التخلف وتحقيق النهوض فهو الاستثناء الذي لا يطرأ على حياة أي مجتمع إلا بادراك ضرورته والاحتشاد له والاصرار عليه...

ولكن ادراك مواقع النهـوض تحجبـه حواجز مـنيعة يقـيمهـا التخلف لحماية ذاته داخل بنيته القوية المغلقة وهذا هو العائق الجذري الذي تتفرع منه بقيـة العوائق مما يجعل الانفـلات من قبضـة التـخلف حالة نادرة فكل مجـتمع يكرر انتـاج ذاته إلا إذا اتيح له ظرف قوي طارىء ينقلـه من حالة القصور الذاتي إلى حالة الانطلاق والتـحليق والفاعلية وبذلك يبلغ مرحلة الازدهار...

ولكي يواصل المجتمع مسيـرة التقدم لابد ان يواصل تجديد التعبـئة الشامـلة التي تتكفل له بتحـقق دوام الامتـزاج المتوازن بين توهج العـقل وتوقد الوجـدان ويقظة الضمـيـر وصلاح الإرادة من أجل استمـرار طاقة الدفع وإلا فـإنه لابد ان يهوي إلى طبيعـته الأصليـة فيـعود إلى الـركود والعجز فـالطائرة لا تنفلت من جاذبية الأرض إلا بحشد طاقة كثـيفة من أجل الانطلاق ولكن بلوغ المستوى الكافي من الصـعود لا يعني السـماح باطفاء المحركات ولا الغفلة عن الأحوال الجـوية ولا عدم الانتباه للفجوات

الهوائية وإنما يعني استمرار اليقظة ومداومة طاقة الدفع..

إن قانون القصــور الذاتي ليس محصوراً على الفـيزياء وإنما ينسحب ايضاً عـلى المجتمـعات والافـراد، فالفـرد يبقى جـاهلاً حتى يكدح للتـعلم والمجتمع يبقى متخلفاً حتى يتحـفز للنهوض ولكن المجتمعات في الغالب لا تتحفز للنهوض لانها تعيش داخل بنية مغلقة قوية وتنطوي على قوة جذب لما هو داخلها وقوة رفض لما هو خارجها..

إن المجتـمعات تبـقى أسيرة عـاداتها في الفكر والسلوك فـلا تستطيع مبارحتـها أو إعادة النظر فيها لانهـا مقتنعة بكمال هذه العادات وتـعتبرها مصدر فخرها حتى وإن كانت هي سبب هوانها وفقرها واستمرار عجزها لذلك تغيب احتمـالات مراجعاتها أو تصحـيحها إلا في ظروف نادرة حين تتعرض لحدث طارئ شديد ينير فكرها ويؤجج وجدانها ويلهم ارادتها ويستثير طاقتها ويوحد اتجاه ابنائها ويعيد تركيب بنيتها..

إن الازدهار هو ثمـرة توجه مـجتـمع بأسره وليس تمثـيلاً لنـزوعات فـردية منفصلـة عن تيار المجـتمـع فكل الأفكار الجيـدة وجـميع المبـادئ العظيمة لا تكون مجـدية ما لم تتحول إلى سلوك اجتمـاعي عام يعتاده كل الافراد ويمارســونه بصورة تلقائـية كسلوك عـفوي دائم كمـا يمارسـون التنفس..

كنت دائم التأمل والتفكير والبحث في أوضاع المجـتمعات البشرية في محـاولة جادة لفهم العـوامل التي تدفع بمجتـمع إلى الصدارة وتستـبقي مجتمعات اخرى في أوحال التخلف والفـقر والهوان فاصبحت مقتنعاً بأن كل مجـتمع يعيش داخل بنية نفسية هي التي تتحكم في مساره صعوداً أو هبوطاً..

وقد أتاحت لي جـريدة «الرياض» أن استخـدم منبرها الرفـيع للكتابة حول هذه الهـموم الحـضارية من منظور انسـاني واسع وليس من زاوية محلية ضيقة..

ولقد دارت المقـالات التي نشرتها بجريدة «الرياض» حـول العديد من المحاور عن العلم والمهارة وعن العقل البشري: «امكاناته ونقـائصه وعن الفرد والمجـتمع وتبادل التـأثر والتأثيـر بينهما فـتفضل الاخـوة بجريدة «الرياض» باخـتيار بعض المقـالات من مخـتلف هذه المحاور لهـذا الكتاب الشهـري الذي اضطلعت به جريدة «الرياض» كـإسهام اضـافي في نشر الوعي الاجتماعي والمعرفة العلمية..

لم أسهم فــي ترتيب المقالات ولا اعرف كـيف ستـأتي لكنني واثق من حسن الاختيار وحسن الترتيب إلا أنني اخشى من كثرة الاخطاء المطبعية لكنها لن تفوت على فطنة القارئ والله المستعان.

ابراهيم البليهي

غربة الفكر العلمي

إننا بأمس الحاجة إلى الانشغال الحقيقي بالعلم بمعناه الدقيق المعاصر وتكثيف الوعي بأهميته من أجل النفاذ إلى لبه وجوهره وتجاوز قشوره ومظاهره، ولا يتحقق ذلك إلا بالتشبع العميق بمنطقه الداخلي والفهم التام لمغزاه والاعتراف الواعي بإمكاناته ومعرفة الصوارف الكثيرة عن إدراكه وبذل جهود كثيفة ومنظمة لاكتساب المهارة في استخدام مناهجه وإتقان التعامل مع كشوفه..

ربما يكون من الزم الأشياء للبدء في غرس الفكر العلمي بمعناه الدقيق هو أن نعترف بأن هذا الفكر مازال غريباً عن حياتنا وغير شائع في ممارستنا حتى في ما نعتبره نشاطاً علمياً..

فالالتزام بالفكر العلمي ليس حصيلة تلقائية للانتظام في الدراسة الشكلية كما أن اجتياز كل المراحل التعليمية بشتى أنواعها ليس دليلاً على فهم المنهج العلمي ولا على قدرة التعامل ولا على الالتزام بحسن استخدامه.

الروح العلمية هي المستوى الأقصى والأرفع لمحاولات التعلم ولكن لا بد من التأكيد على أنه لا يتم اكتسابها تلقائياً من اجتياز مراحل التعليم الشكلي حتى لمن واصلوا هذه المراحل حتى النهايات الشكلية العليا.

فالروح العلمية حالة نادرة من حالات التألق الذهني وهي مستوى رفيع من مستويات التفكير وهي انضباط عقلي دقيق والتزام اخلاقي صارم وهي تجربة ذاتية زاخرة بتذوق الحقيقة والاستمتاع بجمال المعرفة.

إن التفكير العلمي نشاط عقلي خاص ولكن العقل لا ينشط للاهتمام بشيء إلا إذا كان منجذباً إليه وراغباً فيه ويحقق اشباعاً لحاجة ملحة من حاجاته، لذلك لا يحصل الانجذاب إلى الفكر العلمي من قبل الناشئين إلا إذا تمت تنشئتهم عليه فتربوا على التعلق به وصار يستجيب لمطالبهم العقلية ويجيب على أسئلتهم الحائرة وبذلك لا يكتفون بالانجذاب إليه فقط بل لا يستطيعون الكف عنه فضلاً عن أن يحتاجوا إلى أن يذادوا إليه.

أو كما يقول أرنست دمنيه في كتابه (فن التفكير): «... ما من شيء عقلي يمكن تحقيقه في ميدان لا يجذبنا إليه .. فالعمل في عروقنا دون احساس بالجهد بل باحساس من الراحة والحرية هو الشرط الأساسي لعملية عقلية صحيحة...»

الروح العلمية هي أهم خصائص الفكر العلمي وهي ليست معلومات تحفظ ولكنها روح تتكون في الذات فيصير البحث عن الحقيقة مطلبا ذاتيا لا يحتاج إلى من يستحثه وإنما هو انبعاث داخلي لا يهدأ ويصبح هذا البحث محكوماً بمنهج ذي معالم واضحة وخطوات مرسومة يحفظ الجهد من التبدد ويضمن استقامة المسار نحو الحقيقة فلا يتعرض للضياع.

فالممارسة العلمية بمعناها الصحيح نتعلم منها التركيز وفرط الإنتباه واستبعاد أسباب التشتت الذهني ومواصلة الاهتمام باتجاه واحد حتى نصل إلى النتيجة التي نرنو إليها كمطلب عقلي صرف ينشد الوضوح واليقين..

إن التفكير الفج هو السلوك الذهني التلقائي أما التفكير العلمي المنضبط فهو سلوك ذهني ارتقائي ولا ينشأ تلقائياً في الذهن وإنماهو عملية بنائية تترابط لبناتها لبنة بعد أخرى حتى يتحقق للإنسان قيام الصرح المعرفي فيبلغ مفازة الاستشراف والوضوح.

وكما يرى المفكر الفرنسي ارنست دمنيه في كتاب (فن التفكير فإنه: «... لا علاج للرتابة الفجة في التفكير إلا التأمل الفاحص في حياة العظماء...» ذلك أن قبولنا التلقائي للمألوف وميلنا الطبيعي للكسل وحقارة شهواتنا وكثرة الصوارف عن التفكير المنهجي الجاد: كلها تؤدي إلى تفاقم حالة الفجاجة في التفكير وتعوق التوجه نحو الا نضباط العقلي والأخلاقي وفق مقتضيات منهج الفكر العلمي..

حب المعرفة غريزة تولد مع الإنسان لكنها في الغالب تنطفيء في وقت مبكر من حياة الفرد بعد أن يكف الطفل عن التساؤل فتضمر فيه هذه الغريزة وأي مجتمع لا يتعهد هذه الغريزة بالإثارة المستمرة سوف تبقى

أجياله غير راغبة في المعرفة لأنها فقدت حرارة التطلع وتخلت عن لهفة السؤال.

يقول فوفنارج: «.. من القلب تصعد الأفكار العظيمة..» فمن لم يرتبط وجدانياً بالأفكار لن يهتم بها ولن يسعى إليها ولن يلتزم بالمناهج الفكرية والاجرائية التي تحقق بلوغها..

لذلك يقول جوبير: «.. إن القلوب التي يعوزها الدفء يعوزها النور..» فالشمس لا تتوهج كل هذا التوهج ولا تسطع كل هذا السطوع إلا لأنها بلغت أقصى المدى في التفاعل..

والتفاعل مع المعرفة مفتاحه الحب فالمحبة كما في كتاب (فن التفكير): «.. تُفتّق الذهن وتضفي عليه حرية النبوغ .. وهكذا يفعل كل حافز عظيم يتسم بالايثار ويملأ الروح بأكملها..».

غير أن هذه المأثرة العقلية الرفيعة لا تتأتى للناشئين إلا إذا كانت البيئة الاجتماعية تنميها في نفوسهم وتملأ وجدانهم بحبها وتغريهم بالانجذاب إليها وتستحثهم دائماً إلى التعلق بها..

فنحن لا نستطيع أن نجعل الطلاب يفكرون تفكيراً علمياً ويستمتعون بهذا المستوى الرفيع من التفكير: بالزامهم بحفظ مقررات مدرسية في المجالات العلمية المتنوعة بطريقة اجترارية تلقينية جافة تفتقر إلى التلاحم العاطفي وإنما يتوصلون إلى هذا النوع من التفكير الراقي إذا اقتنعوا بالقيمة الذاتية للعلم وتوفر لديهم الشغف بالحقيقة ونمت فيهم الروح العلمية بكل ما تنطوي عليه من قيم رفيعة عن العلم والإنسان والحياة والوجود والمصير أي عن العلم وكيفية امتلاكه وعن الإنسان وكيفية استنفار طاقته الخيرة وعن الحياة وهدفها وكيفية ممارستها وترتيب قيمها وعن المصير وخطورته وكيفية الاستعداد له..

وإنها لسذاجة متناهية أن نظن أن المذاكرة المدرسية الرتيبة تنتهي بالدارسين إلى فهم التفكير العلمي أو إلى التفكير بطريقة علمية أو إذا توهمنا أن أفواج الخريجين يملكون القدرة على محاكمة القضايا وفحصها بروح علمية صافية..

إن أخص خصائص الروح العلمية هي القدرة على تغليب ارادة الحق على ارادة الهوى إنها امتياز أخلاقي بقدر ما هي ميزة فكرية ومن الواضح أن اكتساب هذه القدرة العظيمة الفذّة يحتاج إلى مثابرة عقلية صبورة وإلى مجاهدة أخلاقية صادقة وإلى تدريب منهجي صارم.

الروح العلمية ليست هي المعلومات التي نحفظها ولا هي استيعاب

شاراته.

أما القلة الذين يتحركون بتوجيه من الفكر العلمي وينظرون إلى الأمور بروح علمية ويقيّمونها تقييماً موضوعياً: فإنهم لا تحركهم الغاية المهنية الضيقة ولا المنفعة الذاتية الغليظة وإنما يحركهم الشغف بالمعرفة وادراكهم للقيمة الذاتية للعلم ويؤرقهم احساسهم بالمساحات الشاسعة للجهل وشعورهم الحاد بضآلة معرفتهم حيث يدركون أن المعرفة بكل أبعادها وأعماقها هي الكسب الذي يستحق العناء ومع كل ذلك لديهم اقتناع تام مصحوب بتواضع جم بان المعرفة الفردية تظل قليلة مهما بلغت لذلك تبقى المعرفة هي عشقهم الدائم وهي أملهم الذي يتضاعف ظمؤهم إليه كلما ارتووا منه وهي هدفهم الذي يشعرون أنه يزداد بعداً كلما أوغلوا في طلبه..

فالعلم بمعناه الجوهري لا يفرض على العقول عنوة وإنما هو عشق داخلي دائم التوقّد ليس هذا فحسب بل أن العلوم المتقدمة كما يقول أوبنهايمر: «.. هي ذات خصائص جمالية إلى حد بعيد فالكلمات التي نستعملها في اللغة العلمية كالبساطة والرشاقة والجمال تبين أن ما نبحث عنه ليس المعرفة وحدها بل المعرفة التي تنطوي على النظام والانسجام بين عناصرها...».

وينتهي إلى نتيجة حاسمة في قضية الفكر العلمي لانها بمثابة المفتاح العام الذي يتيح لنا فهم معضلة انكماش التفكير العلمي وندرة الروح العلمية في معظم المجتمعات الإنسانية رغم انتشار التعليم الشكلي في كل بلاد الدنيا.

هذا المفتاح العام للمعضلة المحيّرة: ان الناس لا يدركون شيئاً ولا يهتمون به إلا إذا تجاوب مع رغبة عارمة من الرغبات العامة السائدة في المجتمع فهو يعترض على الادعاء الذي يتوهّم: «... ان الاكتشافات العلمية العظيمة تتغلغل في حيوات الناس فتؤثر في سيرهم نحو أهدافهم وفي وجهات نظرهم وفي فلسفتهم...».

وبدلاً من هذا الوهم يبين أن الاختمارات الاجتماعية التي تسبق الاكتشافات هي العامل الحاسم في تحقيق الاستجابات الفاعلة وفي ذلك يقول:

«.. إن الاكتشافات لا تغيّر تفكير الناس إلا عندما تغذّي أملاً من آمالهم أو تلبي حاجة من حاجاتهم الكامنة في نفوسهم....».

فالناس يستخدمون نتائج الاكتشافات العلمية ليس بسبب فهمهم

للمنطق العلمي الصارخ الذي أدى إليها وإنما لأن المجتمع قد استجاب للتوجه الذي صار متهيئاً له نفسياً لا علمياً فأصبح تطبيق العلم اتجاهاً عاماً تحكمه مؤسسات تنظيمية كما يضمن نجاحه الالتزام المهني أكثر مما هو تعبير عن فهم عام للفكر العلمي..

فالترقب الاجتماعي المتحفز الذي يسبق الاكتشافات هو الذي: «.. يمهد الجو.. لقبولها والاستجابة لها والترحيب بنتائجها ومع ذلك يظل الناس بعيدين عن مستوى التفكير الذي أدّى إلى هذه الاكتشافات..

ولم يجد هذا العالم الفذ ما يعبر به عن أله تجاه هذا العجز العام الذي يجعل جمهور الناس غير قادرين على فهم الفكر العلمي: إلا أن يؤكد بأنه يجب: «.. على الباحث أن يكون جم التواضع كثير التسامح ومحباً للبشر...». وأن يعتبر أن طوفان الجهالة واقع بشري لا مفر منه..

ثم يقول: «.. ليس لنا أن نتوقع وجود مستوى رفيع .. ان الإنتاج الجيد يضيع في غمرة الإنتاج التافه فإذا شبع الإنسان من التفاهات..» فإنه يصعب عليه تقدير الفكر الرفيع أو نواله..

من الأمور الهامة التي ينبغي أن نكرر تأكيدها أننا حصيلة قيم المجتمع وعاداته وما نتعلمه منه بشكل تلقائي منذ الولادة أكثر بكثير مما نحن حصيلة ما نتعلمه في المدارس والجامعات. فالمناخ الاجتماعي والجو العام هو الفاعل الأول في صياغة شخصية الفرد وتكوين اهتماماته فيه يتبرمج عقله وبه يتقرر نمط سلوكه وبواسطته تتحدد اتجاهات نشاطه أما التعليم الشكلي فإنه في الغالب ينحصر تأثيره في تغذية هذا الذي تم غرسه وتعزيزه في كيان الفرد حيث يبقى يسري منه مسرى الحياة ويجري فيه مجرى الدم.

إن أعظم المبادىء وأرفع التعاليم تبقى ظاهرة صوتية أو حبراً على ورق إذا لم تلامس شغاف القلوب وتصبح هي الهوى المحرك للسلوك بذلك نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «.. لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به..».

فالأهواء الخيرة هي التي تقود الفكر وهي التي توجه السلوك وهي التي تحرك النشاط فإصلاح التفكير لا يكون بمناهضة الأهواء وإنما يكون بتحويل مسارها ومجالها من نزعة الهدم إلى نزعة البناء ومن الاعوجاج إلى الاستقامة ومن التشتت إلى الانتظام ومن خدمة الأنانية إلى خدمة المجتمع..

الخميس ١٨ شعبان ١٤١٥هـ ـ ١٩ يناير ١٩٩٥م ـ العدد ٩٧٠٥

معظم مجتمعات الأرض لأن من طبيعة الناس انهم يثقون ثقة مطلقة في ما استقر في أذهانهم من تصورات وما كونوه من آراء وما أخذوا به من اتجاهات فالعقول الفردية تتم برمجتها من خلال المجتمع قبل بزوغ الوعي الفردي فتتشرب هذه البرمجة الذهنية والعاطفية والاخلاقية ببطء شديد منذ الطفولة المبكرة حتى تصبح مستقرة وتكتسب حصانة قوية تحميها من أية مراجعة رغم انها استقرت دون أي تدخل من العقل النقدي وبدون أي تمحيص من البصيرة الواعية.

ولا بد أن نفطن دائماً ونحن نواجه هذه المعضلة بان الجهل المجهول أي الذي يجهله صاحبه ليس وجوداً سلبياً وإنما هو عائق فظيع من عوائق العلم وحاجز غليظ من حواجز المعرفة ومُحبط شنيع من مُحبطات التنمية لان الذي يجهل جهله لا يقف موقفاً حيادياً من الانجاز في العلم والعمل وإنما يقف ساخراً من الذين يعلمون كما يعادي كل انجاز لا يتفق مع جهالته وفي ذلك يقول الفيلسوف الصيني (لاوتسي) في (كتاب الطريق والفضيلة): (عندما يسمع معلم من درجة عالية بالطريق فهو يحاول أن يسير على هداه .. وعندما يسمع معلم من درجة متوسطة بالطريق فهو يسير عليه مرة ويتخلى عنه مرة.. أما عندما يسمع معلم من درجة دنيئة بالطريق فإنه يضحك عليه بغير صوت مسموع..) فإذا كان هذا شأن من بلغ درجة المعلم فكيف يطمع العارفون بالوصول إلى أي مستوى من مستويات التفاهم مع الجاهلين..؟!

ليس أبشع ولا أشد رعونة من غبطة الجاهل بجهله فالذي يجهل جهله يسخر من العلم الدقيق ويستخف بالانجاز الرائع في أي مجال ولا تروقه المباهج العقلية الرفيعة ويوهمه جهله بأنه الأحق بالاعتبار فيهزأ بالعارفين ويحتقر جهد العاملين..

وينبغي أن لا ننخدع بكثرة الذين يحملون الاجازات العلمية وان لا نستغرب طوفان جهل الجهل رغم انتشار التعليم الشكلي لان العلم والجهل كليهما من الظاهرات الاجتماعية أما الافراد فهم جزء من هذه الظاهرات فرغم كل الحذلقة وما يصاحبها من بهرج وانتفاش فإن مكانة العلم في نفوسنا مازالت مكانة هامشية كما أنه لا وجود للمهارة في أعمالنا ولا اعتبار لها في قيمنا مع أن العلم الدقيق والعمل الحاذق هما قوام الحياة المعاصرة فلا يمكن أن يتحقق أي ازدهار بدونهما..

والغريب أن ادراك مغزى العلم والدخول إلى حومة المعرفة دخولاً يجتاز التخوم ويصل إلى الأعماق مازال بعيداً عن الإدراك العام حتى في

المجتمعات المتقدمة فكيف تكون حال العلم في المجتمعات التي لم تتمرس بالعلم ولم يصبح احدى قيمها البارزة؟!.

إن الاهتمام بالعلم لا يحصل إلا حينما يصير من القيم الرفيعة التي يتزاحم عليها أفراد المجتمع لاقتناعهم بأنهم يكتسبون المكانة العالية عن طريق احرازها ولكننا ابعد ما نكون عن هذا المستوى الرفيع المأمول..

وهذه حالة لابد أن تمر بها كل المجتمعات في مرحلة من مراحل النمو الاجتماعي فقد لاحظ المفكر الانجليزي الشهير توماس هوبز الذي كان من أشهر فلاسفة القرن السابع عشر: ان الناس في عصره لا يأبهون بالعلم لهبوط مكانته في المجتمع بينما لاحظ ان الناس يقبلون على المجالات العلمية ذات النفع المباشر لانها ترفع مكانتهم في المجتمع وتحقق لهم المكاسب المادية العاجلة وفي ذلك يقول:

(.. للعلوم تأثير قليل لأن مقامها عند الناس غير رفيع ولهذا لا نجد عند أي من الناس معرفة صحيحة بها ما خلا قلة منهم وهؤلاء لا يعرفون إلا اموراً قليلة فطبيعة العلم ان لا يفهمه أحد إلا بمقدار ما ينال منه .. فالفنون المفيدة كبناء الحصون وصنع القاطرات وغيرها من وسائل الحرب ذات شأن عظيم بسبب أنها تصلح للدفاع وتجلب النصر).

من هذا النص الذي كتبه واحد من أشهر مفكري القرن السابع عشر في اوروبا وهو القرن الذي شهد تغيرات جذرية في حياة أوروبا ثم في العالم أجمع: نستنتج ظواهر بشرية هامة منها:

- إن أوضاع المجتمعات هي نتاج منظومة القيم فالناس ينشطون إلى الأشياء بمقدار مقامها في سلم القيم السائدة في المجتمع الذي ينتمون إليه ويعيشون فيه ويتشربون قيمه ويمتصون الاهتمامات السائدة فيه فالأفراد لا يهتمون إلا لما يرون ان المجتمع يهتم به ويهملون ما يرون المجتمع يهمله فلا يأبهون لما ليس من اهتمامات المجتمع بل لا يفطنون لأي شيء مهما علت قيمته الذاتية إذا لم يكن محل اهتمام المجتمع وموضع تقديره ومحط اعتباره.

- إن السواد الأعظم من الناس في كل الأزمنة لا يدركون قيمة العلم ولا يعرفون عظمته الذاتية وهم ابعد ما يكونون عن تذوق مباهجه أو اكتشاف تكوينه الداخلي أو التعرف على اشراقاته وأسراره ومفاتنه لأنه شيء مجرد وغير محسوس بينما أن غالبية البشر لا يستطيعون الفهم ولا التعامل إلا من خلال الملموس والمرئي والمحسوس..

- إن الأفراد لا يستطيعون تقدير قيمة الأشياء والافكار والأشخاص

والأعمال والمواقف والأفعال إلا بواسطة سلم القيم الذي يتلقون ترتيب درجاته تلقائياً من المجتمع فيمتصون هذا الترتيب مع امتصاصهم لكلمات اللغة فتنطبع في أذهانهم كما تنطبع معاني الكلمات واللهجات ويمتثلون لها امتثال الماء في انحداره مع مجراه وتختلط في تكوينهم اختلاط الغذاء الذي تم هضمه بغض النظر عن الجودة أو الرداءة والاستقامة أو الانحراف والقوة أو الضعف والتناغم أو الاضطراب .

- إن الأشياء قد تكون ذات قيمة عالية في ذاتها لكنها مع ذلك تكون عديمة القيمة في المجتمع أو منخفضة المكانة عما تستحقه فعلاً مما يحدث اختلالاً ماحقاً في ترتيب منظومة القيم وينتج عن ذلك اضطراب في أوضاع المجتمعات بمقدار الاختلال الذي يعتري سلم القيم.

ومن أوضح صور الاختلال التي تصيب القيم في المجتمعات انعدام الاهتمام بالعلم ووضاعة مكانته وغياب العناية بالمهارة وبالحذق العلمي مع أن الاهتمام بالعلم والعناية بالاتقان هما مفتاح الازدهار بمعناه الأشمل..

- إن قلة قليلة من الناس في معظم مجتمعات الأرض هم الذين يدركون قيمة العلم ويهتمون به رغم أنه من الناحية الذاتية من أهم القيم الإنسانية الجوهرية وقد أصبحت أوضاع المجتمعات تتحدد بمقدار صعود أو هبوط قيمة العلم فيها بالإضافة إلى قيمة المهارات العلمية فهما قيمتان متلازمتان..

- إن القصور المعرفي يبقى ملازماً حتى للقلة من الناس الذين يعتنون بالعلم لأنهم في الغالب تستغرقهم جوانب معرفية معينة على حساب اغفال جوانب أخرى لا تقل أهمية وهذا يستوجب التواصل المستمر بين ذوي التخصصات المختلفة كما أنه يقتضي إثارة السجال الدائم بين ذوي الاهتمام المشترك وكذلك بين ذوي الاهتمامات المتباينة من أجل ان يتبين لكل طرف ما لديه من فجوات ونقص ومن أجل أن تتلاقح العقول بما يعود عليها جميعاً بالثراء المعرفي والوضوح المنهجي...

- إن المعرفة شديدة التمنع فهي لا تستجيب إلا للعاشقين الذين يديمون التعلق أما الذي يتعامل مع المعرفة باعراض وعدم اهتمام ولا يلجأ إليها إلا إذا كان راغماً أو مضطراً فهي أكرم وأمنع من أن تنقاد له فالمعرفة قيمة عالية وعيوقة فلا تهبط إلى مستوى الهازلين أو المعرضين..

- إن الناس لا يفهمون العلم ولا يستوعبون مغزاه إلا بمقدار ما ينالون منه ولكن هذا الإدراك أيضاً لا يتحقق إلا إذا كانوا في مجتمعات تمارس

العلم وتستفيد من تطبيقاته أما المجتمعات التي تستهلك إنتاج الآخرين المستمد من العلم فإن الناس فيها لا يفهمون العلم حتى لو نالوا فوائده العظيمة لأن هذه الفوائد لم تتمخض عنها جهودهم وإنما أنتجها غيرهم فلا يعرفون كيف بدأت ولا كيف تطورت ولا كيف تحققت بصورتها النهائية فهم يتلقونها كما يتلقون الغيث من سحاب لا شأن لهم بتكوينه وكما يستفيدون مما تنبته الأرض بعد أن ترتوي بمياه هذا الغيث دون أي اهتمام بالتعرف على المنشأ أو طريقة التكوين أو المآل..

- إن الثورة الصناعية هي التي أثارت اهتمام العلم وجذبت العلماء إلى العناية بالأمور العلمية فالعلوم كانت ذات مشاركة لاحقة ومتأخرة في تطوير وسائل الحياة البشرية لأن المهارات المهنية والحرف الصناعية ونشاطات الاختراع ومغامرات اكتشاف مجاهل الارض كلها كانت موجودة قبل تشييد النظريات العلمية وعلى سبيل المثال فإن صناعة السفن والمراكب سابقة لاكتشاف قوانين (الطفو) إنها ثمرة بداهة الخبرة أدت إليها الرغبة في المغامرة وهذا هو ما يؤكده النص الذي اقتبسناه عن توماس هوبز حيث يقول: «... فالفنون المفيدة كبناء الحصون وصنع القاطرات وغيرها من وسائل الحرب ذات شأن عظيم بسبب أنها تصلح للدفاع وتجلب النصر...».

يقول هذا بعد أن أكد أن: «... للعلوم تأثير قليل ... ولهذا لا نجد عند أي من الناس معرفة صحيحة بها ما خلا قلة منهم وهؤلاء لا يعرفون إلا أموراً قليلة فطبيعة العلم أن لا يفهمه أحد إلا بمقدار ما ينال منه...».

هكذا بكل وضوح وحسم يؤكد توماس هوبز أن النجاحات العلمية قد تحققت بمعزل عن تأثير العلم ولكن حين أحس العلماء بالعزلة التي فرضها إعراض الناس عنهم نشطوا في الاهتمام بمشكلات الحياة فنما العلم وتطور العمل حيث تحقق التلاقي الذي تأخر كثيراً وكانت مؤثرات شتى من العادات والموضوعات والتصورات والمفاهيم خلف هذا التأخر في التلاقي..

لذلك اشتد تطور العلم والتقنية كليهما حين حصل بينهما ذلك التزاوج الحميم غير أن الشيء الذي لا بد من تكرار تأكيده هو أن التقنية كانت الأسبق في دخول الميدان والتأثير الحاسم عليه وبسبب هذا التأثير المتفجر تحفزت غيرة العلماء فاندفعوا للمشاركة في التوجه الجديد المزدهر بعد أن قطعت التقنية أشواطاً رائعة بمعزل عن مشاركة العلوم بمعناها الحديث..

إن مغامرات الإنسان وتنوع نشاطاته وانفتاح آفاق العمل لديه وبروز

المخترعات التي لم تكن مألوفة هي التي أثارت اهتمام العلم اعجاباً بنجاحاتها المدهشة فدخلت العلوم النظرية ميدان الحياة لتأصيل هذه النجاحات وحل مشكلاتها الدقيقة وتوسيع نطاقها وتنويع مجالات ارتيادها وابداعها..

فإذا أردنا للناشئين أن تتوثق علاقتهم بالعلم وان يكتسبوا مهارات الأداء فيجب أن نؤسس علم الجهل وأن نحرص على أن يكون هذا العلم مصاحباً لهم في جميع المراحل التعليمية حتى يقتنعوا بالأبعاد الشاسعة للجهل من أجل أن نجعلهم يستشعرون على نحو متصل ضرورة الملاحقة الدائمة للمعرفة وأن يضعوا باعتبارهم دائماً نسبية معرفتهم مهما بلغت وأن لا يخلطوا بين حفظ المعلومات وتحصيلها وبين ادراك المهارات وبلوغ القدرة على اتقان الأداء فالمعرفة النظرية والمهارة المهنية شيئان مختلفان تماماً لكننا نخلط بينهما خلطاً اقعدنا عن كليهما..

الخميس ٤ شعبان ١٤١٥هـ ـ ٥ يناير ١٩٩٥م ـ العدد ٩٦٩١ ـ

تفوق الفكر لا تفوق الحفظ

ظاهرة حضارية رائعة أن يتسع الاهتمـام بالتفوق العلمي وأن تتسابق المناطق للاحتفال بالمتـفوقين وتشجيعهم انه احتـفال بجدية الإنسان وهذا هو محور العملية التربوية ولكن معيار التفوق هو الذي يحتاج إلى مراجعة واعـادة نظر ليكون التكريم للمـتـفوقين في الفـكر وليس للمستفـوقين في الحفظ فالعـقل ليس وعاء وإنما هو كما قال الدكتـور علي حرب: «... قدرة اجرائية وتقنية منهجية وفعالية نقدية...».

إن الحفظ هو مـادة الفكر وليس هو الفكر وهو ممون العلم ولكنه ليس هو العلم فـالعلم هو روح تنطبع في النفس وقـدرة تشيع في الكيـان وهو انتقال من حال السلب والتلقي إلى حال الايجاب والتفاعل تسري آثاره في كل تصرفات الإنسان وأساليب تفكيره وصور أدائه..

ولست أنكر أنه لا يمكن تشييـد الصروخ الشامخة ولا اقـامة المنشآت الانيـقـة إلا إذا توفـرت مـواد البناء لكن ليـس كل من توفـرت لديه المواد يستطيع أن يحيلها إلى صـروخ شامخـة أو منشآت أنيقـة وإنما قد يكون مـبلغ طاقتـه هو تقليب هذه المواد والغـبطة بحيـازتها دون أي قـدرة على تحويلها إلى شكل جـديد من أشكال التشييد بل دون أي شعـور بالحاجة إلى هذا التحويل ولا أية رغبة فيه فالتشييد الانيق يحتاج إلى المعرفة وإلى المهارة وقـد أصبح مـعروفاً أن اكتسـابهما يحـتاج إلى الإلتـزام الصارم والمراس الطويل والتفاعل المتكافيء النشيط اضافة إلى الموهبة السخية..

ومن المؤكد أن حالة الذي يركز انتباهه على حفظ المعلومات واستظهار الحقـائق دون هضمها وادمـاجها في تكوينه الـذهني والنفسي: هو أدنى

حالاً من الذي يكون همه حيازة المواد وتخزينها ذلك أن المواد لا تتفلت من مالكها أما المعلومات التي يتم حفظها بالذاكرة فهي شديدة التفلُّت خصوصاً وأن الدارسين في الغالب لا يحفظونها عن رغبة وإنما يحفظونها عن اضطرار لغاية محددة فإذا انتهت هذه الغاية لم يكن يعنيهم أن تبقى في الذاكرة أو تنسلخ منها فهم لا يستمرون في محاولة تثبيتها وحتى الذين يجاهدون من أجل الامساك بما حفظوه يبقى كسبهم المعرفي محدوداً فالذاكرة ليست مرجعا علمياً بأي حال بل ان الانشغال المستمر بتثبيت المحفوظ بالذاكرة يشغل الذهن عن الفهم ولذلك فإن التعليم الذي يعتمد على التلقين والحفظ ليس تعليماً حقيقياً وتبعاً لذلك فإن التفوق ضمن منهج تعليمي يقوم على التلقين والحفظ ليس تفوقاً يستحق الاحتفال.

إن الفرق بين الحفظ السلبي الصامت وبين الفكر المتحرك الناشط شبيه بالفرق بين الأوعية البلاستيكية وبين أجهزة الكمبيوتر فكلها مصنوعة من مواد متشابهة وإنما جاء هذا الفرق الشاسع نتيجة الفارق في أسلوب التصنيع وغايته فالأوعية مصنوعة للحفظ أما الأجهزة فمصنوعة للمعالجة والفرق بين النوعين مثل الفرق بين الموت والحياة ومثل الفرق بين كومة الحديد والطائرة السابحة في الهواء..

هذه صورة لتقريب الفرق بين التربية الفكرية التي تبني القدرة والتربية التلقينية التي تستهلك طاقة الإنسان وتصرف اهتمامه عن خصوبة الفكر وتوقف نموه الذهني وتختزل كل الخيارات المتاحة في خيار واحد فتوهمه بأنه ليس أمامه سوى هذا الخيار فتلغي فرديته التي هي أساس مسؤوليته ومنبع جهبذته فيكف عقله عن النشاط ويحصر اهتمامه بالحفظ والتكرار..

إن اعطاء المعلومات هو أدنى مهام التربية بل ان اعطاء المعلومات إذا أخذ صورة تلقينية فإنه يقضي على امكانات الأصالة الذهنية وهي أهم وظائف العقل..

ولذلك يقول الشاعر الفرنسي بول فاليري الذي كان معروفاً بميله إلى التأمل الفلسفي: «.. إن جوهر التعليم .. تربية الروح .. انه تهيئة الإنسان لكي يصبح ما لم يكن عليه أبداً..».

إن الإنسان بمفرده قادر على حفظ المعلومات دون معلِّم ولذلك فإن اعطاء المعلومات ليس هدفاً في ذاته وإنما هو وسيلة لبناء الشخصية المتوازنة والتمرين على الانضباط الواعي والتنظيم الدقيق والاسراع في انضاج اليافعين وخلق الاهتمام بالعلم واثارة الخيال والأخذ بوسائل

المهارة في الفكر والعمل والترويض على الصبر والمثابرة وتأكيد اتساع مساحة الجهل والحث على السعي الدائم للمعرفة والتدريب على كيفية التعامل مع المعرفة في التحصيل والاستخدام وادراك قيمة الوقت وكيفية تنظيمه واستثماره وتشييد المروءة ومقاومة عوامل الأنانية والتربية على الحياد الموضوعي وتأسيس الضمير المرهف وبناء الذوق الرفيع..

فلا يمكن اعتبار الطالب متفوقاً ما لم يكن شغوفاً ذاتياً بالمعرفة وليس مرغماً عليها لذلك لا بد أن يعتني التعليم بتكوين الاهتمام بالعلم كمفهوم عام مجرد بدل التركيز على مسائله لأن الإنسان لا يستطيع بلوغ غاية كبيرة كغاية العلم إلا إذا كانت محور اهتمامه ولكن الاهتمامات هي نتاج القيم السائدة في المجتمع فالناشئون لا يمكن ان يهتموا بالعلم ولا أن يكون تحصيل المعرفة غاية أساسية لهم إلا إذا كانت كذلك في سلم قيم المجتمع ولذلك يقول فورث: «.. إذا لم يكن هناك من تشجيع اجتماعي للنمو الفكري فإن البيئة قد يكون لها أثر مميت...».. فالعملية التربوية شديدة التعقيد وليست بالبساطة المتوهمة فليست تلقين معلومات ثم ترديد المحفوظ بالامتحانات وإنما هي عملية مركبة ذات وجوه متعددة وأقل هذه الوجوه أهمية هو تلقين المعلومات وبهذا نخلص إلى أن تكوين الاهتمام بالعلم هو أول وألزم مهام التربية العلمية وتبعاً لذلك فإن غرس الاهتمام بالعلم واثمار هذا الغرس هو التفوق الحقيقي الذي يستحق الحفاوة أما الطالب الذي لا يظهر منه اهتمام شديد ذاتي بالعلم وشغف حقيقي بالمعرفة فلا يمكن اعتباره متفوقاً حتى وان اضطر ان يحفظ مؤقتاً المسائل المقررة وان يفرغ هذا المحفوظ على الورق اثناء الامتحانات..

أما السمة الثانية للتفوق فهي الاصابة الذهنية فالمتفوق لابد أن يكون قادراً على التعامل مع المعطيات بمفرده وان يكون له رأي على قدر مقبول من الاستقلال وليس مجرد مردد فإذا اعتاد الانسان على ألا يسير الا خلف الآخرين فإنه لا يستطيع ان يمشي وحده فالطالب الذي يعتاد على مجرد الترديد يفقد حيوية العقل وتختفي عنده امكانات استقلال الفكر ولذلك فإن المهمة الثانية للتربية هي بناء الأصالة الذهنية وهذه تتطلب تنشيط وتوجيه الملكة النقدية لئلا يتحول الإنسان إلى امعة فالمعلومات قد تكون ضارة إذا فسرت تفسيراً خاطئاً وإذا كانت الاستفادة منها قائمة على الاحكام المبنية بدون أعمال الفكر بحيث يؤخذ التفسير المعلب باعتباره حقيقة مسلمة لأن الحكم المسبق يعطل فاعلية العقل ويوقف نمو الذكاء

ميلز في كتابه (الخيال العلمي الاجتماعي): «.. فالطلاب هم جمهور ماسور ويعتمدون على معلمهم الذي هو مثال لهم .. ومهمة المعلم أن يكون منضبطاً ذاتياً .. وفن التعليم هو فن التفكير بشكل دقيق وفعال ولكنه واضح .. وفي أيما كتاب يحاول الكاتب أن يقنع الآخرين بنتيجة تفكيره اما في غرفة التدريس فعلى المعلم أن يسعى إلى أن يبين للآخرين كيف يفكر الإنسان الواحد (بمفرده) .. وعليه في الوقت عينه أن يظهر أي شعور ممتع يتملكه حينما ينجز مسعاه بشكل جيد (كما) يترتب على المعلم أن يجعل الافتراضات والوقائع والمناهج والاحكام واضحة جداً ولا يحجب أي شيء ولكن عليه أن يوضح دائماً وتكراراً كل سلسلة البدائل الاخلاقية قبل أن يعطي خياره الخاص..» حتى لا يبرمج عقول الناشئين الذين يجهلون البدائل الكثيرة ولا يعرفون الخيارات الأخرى المتنوعة..

فالطالب المأسور الذي هو مجرد صدى لا يمكن وصفه بالمتفوق حتى ولو نال أعلى الدرجات لأن جهاز التسجيل سيكون أجود اداء منه لترديد ما وضع فيه فالمهم هو وجود الأصالة الذهنية اما استرجاع المحفوظ فلا ينطوي على أية دلالة ايجابية وتبعاً لذلك فإن المعيار الحقيقي للتفوق في مستوى التفكير أنه تكوين القدرة النامية وتشييد ملكة الحكم وخلق الفاعلية الذهنية التي تستطيع التعامل الواعي مع كل المواقف المتباينة.

إن هذا هو الذي انتهت إليه بحوث علم النفس وعلم التربية وتأخذ به المناهج التعليمية في المجتمعات المتقدمة فلقد توصل العالم الفرنسي الشهير بياجيه وتلامذته بعد اختبارات علمية واسعة إلى أن الاجابة الصحيحة التي تعتمد على الحفظ لا تدل على الفهم فالذي يحفظ يسرد الاجابة الصحيحة كاملة دون أن يهضم المفاهيم فبياجيه ومدرسته أثبتا علمياً أننا نستطيع ان نجعل الدارس: «... بواسطة الحفظ يعطي اجابة صحيحة إلا أن هذا لا يعني ابداً أنه قد اكتسب المفهوم لأن تغير صيغة الاختبار ستؤدي إلى اعطاء اجابات خاطئة...».

وأوضح الأمثلة على هذا النمط الذي يحفظ بدون أن يفهم نجده في مادة النحو فالطالب يحفظ القاعدة ومثالها وبذلك يحصل على الدرجة الكاملة ولكنه إذا قرأ وكتب وقع في لحن شنيع ولو تغير عليه المثال الموجود بالكتاب لضاعت منه الاجابة الصحيحة ومع ذلك فإنه يعد من المتفوقين لمجرد ان استرجع ما حفظه حتى وان كان بدون فهم لقد تعود على استظهار المادة دون هضم ولذلك يرتبك ويتيه لأي تغير في معالم الطريق الذي اعتاد عليه وهو شيء طبيعي مادام ان العملية تقوم على

الحفظ وليس على الفهم والوضوح المعرفي..

وليس هذا الترديد الأبله مقتصراً على النحو وانما ينسحب على كل الفروع المعرفية فمعيار التفوق السائد هو حفظ القاعدة والمثال أو حفظ القانون العلمي ونموذجه فإذا تغير المثال أو اختلف النموذج ضاع كل المحصول..

ومع كل هذا العقم تعد هذه سبيل التفوق والتبريز ولذلك فإن الأذكياء الذين لا يستسيغون هذا الترديد الأبله فلا يقتصرون على الكتب المقررة ويقتحمون آفاق المعرفة الواسعة ذات الخصب والغزارة والتنوع: هذه الفئة القليلة المتفوقة حقاً لا تحصل على امتياز التفوق السائد لأن عقولهم أوسع من أن تبقى داخل النطاق المغلق وأذهانهم أنشط من أن تتجمد في نطاق حفظ القاعدة والمثال واستظهار القانون والنموذج..

يقول الدكتور محمد نور الدين: «.. فالعقل بوصفه عملية ذهنية لا يمكن أن يغتني ويتطور إلا ضمن مناخ اجتماعي وثقافي يسمح بهوامش الحرية وأما العقل باعتباره قدرة على التفكير والتقييم والحكم فلم نتعود في تنشيئتنا العامة على الإستئناس به لأن أنظمتنا التعليمية تلقينية تطالب بالحفظ وإعادة الإنتاج ولا تسمح بالاختلاف وسلوك سبيل السؤال..».

ويقول: «.. إن هناك هوة سحيقة بين الفكر والواقع في العالم العربي والتضخم الايديولوجي أصبح عائقاً يحول دون انتقال العقل العربي من الاستهلاك إلى الفعل ومن التردد إلى الخلق فكل فئة تجد نفسها في اطار مرجعي يتخذ صفة المطلق الأمر الذي حول الوجود العربي إلى وجود ايديولوجي بامتياز يعاند كل ارادة للمعرفة أو الرغبة الصادقة في فهم مختلف..».

فهذا المنطق التلقيني يخمد جذوة حب الاستطلاع ويوقف نمو القدرات الذهنية لأنه: «... يطغى على الأدوات المعرفية والأساليب المنهجية ويغيب المفاهيم والأشياء..» فلا شيء يوقف نمو الذكاء مثل اخماد غريزة التساؤل واطفاء جذوة الدهشة واقتناع العقل بالكف عن الحركة والاكتفاء بترديد ما يسمع على طريقة: (سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)...

ومعلوم أن الدكتور محمد نور الدين لا يخص بلداً عربياً دون آخر وإنما هو يصف ما يحسبه سائداً في جميع البلدان العربية وهو يريد أن ينبه للنتائج التدميرية التي تصيب عقول الناشئين والأجيال المتتالية بسبب استمرار الأسلوب التلقيني في التربية العربية..

أما الكاتبة السعودية جهير عبدالله المساعد فتتحدث عن خصوصية

التربية في بلادنا فتقول: «.. إن التفوق في مدارسنا لا يتطلب أكثر من الحفظ وتكرار الذاكرة هو لا يتطلب اجتهاداً في الذكاء أو في القدرات أو المهارات الخاصة .. وهو فقط يقدم معلومات وهذه المعلومات لابد من تكرارها وحفظها وكتابتها على ورق الامتحان.. المتفوق في مدارسنا ليس معناه أنه موهوب...».

وتقول: «.. معظم المتفوقين لا يتعدى تفوقهم الكتاب المدرسي فقط.. المتفوق في الغالب مشغول بحفظ الكلمات والسطور والأوراق وابتلاع المنهج الدراسي لذا ليس لديه وقت ان ينمي في شخصيته جوانبها الأخرى كما وان المحيطين به يركزون فقط على تفوقه في (الحفظ) ويتجاهلون قدراته...».

هذه الكاتبة المعروفة التي عاشت طويلاً مع مباهج المعرفة وعرفت كيف يتأسس التفوق الحقيقي: يغيظها أن يكون طلابنا بدون هوايات متنوعة نافعة تفتح أذهانهم على آفاق المعرفة والحياة فالذين تعتبرهم المعايير التعليمية متفوقين: هم في الواقع سجناء المقرر الدراسي ولذلك فهي تتمنى أن تتخلى عن غلواء الحفظ وان يكون همنا تربية الناشئين على حب المعرفة وتنمية القدرة والاندفاع لاكتساب المهارات..

وهي تريد للطالب: «.. أن يتعلم مهارات جديدة وأن يقرأ غير الكتاب المدرسي .. ويتعلم ابداعات تعطيه فرصة الابتكار .. لا أن يكون سجين المنهج المقرر .. والتفكير الصامت الذي لا يسمح له بالقاء سؤال جريء أو مناقشة فكرة طارئة أو معارضة رأي معلم يرى دائماً أنه الأصوب...».

أما هؤلاء الذين تعتبرهم المعايير متفوقين فإن تفوقهم: «.. لا يتعدى الكتاب المدرسي فقط لكن ما هي هواياتهم التي أستطاعوا تنميتها .. ما هي مهاراتهم التي اكتسبوها .. ما هي أدوارهم التي حققوها..؟..».

إن مهمة التعليم ليست تعبئة الذاكرة التي هي شبيهة بقفص مفتوح فهي تفلت ما يوضع فيها وإنما مهمته تشييد القدرة ليكون الذهن قادراً على التعامل مع كل المتغيرات السريعة المتلاحقة لأن الاعتماد على حشو الذاكرة يحيل العقل من قدرة فاعلة ومتحركة ومرنة وقابلة لأي تغيير إلى جهاز مبرمج ومغلق..

إن النجاح الباهر الذي احرزه اليابانيون يعود إلى أسباب كثيرة منها أن اليابانيين قد أدركوا هذه الحقيقة ولذلك فهم يربون أجيالهم على أساس القاعدة التي تقول: اعطاء الفرد سمكة واحدة يوفر له غذاء مرة واحدة .. أما تعليم الإنسان كيف يصطاد السمك فإنه يضمن له غذاء متجدداً

ودائماً..

ومثل ذلك يقال عن التعليم لأن التركيز على حفظ القواعد والمسائل واستظهار القوانين والنماذج هو شبيه بتوفير الغذاء مرة واحدة أما تربية العقل على التفكير السديد المنظم الجسور فهو يشبه التدريب على الاصطياد في كل البحار..

لذلك ينبغي أن نعيد النظر في معايير التفوق ليكون الاهتمام ببناء الملكات العقلية وتنشيط المواهب الذهنية وتحريك الخيال والنزوع إلى المهارة والابتكار وتجدد الرغبة بالمزيد من مهارات الفكر والعمل..

الرياض ١٨/٣/١٤١٥هـ - ٢٥/٨/١٩٩٤م.

الآراء تدور مع الأهواء

يتنافر الناس بقدر اختلاف آرائهم ولكن آراءهم لا تستقر بل تتبدل بتبدل اتجاهات أهوائهم فهي دائمة التذبذب وثباتها مرتبط بثبات الأهواء فإذا تغيرت الأهواء تغيرت الآراء مما يستوجب أن يدرك الناس ان آراءهم في الغالب ليست قائمة على أسس موضوعية وإنما تتقلب مع تقلب الرغبة..

ورغم هشاشة الأساس الذي تقوم عليه الآراء فإنها توجه نشاط الناس وتصطبغ بها علاقاتهم وتؤدي إلى تناغم المجتمع أو تنافره ومع كل هذا فإن الناس لا يهتمون بتمحيص آرائهم كما أنهم لا يعتنون بكيفية تكوين هذه الآراء ولذلك فإنها تقوم في الغالب بعيداً عن رقابة العقل والضمير رغم أنه قد يترتب عليها احياناً أخطر النتائج على مستوى الفرد والمجتمع أو قد ينجم عنها اعاقة حضارية وشلل اجتماعي حيث تتبدد طاقة المجتمع وتتعثر مبادراته الرائدة..

فحياة الأفراد والمجتمعات والأمم تنهض بينما العلاقات تتأسس على الآراء فآراء الناس بعضهم ببعض هي التي تحدد أسلوب التعامل بينهم فيكونون متعاونين أو متنافرين ولذلك فإن الالتزام الأخلاقي في تقييم الآخرين والحكم على أعمالهم ليس قضية فردية وإنما يجب أن يكون هماً جماعياً..

إن العداوات التي تنشأ بين الأفراد أو بين الأسر أو بين المجتمعات والشعوب والأمم ما هي إلا ثمرة آراء بعضهم ببعض وفي الغالب لا تكون هذه الآراء مبنية على بيانات موضوعية وإنما هي حصيلة آليات نفسية

واقنعة تبريرية: «.. تفعل فعلهـا في طمس الكائن والحدث...» .. فتحيل المليح إلى قبيح..

وليست الآثار المدمرة الناجمة عن فقدان الموضوعية مقصورة على الأحقاد التاريخية العميقة ولا العداوات المتراكمة الدفينة وإنما أوثق العلاقات معرضة للانهيار لأوهى الأسباب حتى أن المتآلفين قد يجتمعون وهم في حالة وئام تام ولكن قد لا تنقضي جلستهم إلا بعد أن يصيروا متنابذين لاختلاف الآراء أو بسبب توهم أحدهم أنه قد عومل معاملة لا تتفق مع ما يضمره لنفسه من مكانة فينقلب الحب إلي كره ويحل الاحتقار محل الاحترام ويستتبع ذلك احتقار وكراهية كل شيء له صلة بالطرف الآخر من الأفكار والأعمال والأشياء والأشخاص..

هكذا حدث عارض تافه يثير الغضب فتنجم عنه كراهية دائمة وتنافر مستمر وتغير في المواقف وانقلاب في الأحكام مما يؤكد أننا امام قضية مركزية لها أكبر الأثر على سلوك الناس وتصرفاتهم لأنه من هذه التصرفات وهذا السلوك تتكون نشاطات المجتمع ويتحدد مساره..

إن غياب التنشئة علي الموضوعية العادلة قد جلب على الأفراد والمجتمعات وعلى الإنسانية افدح الكوارث فالمتآنفون الذين ينقلبون فجأة إلى متخاصمين لم يطرأ أي تغير على ذواتهم وإنما التغير قد طرأ فقط على آراء بعضهم ببعض واستتبع ذلك أن تتغير الأحكام والمواقف ويكون ذلك في الغالب دون أي مبرر موضوعي..

وإذا كانت الآراء والأحكام والمواقف تتغير بكل هذه السرعة وبكل هذه السهولة وانها تدور مع الهوى حيث دار وتتأرجح مع الرغبة حيث مالت: فإن تقييمنا لآرائنا وآراء الآخرين يجب أن يرتبط بهذا السياق بحيث يستمد مقتضياته من هذا الواقع الذي لا محيص عنه فلا يشتط المرء بالتأييد ولا يبالغ بالمعارضة وإنما يوطن نفسه على الاستقصاء الموضوعي والتحليل الأمين لتكون آراؤه وأحكامه ومواقفه قائمة على استنطاق الوقائع بنزاهة وصدق وتجرد وبذلك لا يكون قد حقق الموضوعية الكاملة وإنما يكون قد بذل جهده من أجل بلوغها..

إن الذي يقرأ التاريخ بانتباه ويتأمل مواقف الناس بتمعن سوف يكتشف هشاشة الأساس الذي تقوم عليه الآراء والأحكام والمواقف ويكفي برهاناً على هذه الهشاشة أنه في حالة الغضب ينقلب في نظرهم الصواب إلى خطأ ويتحول الحق إلى باطل ويكتسي الجميل بأبشع غلال القبح..

ورغم فداحة الأضرار التي يجلبها الغضب فإنه ليس نادراً في حياة

الناس بل هو من صميم تكوينهم ويصطبغ به دائماً سلوكهم ولا هو أيضاً بطيء الاستجابة ليتفق ذلك مع نتائجه الوخيمة وإنما هو جاهز دائماً على سطح الشعور يضطرم لأتفه الأسباب ويشتعل لأقل الحوادث..

سوء فهم لموقف أو سلوك عابر أو تصرف عفوي أو كلمة غير محسوبة أو حادث فردي أو خطأ في التفسير قد يؤدي أي منها إلى اثارة الغضب فيحتد الخلاف وقد يؤدي إلى تفكك أسرة أو قطيعة رحم وقد تتسع الأضرار فتشمل مجتمعاً بأسره أو شعوباً بأكملها أو العالم أجمع حسب مواقع المختلفين ومدى تأثير تصرفاتهم على الآخرين..

إن الغضب يقابل بغضب مماثل ولكنه مضاد تبعاً لقانون الفعل ورد الفعل ومعلوم أن طوفان الغضب يغرق العقل ويشل الإدراك ويعطل فاعلية البصيرة ولا يترك فرصة للحساب والمراجعة فالناس في حالة الغضب ينسون حتى الحفاظ على حياتهم فيتهورون في سلوكهم بتصرفات تلحق الضرر بهم وبغيرهم ففي غياب العقل بالغضب قد يرتكب الإنسان عملاً أهوج وقد يحصل الانتقام ومع الانتقام تتضاعف مساحات الغضب ثم تمتد الحرائق في النفوس فلا تهدأ حتى تكون قد تسببت في فجائع مروعة وقد تكون فجائع محدودة أو فجائع شاملة حسب مكانة المتخاصمين .

ولو استطاعت البشرية أن تحصر المآسي التي تحدث في يوم واحد فقط في كل الدنيا بسبب التغاضب أي الغضب والغضب المضاد لظهرت نتائج مفزعة ولثبت أن الغضب من أكبر أسباب الهدم على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والشعوب والامم والعالم..

ويكفي أن نتذكر بأن الحرب العالمية الأولى اشتعلت بسبب غضبة عارمة أثارها حادث فردي صغير وهو نموذج شائع لأسباب الاحداث الكبرى والصغرى في التاريخ البشري المملوء بالحماقات..

ومع هذا التأثير الحاسم للغضب والرضا في سلوك الناس فإنهم يضفون على آرائهم وأحكامهم ومواقفهم هالة كبيرة ويضمرون لها في نفوسهم قيمة عظيمة مع أنها تتأرجح في الغالب مع تأرجحهم بين حالات الرضا والغضب وهي حالات شديدة التذبذب بسبب مؤثرات آنية متغيرة مما يجعل علاقات الناس معرضة دائماً للتغلب الشديد بين أقصى صور القبول إلى أقصى صور الرفض لأسباب غير منطقية وبعيدة عن الحق والعدل ومجافية للصواب بل ومنافية للعقل..

ومع كل هذا التذبذب الذي يبلغ درجة التناقض التام بين آراء وأحكام ومواقف اليوم والأمس فإن الناس في معظم الأحيان لا يشعرون بهذا

التأرجح فيستجيبون لعواطفهم دون تدخل العقل ويرتكبون من الحماقات ما لا يستسيغونه من غيرهم..

إن كل الحماقات البشرية هي حماقات في نظر المحايدين أو الخصوم أما في نظر الفاعلين فإنها الرشد بتمامه وهي العقل بكمال تألقه وهي البصيرة في ذروة سطوعها..

إن الناس يستحسنون من أنفسهم كل فعل ويبررون لذواتهم كل موقف ويجدون العذر الكافي لأي عمل يقومون به بل لأية حماقة يرتكبونها..

فالحياد الموضوعي حلم لذيذ لكنه حلم مستحيل وأشد الناس اقتراباً منه هم الذين يدركون استحالة بلوغه وأبعدهم عنه هم الذين يتوهمون أنهم يمارسونه صافياً في حياتهم بصورة عفوية..

والمعضل في الأمر أن الناس منحازون تلقائياً لذواتهم ولكل ما يمت بأي صلة إلى هذه الذوات ولكنهم يغفلون غفلة مطبقة عن هذا الانحياز ويتوهمون أنهم منصفون في أحكامهم وأنهم صادقون في مواقفهم وأنهم معتدلون في آرائهم فيقعون في الجور وهم يظنون أنهم يقيمون العدل ويرتكبون الخطأ وهم يتوهمون أنهم يساندون الصواب...

إن الإنسان الذي يسعى جهده للالتزام بالحياد الموضوعي وهو يدرك صعوبة تحقيقه: يستطيع أن يتخفف من بعض أثقال الأهواء وأن يتخلص من بعض قيود الرغبة لأنه يكون على وعي تام بهذه الأثقال ويكون مدركاً لطبيعة هذه القيود كما يكون عازماً على مقاومتها فيتضاءل تأثيرها بالقدر الذي تسمح به طبيعة الموضوع وطبيعة البشر..

أما الذي يتوهم أنه موضوعي بالسليقة وأن آراءه وأحكامه ومواقفه عن الأفكار والأشخاص والمواقف والأحداث والأشياء تتسم بالموضوعية بشكل تلقائي ودون عناء: فإنه في الغالب يكون أبعد الناس عن الحياد الموضوعي ولذلك تأتي آراؤه وأحكامه ومواقفه مشحونة بالتعصب والنزق والجور والفجاجة والجهل الفظيع..

ومع أن هذه الحقيقة أصبحت من بداهات علم النفس الذي هو علم السلوك أو علم الطبيعة البشرية إلا أنها كانت معروفة لأهل النظر منذ القدم قبل ظهور علم النفس وفي ذلك يقول ابن المقفع في الأدب الصغير: «.. وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تسويف الرأي وإسعاف الهوى..». فالأهواء لها على النفوس سيطرة تلقائية قوية وجارفة أما تحري الرأي الصائب فهو يحتاج إلى جهد

استثنائي من الايقاظ الدائم لملكة الحكم والحفز المستمر لرقابة الضمير..

ويقول ابن المقفع أيضاً «وعلى العاقل إذا اشتبه عليه امران فلم يدر في أيهما الصواب: أن ينظر أهواهما عنده فيحذر...».. لأن النفوس تنقاد بصورة تلقائية لما تهواه أما إيثار الحق على الهوى فإنه لا يتم بجهد عفوي وإنما يتطلب استنفار الطاقة الأخلاقية ولذلك فإن الذي يسعى للحق لابد أن يكون شديد الحذر من أهوائه ودائم المراقبة لميوله يذود عن نفسه عن الجور ويتسامى بها إلى الحق..

ولا يفوت ابن المقفع ان ينبه إلى أن آراءنا واحكامنا مرتهنة بالرضا والسخط وانها سجينة الحب والكره فيقول: «.. احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل وأعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة واعلم أنك لا تصيب الغلبة (على أهوائك) إلا بالجهاد وأن قلة الإعداد لمدافعة الطبائع هو الاستسلام لها وأنه ليس أحد إلا فيه من كل طبيعة سوء غريزة وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء..».

بهذا النص القصير يكاد يلخص ابن المقفع أسباب العجز عن الحياد الموضوعي كما يلخص وسائل العلاج لهذا العجز فأسباب العجز عن الحياد الموضوعي في نظر ابن المقفع هي الأنانية والغضب والحمية والحقد والجهل وهي طبائع بشرية راسخة ومستشرية .. أما مقاومة هذه الآفات النفسية فتكون بالحلم والتفكر والروية وتذكر العواقب وإيثار الفضيلة وادراك أن هذه الطبائع السيئة قائمة في كل إنسان وان التغلب عليها لا يكون بتجاهلها وإنما يكون بالاعتراف بها والاصرار على مجاهدتها..

فالإنسان بطبعه متحاز لذاته وهذا الانحياز ملازم لكل البشر فهو بمثابة الاعاقة الطبيعية التي لا مفر منها ولذلك فالفضل ليس بادعاء البراءة اصلاً من هذا الانحياز وإنما الفضل كل الفضل في الاعتراف بوجود هذه الاعاقة والعزم على مجاهدتها وبذل الجهد للتغلب عليها فهي شبيهة بتهذيب وتنظيم وضبط شهوة الجنس أو غيرها من الاستجابات الغريزية التلقائية التي لا يعاب الإنسان على وجودها به وإنما يعاب على عجزه عن ضبطها وتنظيمها..

وحين تقترن الأنانية بالغضب الأهوج أو الحمية العمياء أو الحقد المجنون أو الجهل الشائن فإن الإنسان يصير وحشاً ضارياً بل يصبح اخطر من الوحوش .. لان الوحوش محكومة بغريزة مقننة ومنضبطة في

للبرمجة الغريزية الصارمة وإنما هو محروم من وسائل الضبط التلقائي الذاتي حيث تكون طاقة العقل مختفية أمام جيشان الأهواء..

ولذلك فإنه من النادر أن يلتزم الإنسان بالعدل وهو غاضب ومن النادر أن يقول كلمة الحق وهو حاقد ومن النادر أن يتحلى بالاتزان وهو مندفع وليس للجهول المتعنت من سبيل إلى معرفة الصواب أو الاعتراف بالخطأ أو الاهتداء إلى الحق..

الرضا والسخط كلاهما يغشي بصيرة الإنسان فيعميه عن رؤية الصواب ويصرفه عن اكتشاف الخطأ فالرضا يجعل اقبح الأشياء والأفعال والأفكار والأشخاص والأحداث والمواقف تتسم بالجاذبية والجمال والقبول..

كما أن السخط يحجب جمال الأشياء والأشخاص والأفعال والأفكار والمواقف ويسلب منها كل أسباب الجاذبية والقبول ويختلق لها من صفات القبح ومن دواعي النفور ما يخرجها من دائرة الرأي المنصف إلى مستنقع الهوى الجائر..

فأحكام الناس وآراؤهم هي في الغالب لا تصدر عن التفكر والتأمل والاستقصاء في طلب الحق واستشعار الصواب وإنما هي في معظم الأحيان نتاج الرضا والسخط تتلون بحالات الأمزجة كما يتلون الماء بألوان الآنية :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

لذلك فإن أحد المفكرين ينفي الحياد الموضوعي نفياً قاطعاً ويرى أنه أكذوبة مضللة فيقول: «... الحياد في أي شيء أكذوبة كبيرة فالانسان يحب ويكره ويفرح ويحزن ولأنه تعلم النظر إلى الأشياء بطريقة معينة فإنه يقيم هذه الأشياء وفقاً لتلك الطريقة...».

ويقول: «.. ليس المنطق هو ما يقرر عواطف الإنسان فهناك مجموعة من الدوافع والأسباب وربما قوى أخرى تلعب أدواراً أساسية في سلوكه وتفكيره وردود فعله وربما لا يدركها هو نفسه...».

والسبب في هذا الانغماس في اغراءات الأهواء أنه كما قال الفيلسوف الأمريكي رالف بارتون بيري: «.. في الضوء الساطع المنبثق من رغبات الإنسان الخاصة المحسوسة: يحتجب الحقل الشاسع لرغبات الآخرين حوله وتحتجب كذلك آمالهم ومخاوفهم وأفراحهم وأحزانهم وهكذا يعيش الإنسان في عالم صغير وقد اعتنق جزءاً ضئيلاً جداً من قيم العالم الأكبر

.. إن العلاج الوحيد لهذا التعامي هو التعاطف أي قوة الشعور التي تتغلغل إلى أعماق الآخرين وتشارك في اتجاه حياتهم العاطفية..».

إن ذوي المشاعر المرهفة والضمائر الحية يروعهم أن تطفو الأهواء على سطح الحياة الإنسانية فتغمرها بالشرور فهذا الشاعر محمد المشعان يفزعه استرسال الناس مع أهوائهم فيصوغ أساه في قصيدة بعنوان (إلى شاطئ الأهواء) نشرها في ملحق (ثقافة اليوم) في العدد ٩٥٣٠ جريدة الرياض وفيها يقول:

إن المآسي في الديار لها
طلع فمن بالأمس قد بذروا
ومن الذي أغرى الذئاب بها
حتى غزا آفاقها الخور
حتى غدت دنياك مهزلة
يجني عليها ثم تعتذر
الحق كل الناس تعشقه
غنى له البادون والحضر
لكنها الأهواء ان شطحت
شذ النهى والسمع والبصر
واستنسر الأوغاد في سفه
واستنكف الأبرار واندحروا
أضحت سمات الخير باهتة
وبدا كأن العقل محتقر

أما الكاتبة فوزية الجارالله فتعبر عن أساها نثراً ولكن بروعة لا تقل عن روعة الشعر حيث تستهل مقالتها في الملحق ذاته بجملة تعبر عن حقيقة بالغة الأهمية هي من خلاصات التجربة البشرية: «.. لن أعجبك حين أغضب..» هكذا فالغضب يسكت صوت العقل ويطفيء نور البصيرة انه وقود الحماقة ونذير الشر وبداية الانفصال وشرارة الحرائق في الحياة الإنسانية...

ومع أن الغضب شر لابد منه لصيانة حقوق الإنسان والدفاع عن كرامته إلا أنه لابد من ادراك خطورته على الحقيقة وعلى الذات وعلى الأسرة وعلى الآخرين وعلى المجتمع وعلى الحياة الإنسانية اجمع انه

طاقة مدمرة فهو شبيه بالسم القاتل الذي تختزنه الأفاعي والعقارب وكافة ذوات السموم..

تقول الكاتبة فوزية الجار الله: «.. أما القصة فتدور حول رجل طيب هادىء مسالم إلى أبعد مدى لكنه في لحظات الغضب يتحول إلى رجل اسطوري يحطم.. ينسف .. يفجر .. يفعل كل ما يمكن في سبيل رفع الظلم الذي أطبق عليه من كافة الجهات .. ذلك الرجل الأسطوري هو رمز للغضب الكائن في أعماق كل منا بدافع حب الحياة .. ليست الحياة فقط وإنما الحياة بمعناها الأجمل .. الحياة التي تليق بإنسان يدافع عن وجوده .. يحمي كرامته .. ولا يرضى الذل أو الإهانة..».

وتواصل الكاتبة وصفها الرائع للإنسان الغاضب: «.. كلنا نحمل هذا الإنسان الأسطوري في لحظات الغضب .. ولكن هذا الغضب ان لم يؤطر بميزان العقل يصبح كارثة على صاحبه وعلى من حوله فالكثير من الجرائم ترتكب في حالة غضب والكثير من الأخطاء الفادحة يؤديها أصحابها في حالة غضب وفقدان للاتزان وعدم ضبط المشاعر..» فالإنسان الغاضب: «.. يصبح متوحشا مخيفا .. يحطم الأبواب .. يفجر الجسور .. يسحق ما أمامه..».

إن النفس البشرية شديدة التعقيد ولذلك فإن استخلاص ما فيها من نوازع الحب والحق والخير واتقاء ما تنطوي عليه من طبائع التحيز والجحود والاجحاف تتطلب ان نتفهم الطبيعة الإنسانية وان نسعى قدر الإستطاعة لاستنفار نوازع الخير واخماد نوازع الشر.

«الرياض» ١٤١٥/٣/٤هـ - ١٩٩٤/٨/١١م.

الابتهاج بالعلم شرط لتحصيله

لا يكتفي الفيلسوف الألماني الشاعر جوته، بأن يجعل حب المعرفة شرطاً لتحصيلها، وإنما يجعل مقدار ما يحققه الإنسان من المعرفة عمقاً واتساعاً: مرتبطاً بمقدار الحب لها والانفعال من أجلها وفي ذلك يقول: «.. لا يأخذ المرء في معرفة شيء إلا إذا كان يحبه والمعرفة ستكون من الاحاطة والعمق بقدر ما يكون الحب، بل والانفعال نفسه أعظم قوة وأحفل حياة..».

ومترجم هذا النص الدكتور عبدالرحمن بدوي، يؤكد في كتابه (الموت والعبقرية) بأن جوته طالما أكد هذا المعنى: «... وعبر عنه في صور متعددة في مختلف مؤلفاته حتى صارت هذه الصيغة أكمل تعبيراً عن توكيد الصلة بين المعرفة والحب على أساس أن الأولى تنبع من الثاني..».

عبقري فذ بدرجة جوته لا يدعي بأن معرفته الزاخرة كانت من ثمرات موهبته النادرة وإنما يعترف بأنها نتيجة الاهتمام المستغرق الذي يولده الحب العميق..

وإذا كان الحب شرطاً لمجرد تحصيل المعرفة وان درجة التحصيل تكون مرتبطة بدرجة الحب ارتباطاً سببياً فإن هذا الشرط يكون ألزم وأوثق في المهام الابداعية أو حتى لما هو دون ذلك من مطالب المهارة في الفكر والعمل..

جوته بعبقريته الفذة النادرة لا يأخذه الصلف ولا يخدعه الغرور كما يفعل بعض الجاهلين بأن ذكاءه الخارق هو مصدر ثرائه المعرفي أو بأن معرفته الواسعة العميقة هبطت عليه وهو غير مكترث وإنما يجعل الاهتمام

الشديد المدفوع بالحب الدافق هو الشرط الأول لهذا الثراء المعرفي..

ولا ينفرد جوته بهذا الربط الوثيق بين الحب والمعرفة، باعتبار إحداهما نتيجة للآخر. وإنما يتكرر هذا المعنى في كتابات النوابغ وأهل التفوق فهذا العالم الشهير ماكس فيبر يؤكد المعنى ذاته في كتابه (صنعة العلم) فيقول: «... لن يتاح ابداً امتلاك التجربة الشخصية للعلم بدون هذا الثمل العجيب فبدون هذا الانفعال أو الهوى أنت لست مدعواً للعلم وينبغي لك ان تفعل شيئاً آخر لأنه ما من شيء جدير بالإنسان كإنسان إلا متى استطاع الإنسان أن يطلب هذا الشيء ويفعله عن هوى متحمس وتفان انفعالي...».

ولا يفوت ماكس فيبر أن يبدد بعض الأوهام التي خلقتها مواضعات الدراسة الشكلية ذلك أنه في السابق لم يكن ينخرط في مجال العلم سوى أهل الشغف الحقيقي الذين يدفعهم إلى المعرفة حماس فياض نابع من أعماق الذات أما الآن فقد صار يلتحق بالجامعات جموع غفيرة معظمهم لا تربطهم بالمعرفة علاقة حب وإنما تربطهم بها علاقة اضطرار فهم طالبو شهادات وليسوا طلاب علم لذلك فإن ماكس فيبر يريد أن يدرك هؤلاء بأن الأفكار طيور مغردة أبية لا يجتذبها عقل خامل ولا تخطر على ذهن كسول بل هي تستجيب فقط للوالهين المتمرسين الناشطين فيقول:

«... ومما لا ريب فيه ان الحماس هو شرط مسبق لذلك الالهام صاحب الدور الحاسم ففي أي من هذه ثمة فكرة واسعة الانتشار بين أوساط الشباب مفادها أن العلم أصبح مسألة اجراء حساب يتم تركيبها في المختبرات أو في أنظمة التصنيف والتوضيب الاحصائي كما هي الحال تماماً داخل المصنع أو المعمل، وان هذا النوع من الحساب لا يتطلب سوى الذهن الهادىء وحده وليس فيه أي شأن لقلب الإنسان وروحه هنا يجب القول بأن مثل هذه التعليقات ينقصها الوضوح وفهم ما يدور داخل المصنع أو في المختبر ففي هاتين الحالتين (في المصنع والمعمل) يجب أن تخطر فكرة ما في ذهن شخص معين وينبغي لها أن تكون فكرة صحيحة ومثل هذا الحدس لا يمكن الوصول إليه بتكلف أو بانتزاعه عنوة، فهو عديم الصلة بأي حساب رتيب .. وإنما يجري إعداد مثل هذه الفكرة فقط فوق تربة العمل الشاق جداً .. فكلاهما أي الحماس والعمل .. كلاهما معاً قبل كل شيء يستطيعان اجتذاب الفكرة وغوايتها...».

وهو يجعل الولع بالشيء والحماس له والتفاني في ملاحقته ملازمة لكل نجاح ليس في مجال العلم فحسب وإنما في مجال الصناعة والتجارة والتنظيم وفي كل نشاط يحتاج إلى الخلق والابتكار فيقول: «... فمن

المؤكد أن الأفكار ما كانت لتخطر في الذهن لو لم نبحث عن الأجوبة بتفان انفعالي وهوى متحمس .. فالتاجر أو الصناعي الكبير دون أن تكون له مخيلة للأعمال أي بدون أفكار وخاطرات واستيعادات مثالية سوف يبقى طيلة حياته ذلك الرجل الذي كان من الأفضل له البقاء كاتباً أو موظفاً تقنياً .. إنه لن يكون خلاقاً ومبدعاً بالمعنى الصحيح في ميدان التنظيم...».

كما يؤكد بأن نشوة المعرفة هي منبع العلم والفن وبأنها حافز الإبداع والكشف وبأنه لا يمكن امتلاك أي منهما إلا اذا بلغ الشغف درجة الاستغراق، بل يرى ان ذلك لا يكفي حتى يبلغ التعلق درجة الهوس: «.. إنها لحماقة صبيانية حين نعتقد بأن عالم الرياضيات يتوصل إلى أية نتائج ذات قيمة بمجرد جلوسه خلف مكتبه مستخدماً المسطرة أو الآلات الحاسبة أو غير ذلك من الوسائل الآلية ومع أن المخيلة الرياضية هي بالطبع تختلف تماماً من حيث اتجاه معناها ونتائجها عن مخيلة فنان كما تختلف عنها في النوعية والكيفية بصورة أساسية أما العمليات السيكولوجية والمسرات فلا تختلف لدى الاثنين فكلاهما نشوة وهوس...».

وهذا المعنى نجده ماثلاً في حياة جميع النابهين من العلماء والفلاسفة والمفكرين والأدباء والمبدعين، فكل من يقرأ تاريخ العلم والفكر والفن سوف يجد تلازماً لا ينفك ابداً بين حب المعرفة وتحصيلها. وبذلك تتأكد حقيقة ان الابتهاج بالعلم والمداومة عليه والتفرغ له شرط لتحصيله وان الشوق العميق المتجدد إلى المعرفة هو المدخل الطبيعي لتحقيقها.

أو كما يقول ماكس فيبر: «.. يعتبر ذا شخصية في حقل العلم ذاك الذي يكرس نفسه للعلم فقط وينذرها للعمل الذي في متناوله وهذا لا يصدق على حقل العلم وحسب، بل نحن لا نعرف فناناً عظيماً سبق له القيام بأي شيء سوى خدمة عمله وحده...».

فكأن العقل البشري في نظر ماكس فيبر غير قادر على أن ينفذ إلى أعماق الاشياء أو أن يدرك جوهر الأمور الا بالتركيز الشديد والمتابعة الحميمة وبدونهما تبقى المعرفة سطحية وغير مندمجة في التكوين الذهني للإنسان كما أنه بدونهما لا يستطيع الإنسان ان ينجز شيئاً ذا قيمة مهما كان هذا الشيء ومهما كان موضوعه..

إن الإنسان أمام الموضوع الذي يستحق منه الاهتمام في مجالات العلم أو العمل: لابد ان يحشد له كل طاقته العقلية والعاطفية وان يستبعد عن ذهنه أي شواغل أخرى حتى يفرغ مما هو مشغول به..

أو على حد تعبير ماكس فيبر: «... ينبغي عليه أن يكون متفرغاً له...»

وان لا يعتلي خشبة المسرح الا بعد أن يسيطر على موضوعه سيطرة تامة ولن يتحقق له ذلك إلا أن يخلص للمهمة التي أمامه وينذر نفسه لها: «... إن هذا وحده دون سواه هو الذي يرتفع برجل العلم إلى آفاق الموضوع الذي يدعي خدمته وما يصدق على العالم يصدق على الفنان وعلى كل من يضطلع بشأن ذي بال...».

إن حب المعرفة والشعور الصادق بالحاجة إليها والاقتناع التام بعظيم قيمتها هو الحافز القوي الذي يجعل الباحثين يجدون متعة غامرة في عناء البحث ويحسون بلذة موصولة في مداومة التنقيب...

إن الجهل بالنسبة للذين يدركون قيمة المعرفة غول مرعب لابد من بذل اقصى الجهود للفرار منه ولذلك تتضاءل كل ملذات الحياة أمام لذة الابتهاج بالعلم فهو الذي يمنح المغزى للحياة وهو الذي يهب الانسان قيمته وجدوى وجوده... في حقل المعرفة إنه الضوء وسط الظلام وإنه الاخضرار وسط الجدب وإنه الطريق وسط التيه..

العلم ري العقل بعد ظمئه وأنس الفكر بعد وحشته وطمأنينة الذهن بعد قلقه ويقين الفؤاد بعد حيرته .. إنه شبع النفس بعد جوعها وغنى الوجدان بعد فاقته ولكن قلة قليلة في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية تدرك هذه القيمة العظيمة للعلم فتسعى إليه وهي مشغوفة ومتلهفة أما الاكثرية الساحقة فهم فارغون من هذا الشغف الدافع، بل يتجرعون المعلومات اضطراراً من أجل الشهادات دون ادراك هذه الاهمية القصوى للعلم ولذلك يبقون خارج حومته فينبغي أن نبدأ في غرس الحب للعلم قبل البدء في تلقين العلم ذاته، لأنه لن يتعلم تعلماً حقيقياً من لا يعيش مباهج المعرفة ولم يتذوق مسرات العلم، فالابتهاج بالعلم شرط لتحصيله ولكن العلم لا يعرض مباهجه عارية فوق سطوحه وإنما يخبئها في أعماقه..

فلن يتعلم من لم يندمج بالعلم فيدرك القيمة الذاتية العظيمة للمعرفة ولن يتخفف من أثقال الجهل من لا يشعر بهذه الأثقال فلا بد أن يتربى جميع الناشئين على حب العلم وادراك قيمة المعرفة وكره الجهل والسعي إلى الانعتاق منه والشعور بالعار عند الاتصاف به..

إن فرحة الكشف وبهجة الفهم وسعادة الانفلات من قبضة الجهل هي التي حققت للإنسانية هذا التقدم الباهر في مجالات العلم والفكر والفن والابداع، فإذا لم تستطع الدراسة النظامية ان تغرس في نفوس كل الاجيال الناشئة تذوق هذه المباهج والتشوق إلى هذه الأفراح والشعور الفياض بالقيمة الذاتية للعلم، فإنها تكون قد فشلت في اداء مهمتها فشلاً

ذريعاً..

يصور ذلك بعض التصوير الدكتور نبيل راغب في كتابه (التفسير العلمي للأدب(فيقول: «.. ارشميدس عندما خرج من الحمام صائحاً صارخاً: (وجدتها)؟! كان في قمة العاطفة المشتعلة وقد تجسدت في الانتصار العلمي الذي اكتشفه.. كذلك فإن صيحة أول رجل فضاء يرى من الخارج ويقول: ما أروع المنظر هذه الصيحة لا يمكن ان تكون جزءا من برنامج الرحلة الفضائية، بل هي انسكاب روح الانسان ووجدانه على ما يراه من روعة خلابة....».

ويرى الدكتور نبيل راغب بأن القحط العلمي الذريع الذي تعانيه المجتمعات العربية هو النتيجة الطبيعية لغياب التعاطف مع العلم فيقول: «.. من الطبيعي أن لا ينجح أي باحث علمي لا يحب ميدان بحثه ولا يشعر نحوه بحماس مشتعل.. فالعاطفة هامة وضرورية جداً في مجال البحث العلمي لانها الطاقة التي تولد الشغف والولع والاصرار عند الباحث بحيث تمكنه من الاستمرار حتى يبلغ هدفه..

«.. إن المنهج العلمي ليس مجرد عملية رياضية بحتة أو سلسلة ميكانيكية من الاسباب والنتائج، إنه يضع العامل الإنساني في الاعتبار الأول وذلك بما يحمله من شحنات الانفعال ومحاذير اليأس وانطلاق الفكر..

«... إن المنهج العلمي ليس السلاح الوحيد في يد العالم بدليل أن الأفكار تأتينا عندما لا نتوقعها وليس بالضرورة اثناء جلوسنا في هدوء في مكاتبنا لاعمال الفكر وصولاً إلى نظرية معينة أو خلال قيامنا بالبحث العلمي الدقيق فمن المؤكد ان الأفكار والنظريات ما كانت لتخطر على الذهن لو لم يتميز نشاطنا العلمي بإيمان قوي وتفان انفعالي ووجدان متحمس..

«.. فقد يكون العالم عبقرياً ومع ذلك نجد أن تطبيقه الحرفي للمنهج العلمي المسبق لا يساعد على التجلي بمعنى الحصول على فكرة جديدة وقيمة من بنات افكاره .. هنا تبرز ضرورة الوجدان المتحمس المنفعل للعلم ان هذا الوجدان هو الذي يبتكر ويضيف ولا يكرر في آلية بحتة ما سبق الوصول إليه وتحقيقه .. والحق أنه لا توجد زيادة في اي مجال بدون الشحنات الوجدانية التي تشعل في الإنسان الحماس والاصرار..

«.. فرجل التجارة أو الصناعة الكبير لا يمكن أن يكون كبيراً بدون الشعلة التي تخلق الافكار المبتكرة والخواطر الجديدة إلى ذهنه..

إن فاقد الحماس «... لن يكون خلاقاً أو مبدعاً .. في مجال التنظيم

والابتكار لأنه قضى على عالمه الوجداني الرحب الذي تحول إلى طريق مظلم مسدود...».

وهكذا نجد أن الشاعر والعالم والمفكر والأديب يتفقون جميعاً على أن التعاطف الحميم مع العلم والحماس الشديد له هو المدخل الحقيقي إليه وانه لا سبيل إلى العلم إلا باكتشاف مباهجه والتمتع بها..

وما من عالم حقيقي أو فيلسوف أو أديب أو مثقف إلا وهو يدرك هذا التلازم الوثيق بين حب المعرفة وتحصيلها وهو تلازم يبلغ درجة التلازم بين العلة والمعلول أو ارتباط النتيجة بالسبب..

إن هذا التلازم هو بمثابة المسلّمة الأساسية أو المدخل الضروري ولذلك فإن التأكيد المستمر عليه من قبل العلماء وأهل المعرفة هو من قبيل التذكير بمسلمة أولية لا ينبغي أن تتعرض للفتور فضلاً عن الاغفال..

وليس ما كتبه عالم الاجناس الامريكي اوليفر لافارج في كتابه (العلماء رجال وحيدون) سوى نموذج لما كتبه آخرون كثيرون حيث يرى أنه لا يمكن تحصيل العلم بدون «... الدافع العاطفي ... إن شعوره العاطفي هو الذي يؤدي به إلى التقدم والسعي المستمر...».

ويقول: «... إن طبيعة العلم الداخلية تكمن في صدور العلماء عاطفية وفكرية ولا يمكننا أن نتجاهل العنصر العاطفي إذ بدونه لا يمكن أن يكون هناك بحث أصيل في أي موضوع وإنه ليصدق القول علينا جميعاً أن العاطفة تشكل حياة العالم كما أنه في نفس الوقت يؤثر نطاق الفكر في طريقة تفكيره بحيث تضفي عليه طابعاً واضحاً مميزاً...».

وهو كعالم اجناس لا يتردد في التأكيد بأنه: «... ربما يقضي شهوراً أو سنين وراء البحث عن شيء قد يبدو تافهاً ولكنه قد يكون المفتاح لتفسير أصل جنس من الأجناس...».

غير أنه يربط ذلك بالاندماج التام في الموضوع الذي يشتغل به فيقول: «... وكلما تعمقت وجدت امامي طريقاً طويلاً لابد من قطعه وزاد اندماجي في البحث ... وعندما أقول انني اندمجت كلية في البحث فإنني اعني ما أقول إذ أن السبيل الوحيد للقيام بمثل هذه البحوث هو ان يندمج الباحث فيها ويحياها ويتنفسها وأن تصبح جميع أجهزة الباحث مشبعة بها...».

ويتحدث عن تفاصيل كثيرة من تجاربه العلمية التي كانت تستغرق كل حواسه ويقول: «... كان في داخلي شيء يصيح ويطالبني بالمناقشة والتعبير العاطفي...».

ويشير هذا العالم الكبير إلى حقيقة جربها بنفسه ويؤكدها تاريخ

العلم وهي أن العلوم لم تكن لتتقدم أبداً لولا عشق المعرفة والتعطش إلى الاكتشافات فكثيراً ما يذهب العالم إلى مناطق نائية بحثاً عن الحقيقة ويلاقي الصعوبات بشغف المحب ويواجه المخاطر بلذة العاشق..

هكذا تتضافر أقوال العلماء على التأكيد بأن الابتهاج بالعلم شرط لتحصيله وأن المعرفة حسناء شديدة التمنع والدلال فهي لا تستجيب إلا لمن يتجه إليها بشغف العاشق وتعاطش الظمآن..

ولعل أنسب ختام لهذه الأقوال العلمية ما جاء في أحد مؤلفات الدكتور هارولد فينك.. وهو طبيب امريكي ذو ثقافة موسوعية.. وصاحب عيادة نفسية شهيرة وله مؤلفات عديدة في علم النفس وقد جعل همه كما قال أحد مترجمي كتبه (... استكشاف العقل البشري)... حيث يؤكد هذا العالم الموسوعي:

«... إن النشاط البناء يحرر المخ.. ذلك أن النشاط البناء يحطم شبكة المعوقات التي تمنع المخ بأسره من العمل كعضو متكامل.. فعندما يشتغل الإنسان في وظيفة يجد متعة فيها فإنه يكون قادراً.. إن جسمه بأسره ينتظم مع ابداعيته الصحية إن قلبه عندئذ يخلق بطاقة جديدة كما أن رئتيه تمتلئان بنوع من الحرية الجديدة وبهذا المعنى فإن العمل لا يعدو أن يكون ترويحاً لأنه يبني العضلات المرقة وخلايا الدم الحمراء نتيجة الطاقة التحررية الجديدة التي تشيع به. فخلال النشاط الهادف الذي يستخدم الشخص فيه كل قوته وطاقته وفكره يصل إلى قمة الفرح بالحياة...».

بهذا نكتشف سبباً رئيسياً من أسباب القحط العلمي والعملي الذي تعاني منه المجتمعات العربية والإسلامية، لأن العلاقة بالعلم والعمل في هذه المجتمعات لا تقوم على الحب والاقتناع والشعور بالجلال والأهمية.. وإنما تقوم على النفور منهما والاضطرار إليهما والاستخفاف بهما..

ولكن لماذا صارت علاقتنا بالعلم والعمل قائمة على الكره بدل الحب وعلى الاضطراب بدل الابتهاج، لماذا نحن زاهدون في العلم وتأتي قيمة المعرفة في مؤخرة سلم القيم..؟؟!!

لماذا علاقتنا بالمعرفة وبالمهارة في الفكر والعمل هي علاقة فاترة وفارغة من الاهتمام وبعيدة عن التجويد وغير مدركة لعظمة العلم وقيمة اتقان العمل..؟؟!!

«الرياض» الخميس ٢٠ صفر ١٤١٥هـ ـ ٢٨ يوليو ١٩٩٤م ـ العدد ٩٥٣٠.

العقل والعاطفة..
تآزر أم تنافر..؟

بين العقل والعاطفة ترابط وثيق وبدون تكاملهما واشراف الضمير عليهما تتدهور الحياة الإنسانية فالعقل بدون قوة العاطفة يبقى طاقة خاملة والعاطفة بدون نور العقل وتوجيه الضمير تصير قوة طائشة ولذلك لابد ان يستعين العقل بطاقة العاطفة حتى ينشط ويتحرك والعاطفة لابد أن تستنير بالعقل والضمير حتى تتعقل وتهتدي...

إذا طغى العقل على العاطفة ساد التردد وعدم الاكتراث وإذا طغت العاطفة على العقل سادت الرعونة وطفحت الأهواء وكثرت التصرفات الهوجاء..

وليس الارتباك الذي يعتري حياة الافراد سوى حاصل الاختلال وفقدان التوازن بين طاقتي العقل والعاطفة ويكون ذلك في الغالب بسبب خمول العقل أو عدم مهارته أو غياب الضمير أو لضمورهما معاً وبذلك تنفرد العاطفة العمياء بتوجيه السلوك والاستئثار بالنشاط..

كما إن الاضطراب الذي تُمنى به المجتمعات هو أيضاً من نتائج اختلال هذه العلاقة التي لابد أن تكون وثيقة ومتوازنة بين العقل والعواطف وهي علاقة لابد ان تتكون تحت اشراف الضمير بالقدر الذي تتحمله الطبيعة البشرية..

والمعضل في الأمر أن الرجحان يكون غالباً للعاطفة ضد العقل لأن نشاط العاطفة مضطرم دائماً بينما أن نشاط العقل خامل غالباً، فالعواطف تتدفق تلقائياً أما العقل فلا بد له من التنبيه المتكرر والمران الموصول..

فكأن العاطفة بأهوائها الجامحة هي الاصل وان العقل أو التروي أو

الاستبصار هو الاستثناء وهذا المعنى ملحوظ في التسمية العربية فالعقل هو الكف والمنع والحجز..

إن اسم العقل في اللغة العربية يدل على أن عمل العقل هو عمل لاحق فهو مسبوق بدفق العاطفة التي تتدفق مع تدفق الحياة وتبقى كذلك ما بقيت الحياة دافقة ومهمة العقل هي محاولة توجيه هذا التدفق واستثمار هذا الاندفاع والتلاحم مع هذا النشاط التلقائي الموصول..

إن نجاح الحياة يتوقف على العلم والمهارة وكلاهما من أعمال العقل لكن العقل لا ينشط لإدراك العلم واكتساب المهارة إلا إذا ساعدته العاطفة..

إن ترويض العاطفة لمطالب العقل ليس الأمر المتاح عفواً وإنما هو مهمة صعبة تحتاج إلى الكثير من المجاهدة والصبر..

ذلك ان طاقة العواطف تكتمل مبكراً في الوقت الذي لايزال العقل فجاً وجاهلاً وعديم الخبرة وهي تبلغ ذروة احتدامها في مرحلة المراهقة بينما ان العقل لا يبلغ تمام نضجه إلا بعد سن الأربعين وقد لا يبلغ مرحلة النضج ابداً إذا لم يصادف تربية حسنة ولذلك فإن مجتمعات بأجمعها تبقى في مرحلة المراهقة الجماعية ولا تبلغ مرحلة النضج ابداً..

العواطف تنمو مع نمو الجسم فهي لا تنتظر الرشد ولا شأن لها بالتعقل أما العقل فإن نموه غير مرتبط بمتانة العضلات ولا قوة البدن ولا وفرة النشاط العضلي وإنما يتوقف نموه على وجود البيئة المناسبة وقد لا تتاح له هذه البيئة ابداً فيمتليء بالأوهام..

إن العاطفة مشتبكة بغريزة حب البقاء ولذلك فهي دائماً قوية وزاخرة ومتأهبة وحين يقوم العقل باستثمار هذا التأهب القوي الزاخر فإنه يجعل حياة الإنسان حافلة بالعلم والفكر والابتكار والمهارة وحين يشرف الضمير على تزاوجهما يتحقق للإنسان كمال صلاحه ونهاية نضجه..

إن علم النفس ودراسات التحليل النفسي واحداث الواقع كلها تشهد بأن العواطف ذات نشاط تلقائي عارم بحكم الميول الغريزية وأن العقل قد يتحرك لتوجيه هذا النشاط التلقائي وبذلك تسترشد العاطفة بالفهم والادراك وتستنير بأضواء العقل وقد يظل العقل خاملاً والضمير غائباً فيندفع الإنسان مع أهوائه فيفسد أكثر مما يصلح ويضر أكثر مما ينفع..

إن العقل مثل المسؤول عن تنظيم حفل حاشد لكنه لا يأتي إلا متأخراً بعد أن يكون من سبقوه قد تولوا ترتيب الامور وفق تصوراتهم فلا يكون بوسعه أن ينهض بمهمته فيقنع بأن يقوم بدور هامشي بعد أن يكون قد تم ترتيب كل شيء قبل حضوره..

او هو شبيه بإنسان يكلف باعادة ترتيب خليط من الاشياء الكثيرة والمعقدة والمتباينة وهو لا يعرف كيف تم تكوينها ولا كيف وضعت ولا ما هي وظيفة كل جزء منها ولذلك فإن نجاحه في مهمته يحتاج إلى جهد خارق..

فالعقل هو جوهر الإنسان لكنه لا ينضج إلا متأخراً بعد أن تكون العواطف قد تكوّنت وبعد أن تكون الميول قد شقّت مجاريها وبعد أن تكون الاهتمامات قد ترسخت واتجاهات الاهواء والرغبات قد تحددت ومجالات النشاط قد تبلورت واستقرت..

بل إن العقل ذاته باعتباره مكتسباً في معظمه يصاغ بدون علمه ولا ارادته بواسطة المجتمع وعاداته والاهتمامات السائدة فيه. فالعقل في الغالب صياغة اجتماعية لكن كل فرد يتوهم انه يمارس أرفع درجات التفكير المستقل ولم يعلم أن دوره الحقيقي بالغ الضآلة..

إن الناس في الغالب يتصرفون بدافع العاطفة ذات النشاط التلقائي لكنهم رغم ذلك يتوهمون انهم يعملون دائماً وفق توجيهات العقل ولا يخطر على بالهم أنهم في الغالب مقودون بأهوائهم..

لقد نسوا ان العقل ليس أكثر من رقيب او موجّه وان هذا الرقيب أو الموجّه هو ضعيف التكوين غالباً وانه بالاضافة إلى ذلك قد يغفل وقد يكسل وقد ينام وقد تعتريه الأسقام وقد يصاب بالملل فيميل إلى الركود ويهمل واجباته ويطلق أعنة العواطف..

أما العواطف فهي دائمة التأجج وليس من طبيعتها أن تصاب بالغفلة أو النوم أو الإهمال فسريان النشاط العاطفي شبيه بجريان الماء في المنحدر إنه يندفع منحدراً بصورة تلقائية فإذا أريد وقفه فلا بد من القيام بعمل استثنائي يحجزه ويوقفه..

ومن الواضح ان هذه الطبيعة البشرية كانت معروفة منذ القدم بدليل أن تسمية العقل في اللغة العربية تؤكد فهم العرب لوظيفة العقل وهي الحجز والتوجيه والكبح والإعلاء وهي أفعال يقوم بها العقل لمواجهة التدفق التلقائي للعواطف..

لكن الفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم ربما كان أول من وضع أساساً نظرياً متقناً لهذه القضية الجوهرية كان بمثابة القاعدة التي انطلقت منها بحوث كثيرة ونظريات معرفة في مجال الفلسفة وعلم النفس تتناول طبيعة العقل وطبيعة العواطف ومصدر السلوك البشري واصل المعرفة البشرية وطبيعتها وحدودها..

لقد بنى ديفيد هيوم مكانته الفلسفية برؤيته عن نظرية المعرفة وعن طبيعة العقل وعلاقته بالعاطفة وترجيح تأثير العاطفة على تأثير العقل في السلوك الإنساني وذلك في الكتاب الذي وضعه بعنوان (بحث في الطبيعة الإنسانية) وظل ينقحه ويعدله ويخرجه بعناوين مختلفة لكنها تؤدي نفس المعنى فهدفه كان: «.. فحص طبيعة العقل الإنساني..» والبرهنة على ضآلة امكاناته في المعرفة وتأكيد سلطة الأهواء عليه حيث ينتهي إلى أنه:

«.. ليس هناك شيء أكثر شيوعاً في الفلسفة وحتى في الحياة العادية من التحدث عن صراع العقل مع العاطفة ومن التأكيد على أن البشر فاضلون بقدر ما يلائمون أنفسهم لتوجيهاته.. ولكي أظهر خطل هذه الفلسفة فإنني سوف أحاول أن أبرهن أولاً على أن العقل لا يستطيع أبداً أن يكون وحده الدافع لأي عمل من أعمال الإرادة وان ابرهن ثانياً على أنه لا يستطيع أبداً أن يضاد الهوى في توجيهه للإرادة .. فما العقل إلا عبد للأهواء انه لن يتمكن ابداً من أن يدعي وظيفة أخرى لنفسه إلا ان يخدم الأهواء ويطيعها..».

ولذلك فإن تشييد كفاءة الإنسان بالمعرفة والمهارة لا يمكن ان يتم إلا بواسطة التعاطف فالدارسون لا يستطيعون هضم العلم هضماً حقيقيا مادأموا يتجرعون المعرفة كارهين مضطرين..

إن المعرفة الحقيقية تتطلب التعاطف الحميم وبذلك تسري المعرفة في أذهان الدارسين كما يسري الغذاء في خلاياهم ويتدفق العلم في عقولهم كما يتدفق الدم في عروقهم..

إن التعاطف مع العلم والمعرفة ليس مطلباً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه ولكنه الشرط الذي لا بديل عنه وبدونه تبقى المعلومات نثاراً نابياً خارج صميم العقل ولذلك فإن الدارسين يتخلصون منها سريعاً بالنسيان كما يتخلص الإنسان من أية ذكريات غير سارة.

وما يقال عن ضرورة التعاطف مع العلم والمعرفة كشرط لابد منه لاكتسابهما يقال مثله عن المهارة المهنية.. فالإنسان لا يمكن ان يتقن عمله إلا إذا كان يحبه فيجد متعة في أدائه وبدون هذا الحب وهذه المتعة سيكون متعذراً عليه ان يكتسب المهارة المهنية أو أن يبلغ في أدائه مستوى الاتقان..

وهذه الحقيقة باتت من مسلمات علم النفس وعلم التربية وعلم الادارة كما ان الواقع يشهد لها بشكل صارخ لذلك لابد من وضع استراتيجية تضمن تكوين علاقة حب وتعاطف بيننا وبين العلم والعمل..

ولعل من أبلغ ما قيل عن دور الحب في إدارك العلم وتجويد العمل ما

كتبه الفيلسوف الامريكي الشهير رالف بارتون بيري حيث يقول:

«.. إن الاختيار لا يكون اختياراً إلا إذا استهوى الشعور والارادة فلكي تدخل الفكرة في مجال الاختيار مع غيرها فإنها يجب أن تُحرك وتهيج أو أن تكون مكسوة بذلك الجاذب الذي يسميه العرف (قيمة) إن الملكة الإنسانية التي تتخيل القيم وتضاعفها يمكن تسميتها (بالتعاطف) وهذا يعني أن الحقائق سوف تدرك ويدرك معها هوى الإنسان لصدقها، وتدرك معها قوة برهانها وفرحة التأمل فيها وهو يعني أن الفن سوف يكتسب مع المتعة بجماله .. وان التاريخ سوف يدرك مع الجزع لارتفاع نجم الإنسان وأفوله .. والاكتشاف مع لذة المغامرة والعمل الجريء مع الطموح الذي يدفع البشر إلى نشدانه..».

ويقول في موضع آخر من كتابه (إنسانية الإنسان): «.. والنهم للمعرفة وسّع مجال المعرفة توسيعاً كبيراً ذلك المجال الراقي الذي أنقذ من تيه الجهل وصحرائه..».

وهو يؤكد على الأهمية القصوى: «.. للتفهم الحاني المتعاطف لمدلولات العلم ولاتجاهاته العميقة ضد دعوة الجهل..».

إن التفكير لا ينشط إلا بالحب وان الإدراك لا ينفذ إلا بالتعاطف وإن العقل لا يبلغ عنفوانه ويعمل بكامل طاقته إلا إذا هو مال إلى الشيء وتحمّس له واندمج فيه...

ومن هنا تكون الموضوعية الكاملة مستحيلة ولكن لا خيار للإنسان في هذا فهو لا يستطيع ان يستثير طاقته العقلية إلا بعنفوان طاقته العاطفية، غير أن الذي يخفف من هذا الاشكال اننا لا نحتاج إلى الموضوعية في كل نشاطنا الفكري والعملي، فإذا كانت الموضوعية ضرورية في دراسة التاريخ مثلاً فإنها غير لازمة لفهم الرياضيات على سبيل المثال..

وإذا كان بوسعنا ان نستغني عن الموضوعية في بعض المواقف فإننا لا نستطيع الاستغناء عن العاطفة فهي التي تستجيش طاقتنا العقلية من أجل تحصيل العلم وامتلاك المعرفة وتحقيق المهارة والمشاركة الناجحة في الأعمال النافعة..

إن الإنسان لا يستطيع ان ينجز امراً ذا بال في العلم والعمل بمستوى رفيع من الأداء إلا إذا تحمس له وتعاطف معه ولذلك فلا بد من التعاضد الوثيق بين العقل والعاطفة في كل مجالات الحياة وفي جميع أنواع الأداء..

ولذلك فإنه في ايجاز بارع يلخص رالف بيري ما انتهت إليه الفلسفة وعلم النفس في قضية العلاقة بين العقل والعاطفة فيقول:

«... إنه من المألوف ان تقسيم الطبيعة الإنسانية إلى قسمين القسم الإدراكي والقسم الانفعالي الحركي وفي هذا التقسيم الواسع يفهم تعبير (الإدراكي) على أنه يشمل وظائف متعددة للعقل تعرف عادة بأسماء أخرى: (التفكير) و(المعرفة) و(الاستدلال) و(الملاحظة) الخ .. انها ذلك الجزء من ملكة الإنسان الذي يمكنه من ان يكيف نفسه بوعي منه مع الحقائق والعلاقات .. أما تعبير (التأثري) فإنه يفهم على أنه يتضمن الشعور والميل والسعي والأمل والرغبة والإرادة. ان الفرق الشاسع بين هاتين المجموعتين من الوظائف الذهنية يكمن في ان احداهما حيادية والأخرى متشيعة الواحدة منها ممثلة (بالرأس) والاخرى (بالقلب) ان اختلافهما ينطابق مع اختلاف الأجزاء الدماغية عن الأجزاء الحشوية في الجسم .. ولكي نبسط الكلام فسوف نسمي الأولى (الفكر) والثانية (العاطفة)...».

ويقول: «... وإنه لمن المنافي للتفكير السليم ان نقسم الفكر والعاطفة الى خصمين ونجعل الواحد منهما يضاد الآخر .. إن ذلك يكون منا بمثابة الطلب بأن يزال دماغنا أو احشاؤنا فليس الرأس والقلب في تكوين الرجل الطبيعي جزءين من كل واحد فحسب ولكن الواحد منهما يعتمد على الآخر في أعماله والواحد منهما لا يعني شيئاً بدون الآخر تماماً مثلما ان مقود الآلة لا يعني شيئاًبدون الآلة وان الالة لا تعني شيئاً بدون المقود .. إن القضية الحقيقية ليست قضية الفكر ضد العاطفة بل انها قضية الفكر والعاطفة معاً وانتفاع الواحد منهما بالآخر...».

ويقول: «.. إن الحقيقة تؤكد بأن للعقل هواه الخاص ... هذه النزعة الفكرية التي تحمل اسم (حب الحقيقة) إنما تكون على انشطها عندما ترتبط بدافع عملي معتدل الانفعال.. أما عندما يكون هذا الدافع عنيفاً كما يحدث في حالتي الخوف والغضب فإن الدافع الإدراكي يفقد قوته ويقصر عن بلوغ غايته من الحقيقة .. إن نسيماً معتدلاً من العاطفة سوف يثير شعلة الفكر أما الهبة القوية فإنها سوف تطفئها...».

ويواصل القول في هذا النص البديع: «.. إن العلاقة العضوية بين العقل والعاطفة واضحة .. إن العاطفة تمدنا بالطاقة أما العقل فبالتوجيه .. إن العقل هو القائد والحارس والربان، أما العاطفة فهي الآلة ومولد القوة .. لقد فطر كل من العقل والعاطفة ليصلح الواحد منهماالآخر كما خلق الإنسان ليستفيد من الحرارة والنور معاً.. فالعقل يعطي الهدف للعاطفة والعاطفة تعطي الكفاءة للعقل...».

ويقول: «... إن الطاقة العاطفية إنما هي مولد مساعد أو خزان للطاقة يمكن ربطه بأية فعالية حين يستأثر الإنسان بشأنها أو يشغل باله، إن العواطف الهيجانية كالخوف والغضب إنما تتميز بعلاقتها الحيوانية .. هذا المفهوم يفسر كيف ان العاطفة بدل ان تعمل كمدد يزود الإنسان بالقوة .. تفقد اتجاهها الصحيح، كما يحدث عندما يندفع القطار خارجاً عن الخط لسرعته الفائقة فيقلب معه الخطوط الحديدية ويحدث خراباً عاماً. إن الفرق هنا لا يكمن في درجة الطاقة العاطفية نفسها بل في درجة انفصالها عن اية فكرة هادية وعن دروس الماضي ان دور العقل لا يكمن في كبحه للطاقة العاطفية بل في توجيهه لها بواسطة اهداف مستمدة من المعرفة العلمية الوثقى ومن أنبل المثل الإنسانية .. واجب العقل أن يوحّد نزعات الفرد العاطفية ويوجهها لكي تصبح روحه منسجمة مع نفسها ومع الآخرين وبهذا تتمتع بعافيتها الطبيعية وتبلغ كمالها الإنساني..».

هكذا نصل إلى أن العلاقة بين العقل والعاطفة هي علاقة تآزر لا علاقة تنافر وانه لا بد ان يتحقق التلاحم والتوازن بين طاقة العقل وطاقة العاطفة فلا العقل يستطيع ان يعمل بدون الوقود العاطفي ولا العاطفة تستقيم بدون التوجيه العقلي..

وأي فتور تتعرض له هذه العلاقة الوطيدة بين العقل والعاطفة وأي اختلال يعتري هذا التوازن الحساس الدقيق يسري أثره على كل النشاط الإنساني ومن هنا تتفاقم معضلات الإنسانية حيث تشيع الكراهيات وينتشر التعصب ويغيب الحياد الموضوعي ويختفي الاتزان وتسود الافكار الفجّة ويندر الرأي الحصيف ويتغلغل الجهل وتتفشى الانانية المفرطة.

إن فقدان العاطفة مع العلم هو الذي أبقى العلم غريباً عن أذهاننا، وان غياب التعاطف مع العمل هو الذي حرمنا من المهارات المهنية. وان عدم تحقق التوازن بين طاقة العقل وطاقة العاطفة هو الذي جعل احكامنا وآراءنا عن الأفكار والأشخاص والأحداث والمواقف والأشياء تتسم بالفجاجة والجور والبعد عن الموضوعية وتخضع لنزوات الحب والكره وتتأثر بحالات الرضا والسخط وتكون معرضة للتذبذب المفرط بين أقصى حالات القبول وأقصى حالات الرفض ولذلك ينبغي أن يتواصل الحديث عن هذه الآفات.

«الرياض» الخميس ٦ صفر ١٤١٥هـ ـ ١٤ يوليو ١٩٩٤م ـ العدد ٩٥١٦.

ازدهار وسط طوفان التخلف

ظاهرة بارزة ملفتة للنظر في قارة افريقيا حيث نجد بلدا واحدا فقط يحقق ازدهارا شاملا وسط قارة لم تحقق سوى الامتياز في السباق نحو المزيد من التخلف والفقر والاقتتال والتدهور..

هذا التميز بالازدهار وسط مجتمعات تتميز بالسباق نحو أوحال التخلف والبؤس والهوان يستحق ان ينوه به وان تحلل أسبابه..

إذ أن من أهم أسباب استمرار التخلف في مجتمعات العالم الثالث أنها لا تحاول التعرف على أسباب تخلفها ولا التعرف على أسباب التقدم الذي أحرزه الآخرون بل تستمر في التعامي عن الأسباب الحقيقية لظاهرتي التقدم والتخلف وتبالغ في المكابرة وتلقي اللوم على عوامل خارجية..

ومع انه ثابت علمياً تماثل الأجناس البشرية من الناحية البيولوجية إلا أن الثقافات الرديئة تصوغ العقول بشكل رديء وتتدرج الرداءة في الانحدار بمستوى التفكير الى درجة السقوط الشنيع وليس الذي يجري في رواندا سوى مثال واحد على الانحدار السحيق الذي يهبط اليه مستوى التفكير عند البشر..

فافريقيا هي أغنى القارات من ناحية الثروات الطبيعية لكنها تعيش فقراً مدقعا وتشيع فيها المجاعات بمستويات مأساوية وينتشر فيها الاقتتال الى حد الجنون المطبق..

فمع التقدم الهائل في العلم والتقنية ومع وفرة وسائل الرفاه والراحة التي تنعم بها بلدان قليلة بسبب استثمار المعرفة والمهارة لخير الانسان كان النصيب الوحيد الذي احرزه المتخلفون هو كسب لمزيد من وسائل التدمير لأنفسهم وامتلاك أسلحة الابادة لمجتمعاتهم..

إن السفاهة في التصرف في القليل من المال تستوجب الحجر على

السفيه ولكن مجتمعات بأكملها تمارس أسوأ صور السفاهة وهو ليس سفها يتلف مالا فرديا محدود الضرر ولكنه سفه تتحول بسببه بلدان بأجمعها الى خرائب وتتحول الحياة الى مأساة حقيقية..

ان الجنون الفظيع الذي يمارسه الراوندديون ضد أنفسهم لا يكفي أن يوصف بالسفه الذي يستوجب الحجر ولكنه الجنون الهائج الذي لا علاج له إلا الأصفاد..

لذلك يكون رائعاً ان تتدخل المجتمعات العاقلة المتحضرة لحماية المجتمعات المجنونة من نفسها ومنعها من ان تستمر في ابادة ذاتها..

إن التخلف وباء فتاك مروع وحين يمتلك التخلف أسلحة الفتك فإنه يكون وحشا فظيعاً لا تمتلك اللغة قدرة على وصف بشاعته ورعونته وسخفه..

لذلك يكون من الواجب تعرية أسباب التخلف كما يكون من الواجب لفت الأنظار الى البلدان التي تحقق الازدهار حتى ولو كنا نختلف معها اختلافا جذريا في المواقف الأخلاقية.

لقد أصبح ثابتا أن الازدهار لا يرتبط بالثروات الطبيعية وإنما هو ثمرة الجهد البشري الكثيف المنظم الموجه للبناء لكن المجتمعات المتخلفة توجه جهدها لهدم ذاتها..

وقد تكرر الاستشهاد باليابان وسنغافورة وكوريا الجنوبية وهونغ كونغ وتايوان ثم تايلاند وماليزيا واندونيسيا حيث حقق بعضها ازدهارا فاق فيه الغرب حتى ان رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر افتخرت في مذكراتها بأن رئيس وزراء سنغافورة أشاد بانتعاش الاقتصاد البريطاني أثناء رئاستها للحكومة البريطانية واعتبرت هذه الإشارة مدعاة للزهو لأنها جاءت من رجل حقق لبلاده أعلى معدلات النمو في العالم..

ولأن هذا الوثوب الظافر ليس وقفا على بلدان شرق آسيا وإنما هو الانجاز الذي يستطيع تحقيقه أي مجتمع يتمكن من تنمية الطاقة البشرية الى أقصى المدى ويستثمرها بكثافة ووعي وتنظيم..

فالثروة البشرية هي الثروة العظيمة المتجددة بشرط أن يلتزم المجتمع بمقومات حضارة العصر من العلم والعمل ورعاية النبوغ وغرس روح المبادرة واشاعة روح الالتزام بأداء الواجب والنهوض بالمسؤولية بإخلاص وعلم ومهارة..

وقد أصبح واضحاً أن هذه هي مقومات الإزدهار فالكثافة السكانية في أي بلد إما أن تكون ثروة عظيمة متجددة إذا كان الناس منتجين، وإما أن تصير عبئاً باهظا لا يطاق النهوض به. فالناس في المجتمعات المتخلفة

يأخذون ولا يعطون ويستهلكون ولا ينجزون وينتقدون الذي يعمل وهم لا يعملون وإذا عملوا لم يحسنوا العمل لأنهم لا يهتمون لتجويده واتقانه بينما أن العمل بدون اتقان يكون ضرره أكثر من نفعه..

لذلك لابد من الاهتمام بتقديم نماذج من البلدان المزدهرة في كل القارات لاظهار أن الجهد البشري الكثيف المنظم الموجه للبناء هو مصدر الازدهار في جميع أقطار الأرض، وبأن تبديد الطاقة البشرية وعدم توفر الكفاءة في الأداء والغزارة في الانتاج هي سبب التخلف..

ولأن يقظة العقول هي هدف لابد من السعي اليه حتى ولو كان بذكر الحقائق التي لا تخلو من مرارة لذلك يكون من المفيد أن نشير الى أنه وسط طوفان التخلف الذي تعيشه القارة الافريقية تأتي جمهورية جنوب افريقيا كنقطة الضوء وسط الظلام الشامل..

فرغم المقاطعة الاقتصادية التي فرضها العالم عليها خلال السنوات الماضية ورغم الحصار والعزلة ورغم بعدها عن الأسواق فإنها حققت ازدهارا اقتصادياً شاملاً، فهي مزدهرة في المجالات الصناعية والزراعية ومتطورة في قطاع الخدمات وتملك قاعدة اقتصادية متينة وموازنة كما تملك بنية أساسية جيدة لا يتوفر مثلها في أي بلد افريقي آخر مما يؤكد شمول التطور لكل جوانب الحياة..

إن مقتنا للغطرسة العنصرية لا ينبغي ان يحجب عنا حقائق الواقع فالحق أكبر من الأشخاص والأنظمة والأجناس والعواطف ونحن الخاسرون إذا سمحنا للغضب أن يصرفنا عن التعرف على الواقع ايجابا وسلبا أو يمنعنا عن الاعتراف بالحق حتى وإن كان شديد المرارة..

ومن هذا المنطلق الموضوعي يكون مفيداً ان نتحدث عن الازدهار الذي حققته جمهورية جنوب افريقيا، خاصة وان هذا الحديث قد جاء بعد زوال الحكم العنصري وقيام المشاركة الوطنية وهي حقيقة طال اغفالها رغم ما في حجب الحقيقة من ضرر..

لقد اعترف لها بهذا التقدم الشامل حتى الأعداء وعلى سبيل المثال فإنه رغم ان الذين أعدوا كتاب (أساطير وحقائق نووية) معادون لجنوب افريقيا قبل التحولات الأخيرة فإنهم اعترفوا بأن «... جنوب افريقيا قد حققت تقدما مثيراً في الميدان النووي...»

ومع أن الكتاب صدر عام ١٩٨٠ فإنه يؤكد: «... ان ملكية جنوب أفريقيا لتكنولوجيا التخصيب تمنحها امتيازين مزدوجين هما امكانية الحصول على يورانيوم مخصب بدرجة صالحة لانتاج الأسلحة.. وحصة من السوق العالمي لليورانيوم المخصب.. وبسبب كونها واحدة من أكبر منتجي اليورانيوم الطبيعي فإنها تستطيع دخول سوق اليورانيوم

المخصب بشكل واسع جاعلة من نفسها مجهزا رئيسيا لخدمات دورة الوقود النووي لبرامج القوى النووية الأجنبية...».

ولم يكن هذا التطور مفاجئاً للعالم لانه جزء من ازدهار شامل كما أنه سبقته ارهاصات كثيرة، ففي عام ١٩٧٠م صرح رئيس وزراء جنوب افريقيا آنذاك فورستر: «.. بأن علماء جنوب أفريقيا طوروا مبدأ فريدا لتخصيب اليورانيوم وأعلن في الوقت نفسه عن اقامة هيئة تخصيب اليورانيوم...».

وفي عام ١٩٧٧ كشفت الأقمار الصناعية التابعة للاتحاد السوفياتي أن جنوب أفريقيا تستعد لتفجير سلاح نووي في صحراء كالاهاري وأبلغت بذلك البلدان الغربية وقد تأكدت الولايات المتحدة الأمريكية من دقة المعلومات السوفياتية.. ومنذ ذلك الحين أصبح معروفا أن جمهورية جنوب أفريقيا صارت من البلدان ذات القدرات النووية..

ولو كان تقدم جمهورية جنوب أفريقيا مقتصراً على المجال النووي أو صناعة الأسلحة لكان تقدما ضاراً لا يستحق التنويه لانه يكون على حساب الجوانب الاقتصادية والانسانية الاكثر أهمية.. فالبرازيل مثلاً قد أحرزت تقدما كبيراً في المجال الصناعي لكن ذلك لم يتحقق إلا بثمن باهظ حيث غرقت في الديون الخارجية وأصبحت العوائد ضئيلة قياساً بمضاعفات الديون التي تفاقمت بشكل صار مأساويا، اضافة الى أن التقدم في المجال الصناعي في البرازيل كان على حساب القطاع الزراعي وهو القطاع المهيأ للازدهار الهائل، فالبرازيل من الناحية الطبيعية بلد زراعي من الدرجة الأولى فإهمال هذا القطاع الذي يستحق الاولوية المطلقة قد أصاب أولويات البرازيل باختلال شديد.. لقد كان العسكريون الذين تعاقبوا على حكم البرازيل مأخوذين ببريق التقدم الصناعي وخصوصاً التقدم في مجال الصناعات العسكرية فأهملوا الزراعة وتدهورت فيها أوسع غابات الأرض وتدنى مستوى الحياة الاجتماعية وتفاقمت حالة الفقر».. وتصاعدت الأزمة الاقتصادية وبلغت نسبة التضخم خمسة آلاف في المائة...».

أما في جمهورية جنوب افريقيا فقد كان الاهتمام بكافة القطاعات متوازنا فجاء الازدهار شاملا ليس في الجانب الاقتصادي فقط وإنما في كل الجوانب.. ففي مجال الطب حققت جمهورية جنوب افريقيا تقدماً ملحوظاً ولعل القراء يذكرون أن أول عملية ناجحة لنقل وزراعة القلب كانت في جمهورية جنوب أفريقيا قام بها الطبيب الجراح كريستيان برنارد عام ١٩٦٧ حيث نقل قلب المرأة دنيس دار فال بعد أن أصيبت بحادث سيارة الى رجل في السادسة والخمسين اسمه لويس واشكا

نسكي.. وقد أجريت العملية التي كانت مثيرة للغاية في ذلك الوقت في مستشفى شور غروت في مدينة الكاب..

كما نال فيها جائزة نوبل في الطب والفيزيولوجيا ماكس تايلر عام ١٩٥١م من اكتشافات تتعلق بالحمى الصفراء وايجاد لقاح لها وهذه مع تلك من مؤشرات وجود بيئة طبية وعلمية متقدمة..

أما في القطاع الزراعي فرغم أن معظم أراضي جمهورية جنوب افريقيا تتكون من الجبال الوعرة والهضاب وأن المساحة الصالحة للزراعة لا تتجاوز ١٠٪ من المساحة الاجمالية فإن الزراعة فيها مزدهرة وتفيض عن حاجتها فتصدر منتوجات زراعية متنوعة بمعدلات كبيرة..

بل حتى في المجال الواحد يتنوع الاهتمام بشكل يدل على بعد النظر ففي مجال انتاج الغذاء نجد انه بالاضافة الى الانتاج الزراعي الشديد التنوع مثل الحبوب والبقول وقصب السكر والبطاطس والفول السوداني والقطن.. نجد اهتماماً بالغابات من أجل انتاج اللحوم الحيوانية بمختلف أنواعها من أجل انتاج اللحوم والألبان ومشتقاتها، كما نجد اهتماماً بالدواجن لانتاج اللحم والبيض وهي البلد الافريقي الاول في صيد الأسماك وهكذا كما جاء في موسوعة السياسة: «... تعتبر جنوب أفريقيا من البلدان الزراعية الهامة على الرغم من ضآلة أراضيها الصالحة للزراعة.. وتزدهر فيها تربية الماشية وهي ثاني بلد في العالم بانتاج الصوف بعد استراليا ويسجل ميزانها الزراعي فائضا دائماً...».

وفي المجال الصناعي تتنوع الصناعات بشكل كبير مثل صناعة السيارات والمعدات والنسيج وصناعة الورق والمطاط الصناعي والاطارات والأسمدة الكيميائية والأسمنت والمنتجات البترولية والمصنوعات الجلدية كما حققت تقدما مبكرا في صناعة الصلب والحديد..

كما أولت السياحة حقها من الاهتمام والعناية باعتبارها احد مصادر الدخل الوطني حيث يصل اليها كل عام أكثر من مليون سائح..

ان الاهتمام بكافة القطاعات قد جعل القوى العاملة موزعة بشكل متوازن حيث يعمل ٣٠٪ في المجال الزراعي و٢٩٪ في مجال الصناعة والتجارة و ٣٤٪ في مجال الخدمات و٧٪ في مجال التعدين..

ورغم انها في السابق كانت تنتهج سياسة التمييز العنصري إلا أن السود فيها كانوا أحسن حالا من السود الذين يحكمهم سود مثلهم في البلدان المجاورة فبسبب الازدهار الصناعي والزراعي والاقتصادي توفرت فيها للسود فرص العمل بشكل لم يتوفر في أي بلد افريقي آخر ومع توفر فرص العمل توفر العيش وتحسن مستوى الحياة وحصل السود على التدريب واكتسبوا مهارات مهنية متنوعة لم يكتسبها اخوانهم

في البلدان المجاورة، لذلك كانت جمهورية جنوب افريقيا منطقة جذب ولم تكن منطقة نفي فاضطرت الى سن قوانين تمنع الهجرة اليها لأن الباحثين عن فرص العمل كانوا يعتبرونها مغرية ولم يمنعهم التمييز العنصري من محاولة الهجرة اليها فرارا مما يعانونه في بلدانهم من بطالة وفقر وما ينجم عن ذلك من تزاحم على لقمة العيش يصل الى حد الاقتتال، كما ان التناحر القبلي بين السود أنفسهم في الكثير من البلدان الافريقية قد تسبب في تدمير بلدانهم وترسيخ حالة البؤس والرعب في مجتمعاتهم مما يجعل سخافات التمييز العنصري أقل إيلاما إذا هي قيست بهذه الأوضاع اليائسة التي تجمع بين الفقر والخوف والهوان..

ولم تقتصر الهجرة الى جنوب افريقيا على الافريقيين وحدهم وإنما نجد فيها نسبة كبيرة من المهاجرين الآسيويين وهذا يؤكد ان الناس من خارج افريقيا ايضاً يجدون فيها مستوى من المعيشة ومن فرص العمل ما لا يجدونه في بلدانهم..

ومع انه من المسلم به أن البيض في جمهورية جنوب أفريقيا لم يقوموا بتوفير فرص العمل للسود رحمة بهم ولا شفقة عليهم وإنما كانوا بحاجة اليهم لتشغيل المصانع والعمل في المزارع والقيام بشتى المهن والخدمات إلا أن هذا لا يقلل من قيمة ما تحقق للسود من الرغد النسبي في العيش وتوفر فرص العمل وتنمية الكفاءات المهنية فالعبرة بالنتائج..

وإذا أردنا ان نكون واقعيين فإن التمييز العنصري يحصل في كل مكان بين المجتمعات المختلفة وداخل المجتمع الواحد وبصورة أسوأ مما كان بين البيض والسود في جنوب افريقيا ولعل حالة المنبوذين في الهند تمثل نموذجاً صارخاً على الحماقة العنصرية بشكلها القبيح الفج..

وحتى القبائل الافريقية قد يكون أحياناً مبرر الاقتتال فيما بينها هو إدعاء التفوق والامتياز العرقي وهذا السخف منتشر في كل المجتمعات وهو من أسباب شيوع الكثير من المآسي الانسانية...

فالامتياز يدعيه أشد المجتمعات تخلفا وهذه هي الطامة أما حين يدعي التفوق من يملك بعض المبررات معتمداً على انجزاته الماثلة فإن هذا له بعض العذر...

وبذلك يظهر ان الافراح الغامرة التي قوبل بها انتقال السلطة من البيض الى اسود كانت تنطوي على نوع من اغفال الحقائق...

لقد عاشت افريقيا والعالم الثالث افراحا غامرة بانتقال الحكم في جنوب أفريقيا من الاقلية البيضاء الى الأكثرية السوداء..

آلاف الصحف في العالم الثالث اعتبرت أن جمهورية جنوب افريقيا شهدت ميلادا جديدا وسادت كتابات شديدة التفاؤل تقول: «... جنوب

أفريقيا تجاوزت ماضيا بغيضاً ومخزياً ومؤلماً ودخلت عصراً جديداً....

ان العالم الثالث اعتبر ان السود في جنوب افريقيا قد فازوا فوزاً عظيماً نقلهم من العبودية الى الحرية ومن الوضاعة الى الكرامة ومن الظلم الى العدل لمجرد ان السلطة انتقلت اليهم واصبح رئيس الجمهورية من السود بدلا من الحاكم الأبيض..

وهنا لابد من التذكير بحقيقة ان كل البلدان الافريقية يحكمها افريقيون منذ عقود طويلة ولكنها تعيش البؤس بأقسى صوره وتعاني من العجز الذريع عن ادارة واستثمار امكاناتها الطبيعية والبشرية مما يؤكد ان معضلة البلدان الافريقية لا يحلها ان يكون الحاكم من السود وإنما يحلها ان تتجاوز مرحلة التخلف الاجتماعي بتعبئة المجتمع لاهداف عامة عليا لنقلها من حالة التخلف الى حالة التقدم ولكن ذلك لا يتحقق إلا بانتعاش الوعي والالتزام بالقيم الحضارية التي حققت الازدهار لكل المجتمعات التي التزمت بها..

ومن الانصاف ان نشيد بموقف الأقلية البيضاء في التنازل الطوعي عن الحكم دون أراقة دماء رغم انهم يملكون من وسائل البطش والقهر ما لا تملكه مجموعة الدول المجاورة التي اعتادت على التعامل بمنطق القوة فقبول البيض للاقتراع العام هو موقف نبيل وعاقل ومتحضر ويستحق الاشادة لان نتيجة الاقتراع كانت معروفة سلفا فالسود يمثلون ثلاثة أمثال البيض من الناحية العددية ولذلك يستحيل فوز أي مرشح أبيض عن طريق الانتخابات العامة خاصة في المرحلة الأولى من التحول أما بعد أن يخوض السود تجربة الحكم وتتعرف الأكثرية السوداء على النتائج التي تتمخض عنها هذه التجربة فربما تتغير مواقف عامة السود لصالح البيض أو يميلون لجعل الأمر سجالا بين السود والبيض فمرة يختارون من السود وأخرى من البيض فتتكون بذلك بذرة الاندماج وزوال روح العداوة..

ولكن لابد من التذكير أيضاً بأن البلدان البيضاء هي التي مارست على البيض في جنوب أفريقيا ضغوطاً شديدة من أجل تحقيق هذا الانفراج فكانت معظم البلدان الأوروبية وكندا واستراليا تضغط بشدة من أجل تحقيق هذا الذي تحقق...

والبيض في النرويج هم الذين منحوا جائزة نوبل للسلام لاثنين من السود هما البرجون لوتيلي عام ١٩٦٠ وديسموند توتو عام ١٩٨٤ وكلاهما من معارضي السياسة العنصرية بجنوب افريقيا.. فعداوتنا للغرب يجب ان لا تحجب عنا مزاياهم لأنها مزايا انسانية رفيعة وهي التي

حتى مارجريت تاتشر التي وقفت بعناد ضد مقاطعة جنوب أفريقيا أثناء الحكم العنصري كانت تمارس الضغط الشديد من أجل دفعهم الى الاعتراف بالحقوق الكاملة للسود ومن أجل الافراج عن نيلسون مانديلا ورفاقه..

ولعل من الأمور ذات الدلالة الكبيرة ان جنوب افريقيا هي التي ربت المهاتما غاندي على فلسفة السلم، فقد عاش فيها فترة طويلة يمارس المحاماة وهناك نمت عنده فلسفة اللاعنف مما يجعل ديموقراطية الهند الفريدة وليدا عجيبا تشكلت بذرته في جنوب افريقيا..

وإذا نحن قارنا الذي جرى في جمهورية جنوب افريقيا بما يجري في رواندا او الصومال أو اليمن او افغانستان أو الذي يجري بين الأحزاب والفصائل الكردية فسوف نكون مضطرين الى الاعتراف بأن تخلي البيض طوعاً عن الحكم في جنوب افريقيا رغم توفر وسائل السلطة في ايديهم هو نضوج انساني يستحق الاشادة ونبل رفيع من النادر ان لم يكن من المستحيل حصوله في العالم الثالث، ولذلك يكون الزعيم الابيض دي كليرك الذي تخلى بنبل عظيم عن الرئاسة وفوض اعداءه باختيار غيره: جديراً بكل تنويه واكبار فأين مستوى تفكيره الرفيع من هبوط تفكير هؤلاء الذين يتنازعون على السلطة الى حد الابادة الجماعية كما هو في نموذج رواندا..؟!

ومادمنا نعلم بأن جمهورية جنوب افريقيا هي الدولة الأفريقية الوحيدة التي حققت تقدماً كبيراً في كافة المجالات فمن الواجب ان نتساءل هل كان بامكانها ان تحقق هذا التقدم لو كانت تدار منذ البداية بواسطة السود..؟! أم أن تدهور الاوضاع في كل القارة الافريقية يدل على أن الأرجح انها ستكون في عداد البلدان المتخلفة حتى تكتسب القيم الضرورية المميزة لحضارة العصر..؟!

ومع أنني معجب بنلسون مانديلا وبتطلعاته المتحضرة وبعقليته المرنة المتسامحة وبرؤيته الواقعية والتزامه باحترام ورعاية حقوق كل الاطراف إلا أنني متأكد أن مزاياه الرفيعة لم يرثها من التقاليد القبلية الأفريقية وانما اكتسبها من خلاصة التجربة الانسانية التي انتهت الى الصيغة الحضارية المعاصرة ولكن اتباعه قد لا تتوفر لديهم القناعة ولا الالتزام بهذه القيم الجديدة مما يستحيل معه استمرار هذا الانسجام الوليد الهش..

«الخميس» ٢٨ محرم ١٤١٥هـ - ٧ يوليو ١٩٩٤م - العدد ٥٠٩.

الترابط العضوي
بين فروع المعرفة

تفتيت وحدة المعرفة أصبح من أحداث التاريخ فقد عادت إلى المعرفة وحدتها وادرك العالم مرة أخرى أنه لابد للدراسين من الاهتمام بأبعاد المعرفة في شمولها وعمقها فالتخصص لا يعني الانقطاع عن آفاق العلم والاحتباس داخل نفق ضيق وانما يعني توظيف ثمرات كل العلوم في اغناء العقل وتنشيط الفكر واثراء الخيال فلابد ان تصب روافد كل هذا الثراء المعرفي في حقل التخصص وتجعل الشخص انسانا متوازن التكوين متكامل الشخصية وقادرا على التعامل مع المتغيرات المتلاحقة ويملك قابلية التجدد ولديه نصيب من بعد النظر وثراء التصورات.

إن التداخل والترابط والتكامل بين حقول المعرفة باتت من الحقائق العلمية، أما الاكتفاء بحقل واحد من حقول المعرفة فقد صار من مخلفات الماضي ولعل أكبر دليل على هذا الاتجاه العلمي القائم على تآزر وترابط فروع العلم ما أكدته منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) في اكثر من اصدار..

ومن الإصدارات الضخمة التي أكدت اليونسكو فيه هذا الاتجاه المعرفي: كتاب (تاريخ افريقيا العام) الذي يقع في ثمانية مجلدات ضخمة يبلغ المجلد الواحد نحو ألف صفحة.

اشترك في اعداده عدد كبير من العلماء والباحثين وذوي الاختصاصات المختلفة والاهتمام المشترك وقد أكد فريق البحث ضرورة الأخذ بمنهج تداخل العلوم لكنهم لم ينسوا التذكير بالصعوبات التي تعترض مثل هذا التوجه لانه يشق نهجاً جديداً في اعادة التئام فروع العلم بعد ان حبستها تقاليد التخصص عقوداً طويلة في الانفاق المظلمة وبعد

أن مزقتها أوهام الاكتفاء وعن ذلك يقول فريق البحث في المجلد الأول:

«... ان اعتماد منهج تداخل العلوم في ميدان البحث التاريخي يعتبر موضوعا موافقاً لذوق العصر إلا أن تطبيقه أصبح عسيراً سواء لتباين الطرق المنهجية التي تختص بها العلوم المعنية بالأمر أو لاثر العادات الخصوصية التي انغلق فيها الباحثون غيرة منهم على نوع من السيادة الترابية العلمية..!!».

واستخدام هذا الفريق العلمي لتعبير (السيادة الترابية) يدل على فداحة التشويه الذي أصيب به العقل الانساني نتيجة التحيز للتخصصات فكل مجال يتوهم أهل الاختصاص به أنه اهم المجالات المعرفية كما يتوهمون انه كامل بذاته ومستغن عن المعارف الاخرى فيقعون في وهم الاكتفاء ويستخفون بتنويع مصادر المعرفة وبذلك تجدب العقول وينكمش الخيال وتتحجر الشخصية..

ويرى فريق البحث العلمي أن الدراسة التاريخية مثلاً من خلال قطاعات مفصولة عن بعضها يؤثر على عرض نتائج البحث مما يجعلها تأتي مفككة ولا تعبر بصدق عن الحقيقة التاريخية في صورتها الواقعية المتكاملة وهذه المشكلة ناشئة عما اسماه فريق البحث (.. حرب التصدر والهيمنة..) بين التخصصات التي تتوهم التمايز التام فيما بينها في حين أنها متداخلة ولا تعطي نتائج صحيحة إلا بالالتزام بهذا التآزر والتكامل والالتحام .. ذلك: (.. إن منهج تداخل العلوم يتخذ أسلوب الاستيعاب والشمول..).

وعلى سبيل المثال فإن محاولة دراسة تاريخ اي فترة او تاريخ اي مجتمع بهذه النظرة الجزئية تجعل: «.. التاريخ هزيلاً لأنه مستجرد من كل لحمة تربطه بالحياة.. فهو يحلل بنيات خارجة عن الزمن مهدماً العمق التاريخي الذي لا يمكن دونه ان يكون لتلك البنيات معنى موضوعي أو شعوري..».

ويشير فريق البحث العلمي الذي يمثل منظمة علمية دولية ويضم نخبة من رجال العلم المعترف بهم عالمياً: إلى التشويه الذي يلحقه بالحقيقة بعض الباحثين المعجبين بكمال الفروع العلمية التي ينتسبون إليها:

«.. ومنهم اللغويون الذين يرفضون كل ما هو من قبيل التداخل الثقافي وعلماء الاجناس الوظائفيون الذين ينكرون كل بعد تاريخي ولكن هذه الأسوار المنيعة بين المواد العلمية أخذت تنهار تدريجياً..»

ويتفق فريق البحث مع ج.دسمند كلارك الذي كتب يقول: «لقد ثبت ان

علماء الآثار اللغويين وعلماء الإنسان الثقافي وعلماء الاجناس يواجهون في أغلب الاحيان نفس المشاكل وان احسن طريقة لحلها تكون في العمل ضمن مجموعة العلوم المتداخلة..».

وبانهيار الأسوار المنيعة التي كانت تفصل بين التخصصات شاع في المجتمعات المتقدمة الاخذ بمنهج تدخل فروع المعرفة فانتشرت المدارس والاتجاهات العلمية: «.. التي تدرج التطور الزمني والتفاعل في منهج تحليلها وذلك بادماج الظاهرة الثقافية والظاهرة اللغوية معاً .. واعتماد طريقة ديناميه تتخذ الحركة والمقابلة وسيلتين للتحليل..».

ثم يقول هذا الفريق العلمي الحاشد:

«... إن هذا التآزر الضروري يعتبر فعلاً عنصراً ايجابياً يضمن استعادة صورة الماضي في وضوحها وكمالها في حين ان مصدراً واحداً لابد ان يكون قاصراً عن استعادتها مكتملة ويمكن حينئذ ان نقول دون خطأ بأن منهج تداخل العلوم في مستوى المادة التاريخية يعتبر مقدمة من مقدمات المنهج الأساسية ولذلك لا يوجد بديل لمنهج تداخل العلوم فالمؤكد هو أنه ليس من مصلحة أي علم أن يعالج بمفرده (موضوعاً) هو غاية في الكثافة والتعقد».

اما من يحاول ان يكتفي بفرع واحد من فروع العلم للحكم على قضايا التاريخ أو المجتمعات أو التطور الحضاري أو أسباب التقدم أو التخلف فهو كمن يتوهم أنه يمكن حل المشاكل الكبرى بضربة حاسمة دون اعتبار لتعدد الاسباب ودون ادراك لتأثير العديد من العوامل التي لا يمكن ادراكها إلا بنظرة شاملة ودقيقة ومتعددة الجوانب..

ويورد فريق البحث ايضاحاً لاسهام كل فرع من فروع العلم بالكشف عن جانب من جوانب الحقيقة التاريخية مؤكداً على ضرورة تكامل مصادر المعرفة:

«.. إن مصادر التاريخ الافريقي متكاملة إلى حد أن كل واحد منها عندما يقتصر عليه يظهر مشوها ويعكس صورة باهتة لا يمكن توضيحها إلا إذا اعتمد على مصادر أخرى..».

إن علم الآثار لا يدعو في حد ذاته ان يكون وصفاً جافاً ومعاينة قد تبعث على الاسف خاصة إذا انطلق من بعض العينات ويمكن ان يتباطأ الاكتشاف تباطوءا مزعجاً إذا ما اضطر الباحث لانتثار حفريات أخرى لتأييد أو تفنيد الافتراضات المقدمة..

على أن علم الآثار يمكن أن يقدم خدمات جليلة للعلوم الاخرى التي تعامله بالمثل إذا ما وضع في اطار الحياة المتعددة الأشكال التي يريد

الكشف عنها .. ان تفسير ما يعثر عليه من اكتشافات يوجد في غالب الاحيان خارج ميدان علم الآثار نفسه..

وكذلك الأمر بالنسبة للفن الافريقي الذي يجب أن يسلط عليه ضوء التاريخ ليسلط عليه ضوءه بدوره.. فالفن خاضع لعناصر متعددة انطلاقا من الجيولوجيا إلى الأساطير مرورا بالبنيات السياسية وفي هذه الأحوال فإن الجمال يخضع خضوعاً مباشراً للاخلاق ويخدمها في نفس الوقت اما الفن فهو مكان تحفظ فيه تحف الانتربولوجيا الثقافية وحتى الطبيعة نظراً لما يتوفر فيه من الطقوس والتشريطات وتسريحات الشعر والملابس والمناظر..

لكن فهم الفن نفسه كوسيلة تقنية ملهمة لا يمكن ان يتحقق خارج التاريخ فيمكن مثلاً أن نفسر الاسلوبية بالاعتماد على التنظيم الاجتماعي ففي بلاد (بينان) يتولى الفنانون أنفسهم النقش على الخشب والعاج ويعمل آخرون على الفخار والبرونز..

فالفن منغمس في نظام معقد يزوده بالمعلومات التي تبث فيه الحياة ان الشروع في وضع تاريخ بعض المجتمعات الافريقية دون فهم المغزى من (الكوري) والأقنعة يعني أننا ندخل قاعة وثائق ونحن نجهل كل شيء عنها وبذلك يكون فهمنا لحركة التطور ناقصاً..

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للتقاليد السماعية فالتقاليد السماعية هي التاريخ الحي الذي ترويه الذاكرة الجماعية مع كل ما يطرأ على ذلك من عفوية ومن سذاجة وكل ما فيه من طرافة وعذوبة يوجد في التقاليد ما يوجد في لسان ايزوب من خير وشر.

ويستحسن ان يشرع الباحثون قبل القيام بعملية حفرية في استقراء التقاليد المحلية لأنها تساعد ايضاً على تصحيح الاخطاء في التأويل الناتجة عن نظرة خارجية بحتة وهي تسمح فضلاً عن ذلك بحصر عدد الفرضيات وتحدد نطاق الاختيارات..

التأويل التركيبي اعتماداً على اللسانيات والتاريخ وعلم النبات وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس العام والفيزيولوجيا والتحليل النفسي والمعتقدات الخ: تستطيع أن تفيدنا بنتائج مقنعة فيما يتعلق بنشر الثقافة وتطويرها.

أما اللسانيات فإنها قد أصبحت رفيقا جديداً اميناً وثرياً يلازم التاريخ لأن التقاليد محفوظة في الاجناس وفي المتحف الحي للغات التي يجب ان نحصل عليها لنستخرج منها (اللب المغذي) فكل لغة ابتداع فكري وهي كذلك ظاهرة اجتماعية أن مفرداتها تعكس مثلا وجوهاً من الواقع. قد

صـــهرها تاريخ كـل شعب وبالمقـابل فـإن اللغة والكـلمة تدرجـان في عقليات الشعـوب وحوافـزها نظاماً من التـصورات والمعاييـر التي تطبع سلوكها ويعسر ان نعبر تعبيراً متشابهاً عن بعض تلك التصورات بلغة لها صلة بسياق اجمالي مغاير.

إن المؤرخ محتاج دوماً إلى النقد اللغوي وإلى مساعدة مصادر أخرى .. فلا يجوز ان نخلط بين الظاهرة اللغـوية وهي ظاهرة ثقافية وبين الظاهرة القبلية أو المظهر البيولوجي الخاص بالجنس البشـري.

أمـا تاريخ الاجناس المقـصـور على الحـاضـر المحنط الذي يعـتـمـده الوظائفيون فإنه ليس تاريخياً باتم معنى الكلمة ولا يمكن له ان يقوم بدور ايجابي في هذا التـفاعل بين المصادر حيث لا يشكل كل واحـد منها عنصراً جامداً بل عنصراً متحولا يحمله مجرى النظام التاريخي..

كما يشكـل علم الاجتماع الديناميي مـجالاً أساسياً يمكن ان ينطبق فيه حكم النقـد التاريخي ان الامـر لا يتعلق بأن ننقل في المكان أو فـي الزمان أدوات تحليل لنسـيج اجـتمـاعي سـياسي مـعين إلى نسـيج آخر الا بعـد الدراسة والتـحليل وبدون ذلك يحصل تبـسيط مخل لامـور هي في غاية التعقيد فتسـيء محاولة التفسير أكثر من مما تفيد..

إن مفـهوم الاستـقرار ليس نموذجاً جـاهزاً يطبق على جميع الفـترات وجمـيع الأقطار دون تحوير فـمن الممكن أن يكون الاستـقرار ظاهراً وان يقدر بثمن اجتماعي ثقيل جداً فـفي اثيوبيا وكذلك واجادوجو كان يضمن استقـرار نسبي بالقضـاء على المترشـحين الخائبين والورثة الجـانبيين أو نفيهم مما يتسبب في دفع ثمن باهظ مـن الضحايا البشرية التي يجب على التاريخ أن ينظر إليها بانهـا من عوامل عدم الاسـتقرار حتى يوفـر تفسيراً مفيداً لتطور تلك الأقطار..

ويمكن أن نعول أيضاً على العلـوم الطبيعية والدقيـقة من أجل الاحاطة بصورة المـاضي الافريقي أو تدقـيقهـا وذلك بالعقـل الالكتروني لمعـالجة معطيات مرقمة وبالطرق التـقنية والفيزيائية والكيميائية والبيـوكيميائية لوضـع التـواريخ وبتـحليل المعادن والنـباتات والمواد الغـذائيـة والماشيـة والدواب وبعلم الأوبئـة والكوارث المادية المتصـلة بالمناخ الطبيـعي وليس غريباً أن يُعنى عناية كبرى في التقاليـد الافريقية بالمجاعات التي يؤرخ بها مثلها في ذلك مثل الحروب.

إن تقدم شـعب على آخر بعض الشيء في تكنولوجـيا الحـرب يكتسي معنى كبيراً فقد كان اختلاف الاسلحة حاسماً في بسط هيمنة الآشوريين على مصـر فالتعرف على أنواع الأسـلحة المستخـدمة في فترة تاريخـية

معينة يفيد الباحث في التعـرف على أسباب تغلب مجتمع على آخر في المواجهات التاريخية..

وهكذا تتعدد العوامل التي تؤثر على حياة المجـتمعات وتوجه تاريخها ولذلك لا ينبغي اهمال أي جانب فمن واجب علم الاحصاء أن يقدم مساهمة مهـمة مدعـمة بالأرقام ومن دونهـا تأتي وجوه الواقع مشـوهة حتى في مستوى الكيف لأننا نستطيع ان نقول انطلاقـاً من مستوى معين بحصول وثبة كيفية فيما يتعلق بطبيعة الظواهر.

أما الانتـروبولوجيا الطبـيعيـة فيمكن من جـهتهـا ان تسهم في وضع تاريخ صـحيح .. إن الاساطـير العنصـرية من امثال الـنظرية (الحامـية) المعتمدة على مظاهر واهية قد ألقت ظلالا كـثيفة على هذا الميدان من البحث ولا يمكن ان يخلص فـعـلا إلا بالاعـتـمـاد على منهج تـداخل العلوم الذي تشترك فيه أدلة متنوعة تقود إلى الحقيقة.

وينتهـي هذا الفريق العلمي العـالمي الممثل لاعلى منظمـة مسـئولة عن التـربيـة والثـقـافـة والعلوم، إلى تكرار التـأكـيد بأن تداخـلات العلوم وتفاعـلاتها التي يحـتاج من يؤرخ لافـريقيـا (أو لغيـرها): كثـيرة وهي تقتضي أن تشارك علوم متباينة يكشف كل واحد منها عن وجه من وجوه افريقيا القديمة..

فمثل هذه الاستراتيجية المتداخلة الاختصاصات كفيلة بأن تثري ثراء كبـيراً طريقـة كل علم وبأن تجعل اثره مـحمـودا على الموضوع المشـترك فتجنب البـاحثين الوقوع في المزالق وتفتح لهم مجـالات ثرية وتوفر طرقاً موجزة سريعة..

إن تداخل وتكامل فروع العلم هو بمثابة شبكة صيد ضخمة تزيد مادة الواقع التاريخي اتساعـاً وعمقاً .. والأخذ بهـذا المنهج يفرض أن تسود بين الباحثين أنفسهم روح جديدة..

ويرى هذا الفريق العلمي المتنوع الـتخصصات ان التـداخل بين فروع العلم هو شيء منطقـي لأن الحـيـاة اساسـا اندمـاج وتماسك وتلاحم بين قوى مخـتلفة حول اهداف مشـتركة فالحيـاة الفردية أو الجماعـية ليست واحدية الخط ولا واحدية البعد فهي نسـيج كثيف متماسك ولذلك لا يمكن فهمها الا بتضافر كل فروع المعرفة.

بل حتى الفن يشارك في تنوير بعض جوانب العلم حيث يمكن لأساتذة في التـاريخ والاقتـصـاد وعلم الاجتـمـاع.. الخ.. ان يجدوا مـادة للدرس مشـتركة في تلك اللوحـات الحية مـثل رواية (اعناب الغضب) و(المصـير الإنسـاني) وغيـرهمـا من الأعمـال الروائيـة المعـبرة عن روح الإنسـان

ومعاناته ومآسيه رغم ما يبدو للمتسرعين بأن علماء الاقتصاد والتاريخ والاجتماع وغيرهم ليسوا بحاجة إلى العناية بالأعمال الابداعية في مجال الفن بينما أنها تعبير عن صميم التجربة الإنسانية في اروع تجلياتها فاهمالها يؤدي إلى غياب بعض جوانب الحقيقة.

يجب اذن ان نسعى إلى المعرفة بهذا النوع من الكثافة لأن الحياة الواقعية اكثر اثارة من الرواية .. ان الواقع يتجاوز الخيال لأن كل حركة تاريخية تستوحي في نفس الوقت من كل مظاهر الواقع الاجتماعي والاستعادة التاريخية التي لا تأخذ بعين الاعتبار كل هذه الجوانب تكون في الواقع استعادة نافية للتاريخ بل تكون على الاقل نظرة متحيزة لأنها جزئية .. بينما ان الاحداث التاريخية الكبرى ناتجة عن لقاء وعن توافق بين القوى: أي التكنولوجيا والجهاز المادي والتجارة ومزايا اللغة وأهمية التنظيم والاتجاه العاطفي العام..

إن السعي حسب العادة إلى تفضيل السبب الرئيسي تفضيلاً مجحفاً قبل محاولة فهم جميع الأسباب الاخرى في فيضها الحيوي هو كمن يبني صرحاً بخياله عوضاً عن السعي إلى استعادة الماضي عقلياً بكل المؤثرات الفاعلة..

إن الثقافة تبدو كأنها تشكيلية بديعة من العوامل المتنوعة إلا انه لا يمكن ان نلخصها في المجموع العددي لتلك العوامل لأن العناصر المكونة للكل لا تبقى متمايزة بحيث يمكن أن تضاف وترتب ترتيب السلع بمتجر بل الكل هو مزيج منصهر من عناصر تمازجت وفقدت انحيازها فصارت متداخلة مع هذا الكل فالثقافة هي كل ما يستوعب العناصر المكونة وذلك يعني في النهاية أن منهج تداخل العلوم يدعو إلى وضع مشروع يشمل جميع العلوم.

وهكذا يتضح ان توهم انفصال فروع العلم والظن بجدوى الاحتباس داخل التخصصات المفككة والاعتقاد بكمال كل فرع معرفي. هو من علامات الطفولة الحضارية فالفروع العلمية لابد ان يتغذى بعضها من بعض وبدون ذلك التلاقح المستمر لا تتطور الأفكار ولا تنمو المواهب ولا تتسع الآفاق ولا تغتني المفاهيم..

«الرياض» الخميس ١٤ محرم ١٤١٥هـ ـ ٢٣ يونية ١٩٩٤م ـ العدد ٩٤٩٥.

سحر الغياب وهالة الغموض

للعقل البشري طبيعة عجيبة وغريبة، فهو ينطوي على امكانات مدهشة ولكنه ايضا يشتمل على نقائص شنيعة ولا بد أن تتضافر الجهود من أجل تعريف الناس بامكانات العقل ليستفيدوا منها وتعريفهم بنقائصه ليفطنوا لها فيجتنبوها..

والوقوع تحت تأثير سحر الغياب وهالة الغموض والعجز عن اكتشاف سخف المألوف هي بعض هذه النقائص الشنيعة مما يستوجب تعريتها وتكرار الحديث عنها وانقاذ العقول من تاثيرها..

إن العقل البشري تركيبة معقدة من الامكانات والنقائص والمجتمعات التي أدركت فيه هذه الطبيعة المزدوجة هي التي استطاعت أن تستثمره بتوسيع امكاناته وتضييق نقائصه..

إن الشواهد على نقائص العقل البشري أكثر من أن تحصر لكنها أشد خفاء من جوانبه المشرقة، أما الدلائل على الامكانات الهائلة للعقل الإنساني فإن ما أنجزه في مجالات التنظيم والعلم والفكر والأدب والفن والمخترعات والتشييد والابتكار هي من الوضوح بحيث لا تغيب عن بال أحد، فحيثما التفت الإنسان وجد أمامه أكثر من نوع من الانجازات الباهرة..

وعلى سبيل المثال فإنني ما سافرت يوماً عن طريق الجو إلا وشعرت بالامكانات المدهشة التي يملكها عقل الإنسان حين يتم توجيهه للأعمال المجدية فأنت بالطائرة تحس أنك جالس في قاعة فخمة أنيقة تضم ما يعادل سكان قرية بكاملهم ومع ذلك فإن هذه القاعة الرائعة تسبح في الهواء برشاقة آسرة وسرعة عظيمة..

ليست الطائرة هي أعظم ما توصل إليه عقل الإنسان، وليست هي أدق ما تصنعه يداه، ولكنني مع ذلك ما سافرت بها إلا وأحسست بمزيج من المشاعر المتضاربة حيث أحس بالزهو لأنني انتمي إلى النوع الانساني الذي حقق هذه الانجازات الباهرة، غير انني في الوقت نفسه أشعر بالامتعاض لأنني انتسب إلى مجتمعات قد تخلت عن دورها الحضاري فلم تشارك في شيء من هذه الانجازات ومازالت غافلة عن مقوماتها الحقيقية..

فالذين صنعوا هذه الانجازات المدهشة من وسائل الراحة ومن آلات التدمير ليسوا أكثر ذكاء بالوراثة ولكنهم وجهوا ذكاءهم للعمل الجماعي المنظم بدل الجهد الفردي المبعثر، وكرسوا طاقتهم لبناء مجتمعاتهم بدلاً من توجيهها لهدم هذه المجتمعات فكل فرد هناك يسعى للتعلم بدل التعالم وللاتفاق بدل الافتراق وللتفاهم بدل التخاصم وللالتزام بدل الإهمال...

أما المجتمعات التي تنوء باعباء العقلية الخصامية فإن طاقتها تتبدد في نفي الحاضر والاحتماء بالماضي فهي لا تحاول أن تصنع لنفسها مجداً حاضراً ولكنها تكتفي بالتغني بأمجاد صنعها آخرون..

إن المكانة العظيمة لرسول الله نوح عليه السلام لم تنفع ابنه الذي هو من صلبه لانه (.. عمل غير صالح..) .. ذلك ان كل فرد من الناس مسؤول مسؤولية فردية ولا تغني عنه عظمة اسلامه ولا يجديه صلاح آبائه..

إن عظمة الإنسان تكمن في عظمة عقله ونضوج عواطفه ونقاء ضميره وصلاح ارادته وتنظيم نشاطه وتركيز جهده وتوجيه اهتمامه للخير العام غير أنه لا يستطيع ان يبلغ هذا المستوى المتوازن الرفيع إلا إذا هو عرف طبيعة ذاته بما تنطوي عليه من امكانات ونقائص وتوفرت لديه الرغبة في أن ينمي امكاناته وأن يقلص نقائصه..

ومع أن العقل هو جوهر الإنسان إلا أن العادات الذهنية والرغبات والأوهام تتكاثر عليه وتغلبه فلا يستطيع الانفلات منها إلا في حالات نادرة أما في الغالب فإنه يغرق فيها فتعميه عن الواقع وتصرفه عن الحقائق وتعوقه عن التحليل والمراجعة والفهم..

ولذلك فإن أول مهام التنشئة هي تفهيم الأجيال طبيعة العقل البشري ليواجهوا الحياة وهم يعرفون امكاناته ونقائصه فما لم يفهم الإنسان طبيعة عقله فإنه سيظل غافلا عن آفاته وعاجزاً عن تنميته وغير قادر على حسن استخدامه..

ومن آفات العقل البشري والتي تعوقه عن أداء وظيفته على الوجه

الأكمل: وقوعه أسيراً لسحر الغياب وعجزه عن اختراق هالة الغموض وغفلته عن تفاهات المألوف..

فالعقل عند عامة الناس يميل إلى القبول السطحي للأشياء، فهو دائماً مأخوذ بالمظاهر السطحية لا يستجلي جواهر الأشياء ولا يتعمق في حقائق الأمور.. إن العقل البشري يبدو في اغلب الأحيان وكأنه ذو طبيعة اسطورية تؤثر فيه الأشياء الغامضة وتسحره الأمور البعيدة فيصاب بالشلل ويتوقف عن محاولة الكشف والاستقصاء..

والغياب أو البعد يكون بُعداً في المكان أو بعداً في الزمان أو بعداً في فارق المكونات النفسية أو بعداً في فارق المصادر المعرفية وقد يكون مصدر البعد هو الشهرة أو المكانة أو غير ذلك من الحواجز التي لا بد أن يتدرب العقل على تحليلها والتعامل معها بعد التخلص من سحرها وهالاتها..

إن البعد في كل الأحوال يكون سبباً لتكاثر الاوهام بالاغراق في التبجيل أو الإغراق في التحقير وفي الايغال في الحب أو الايغال في الكره وفي الامعان في النفي أو المبالغة في الاثبات فالاشياء المحبوبة تكتسب بالبعد جاذبية آسرة تعوق العقل عن القيام بالمراجعة والتحليل والاكتشاف وبالمقابل فإن الأشياء التي يكرهها الإنسان تكتسب بالبعد بشاعة لا تتفق مع الواقع وبسبب ذلك تتفاقم الكراهيات ويشتد النفور وتصل هذه الآفات العقلية بالناس إلى الحد الذي تتأجج فيه الرغبة عند كل طرف في ازهاق الطرف الآخر، لأن الوهم يظهره وكأنه التجسيد البشع لجميع الشرور والنذالات..

يقابل هذا المقت المفرط القائم على الوهم: تقديس مفرط ايضاً ينهض على الوهم بسبب الجهل الذريع بالطبيعة البشرية التي هي مزيج من المفارقات والتناقضات ما بين العقل والخرافة، والخير والشر، والنبل والنذالة..

وهذا التذبذب بين المقت المفرط والتقديس المفرط له أسباب متعددة من بينها سحر الغياب وهالة الغموض والاندماج التلقائي في المألوف والوقوع في أسر الشهرة والانخداع بأبهة المكانة أو بريق المظهر..

إن وقائع الحاضر وأحداث التاريخ تؤكد ان للغياب قدرة فائقة في تحسين القبيح وتضخيم الضئيل وتعظيم التافه.. كما ان للغياب قدرة فائقة على تقبيح الجميل وتصغير الكبير وتحقير ماهو جدير بأرفع درجات التوقير..

إن هذه الطبيعة الاسطورية هي السبب في شيوع الكثير من الشرور والمآسي القائمة بين المجتمعات والأمم والطوائف والأسر والأفراد...

كما أن هذه الطبيعة الأسطورية هي السبب في اضفاء العظمة الفائقة على أشخاص عاديين لا يحملون شيئاً من صفات التفوق بل وحتى لو كانوا في ذروة التفوق في بعض الأمور فإنهم يظلون معرضين للنقائص البشرية التي تفوق الحصر غير أن الناس يغفلون عن هذه الحقيقة البديهية..

أسباب كثيرة تسهم في اضفاء الهالة الساحرة التي تحجب الحقيقة أو في إلباس الآخر لباس البشاعة المطلقة فالتاريخ حين يمدح فإنه يمعن في المدح، وحين يذم فإنه يوغل في الذم. ومن النادر أن يلتزم بالاعتدال أو يتمسك بالموضوعية وبذلك تعتاد العقول على هذا التنميط البعيد عن الحق والمجافي للواقع..

كما أن الخيال البشري من طبيعته انه يسرح في التهويمات ويخلط بين الاحلام والواقع ويمزج بين الحقائق والأوهام ويغفل عن الفرق بين المستحيل والممكن إلا إذا هو تدرب على التفكير المنهجي المنظم..

وكما يرى جان برنيس في كتابه عن (المخيلة) ترجمة الدكتور خليل الجر فإن للصورة المتخيلة سحراً يفتقر إليه الحضور بالذات: «.. فعالم الحلم وعالم اليقظة الخياليان وكذلك عالم الخرافة واللعب ليست في نهاية المطاف سوى تصعيد للنزعات وخلق عالم من اللذة واللهو لا يستطيع الواقع ان يؤمنه والتفكير السيكولوجي يؤكد القرابة بين المخيلة والحياة العاطفية...»

ويواصل برنيس التوضيح فيقول: «... ويتميز في كل حالة عاطفية عنصران: الاندفاع والفارق، فالاندفاع يولد صورة حدث ممكن الحصول يشبع الرغبة فيزيد في قوتها وبالمقابل تُظهر هذه الصورة الشيء المرغوب فيه بمظاهر مختلفة كلها فتانة وتتهافت الفوارق المختلفة في العاطفة .. وصورة الشخص تفقد وضوحها وعندما يتم اللقاء بين الصورة والشخص الحقيقي فإنه كثيراً ما يؤدي إلى خيبة أمل فالبعد يزيد في الشوق إلى الشخص وللصورة الشبح سحر يفتقر إليه الحضور بالذات...»

وقصص العشاق كلها تؤكد ان بهاء الصورة المتخيلة يكون اضعاف البهاء الحقيقي ومن المؤكد ان التضخيم نفسه يحصل في تهويل البشاعة أو اختلاقها فالخيال يبالغ في تجميل وتضخيم وتعظيم صورة المحبوب

واخفاء كل النقائص والعيوب ويسري ذلك على كل صورة ذات مصدر خيالي مفرط حيث يتم اضفاء صفات ليست واقعية يؤكد ذلك ان العاشق إذا ظفر بمعشوقته فإنه في الغالب يصاب بنكسة عاطفية وربما تحول الهيام المفرط إلى مقت مفرط لأن الشخص يكتشف سخف خيالاته ورعونة سلوكه..

او ظفر قيس بن الملوح بليلى العامرية بعد ذلك التوجد الملتهب، لربما هجا نفسه وكره ذاته بعد ان يكتشف فظاعة الحماقة التي ارتكبها وسخف التصور الذي وقع فيه..

ومثل ذلك يقال عن بقية العشاق من أمثال كُثير عزة، وجميل بثينة، وعروة بن حزام وصاحبته عفراء وغيرهم من الذين هاموا عشقاً بسبب البعد، ولو تحقق لهم القرب لزال السحر وانطفأ البريق وانقشعت الهالة وتلاشت الروعة..

يصور شيئاً من ذلك الكاتب الروائي الفرنسي الشهير مارسيل بروست صاحب رائعة (بحثا عن الزمن المفقود) فيروي كيف صور له خياله معشوقته (جيلبرت) تصويراً اخاذاً: «... جعله دوما يعيش ذكراها .. كانت مخيلته ترسمها امامه بعينين ملتهبتين وخدين ممتلئتين لامعتين...» .. ولكنه فجع حين رآها «... بوجه شاحب مختلف وخدين ضامرتين وأنف مستطيل...»

لقد أصيب بروست بالدهشة والذهول وهو يقارن بين الصورة التي رسمها خياله وبين الصورة الحقيقية ولا بد أن هذا يحصل لكل العاشقين ولجميع الذين يرسمون في خيالهم صوراً رائعة أو بشعة للآخرين .. لأن الواقع في الغالب ليس بالحسن الذي نتخيله ولا بالبشاعة التي نتوهمها..

فالغياب هو مصدر للسحر والبعد هو سبب الهالة والغموض هو باعث الروعة ولذلك فلابد من تحصين العقول عن هذه الآفات فامراض الاذهان أحق بالاهتمام من أمراض الابدان والوقاية منها أولى والزم...

ونموذج العشاق ينطبق على كل الصور المتخيلة عن النابهين من العلماء والقادة والأدباء والنوابغ في كافة مجالات العلم والعمل في افراطها في تحسين القبيح وتكبير الصغير وتعظيم التافه أو في تقبيح الجميل وتصغير الكبير وسلب العظيم مقومات عظمته..

وكما جاء في كتاب (المخيلة) لجان برنيس فإن العاطفة حين تستحكم (حبا أو كرها) فإنها: «.. تستخدم جميع الوسائل الفكرية لتبرير الوهم فتحول نقائص المحبوب إلى محاسن وذلك على حساب العقل السليم

وليس الشغف وحده يخضع لسيطرة المخيلة فعندما يتعلق الأمر بالبغض أو بالحسد تتابع المخيلة عملاً لا يقل نشاطاً عن عمل التبلور لكنه يسير في اتجاه معاكس وتتحول أكثر الأعمال براءة إلى تصرفات منحرفة...».

العبقري العربي ابن خلدون حاول الإسهام في تحصين العقول من الأوهام التي تعتريها فقدم ملاحظات رائعة عن الناس في التعظيم والتحقير وفي الائتلاف والاختلاف وفي القبول والنفور وفي الاقبال والاعراض .. ولكن رغم شهرة ابن خلدون وأهمية الافكار التي توصل إليها ودونها في مقدمته الشهيرة، فإنني متأكد ان الذين قرأوها هم عدد قليل جداًليس بين عامة المتعلمين وانما حتى بين المثقفين ولذلك لم يكن لافكاره أي أثر في اصلاح شأن التفكير العربي..

ومما ورد في المقدمة حول موضوع المقال: «... حال الشهرة والصيت فقل ان تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من العلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها .. والسبب في ذلك ان الشهرة والصيت انما هم بالاخبار والاخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع وتدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لاصحاب التجلة والمرات الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال واشاعة الذكر بذلك .. والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها..!!؟..»

رغم نجاحات علم النفس وغيره من العلوم الاجتماعية والانسانية، فإننا في المجتمعات العربية والاسلامية لم نستفد منها فمازلنا نجهل طبيعتنا ومازلنا نستفظع أن تنسب حسنة أو مزية للذين نختلف معهم أونكرههم ونستنكر أن ينسب الخطأ إلى الشخصيات التي تكونت لهم مكانة كبيرة في نفوسنا .. وغاب عن بالنا أنه حتى حين يوصف انسان بالعظمة وبالعبقرية وبالتميز الفكري وبالتفوق العلمي فإن ذلك لا يعني تبرئته من العيوب البشرية وإنما يعني ان فيه من المزايا ما يرجح على النقائص..

كماغاب عن بالنا أيضاً انه حين يتم توضيح الآراء الخاطئة للعالم أو المواقف النابية للعظيم أو السقطات التي قد يقع فيها العبقري فإن ذلك لا

يعني انتقاص العالم ولا نفي العظمة أو اسقاط العبقرية وإنما يعني التعامل مع كل واحد منهم بوصفه واحداً من البشر..

إن هذا هو المفهوم الذي انتهى إليه علم النفس ومدارس التحليل النفسي وعلم الاجتماع وعلم الانتروبولوجيا ودراسات التراجم وبحوث ظاهرة الابداع وفلسفة التاريخ وشتى العلوم التي درست الإنسان فرداً أو درسته مجتمعاً...

فالاغراق في التعظيم والامعان في نفي النقائص والاقتصار على ابراز الجوانب المضيئة قد أوهمتنا بعصمة كل الذين نجلهم وكمال كل الذين نحتفظ لهم برفيع المكانة وعظيم الاحترام وغاب عنا ان الانسان يبقى عالماً جليلاً وبطلاً عظيماً وعبقرياً متفوقاً حتي وان وقع في شيء من الأخطاء التي يقع فيها البشر وان كان فيه شيء من نقائص الناس الملازمة للطبيعة البشرية...

إن اخفاء أخطاء العظماء وادعاء كمال الابطال وتوهم الصواب المطلق عند الذين نجلهم هي سلوكيات لم تعد مقبولة لأنها نوع من الصنمية التي لا تتلاءم مع الخصائص البشرية. فالتعود على هذا اللون من التفكير يصيب العقول بالعطب ويلحق الضرر الفادح بالحقيقة..

ومن أجل حماية العقول من أن تصاب بهذا الوباء الذهني الخطير فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم قولته الجامعة الصريحة: «... كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون...» والمجتهد مثاب حتى لو اخطأ..

فالخطأ عنصر أساسي في السلوك البشري فكراً وممارسة ولا يمكن استثناء العظماء من هذه الطبيعة البشرية العامة الراسخة ولذلك فإن اخفاء الاخطاء البشرية حتى عند الذين بلغوا الذروة في العلم والصلاح فيه مخالفة صريحة لهذا التأكيد النبوي الجامع كما أن اخفاء النقائص يلحق اضراراً فادحة بتفكير الناشئين ويجعل آراءهم وأحكامهم تتسم بالمبالغة والشطط والتعصب ويحيلهم من ذوات مفكرة مستقلة إلى تابعين عاجزين مأسورين يتعلقون بالاشخاص فقط ويعرفون الحق بهم بدلاً من النطق بالحق ومعرفة الاشخاص به..

وبالمقابل فإن الذين نختلف معهم فكراً وسلوكاً ليسوا شراً محضاً وليسوا حزمة من الاخطاء ولا كتلة من النقائص وإنما فيهم من هذه وتلك بمقدار ما رتب الله تعالى في الطبيعة البشرية من ثوابت وسنن وبمقدار ما وضع الخالق سبحانه من أسباب الاتفاق والافتراق..

فلا يجوز ان نتعمد اخفاء حسنات الذين نختلف معهم أو ننكر مزايا

الذين لا نحبهم وإنما يجب الالتزام بالحق والموضوعية ونزاهة التقييم مع من نحب ومن نكره ومع نتفق معهم أو نختلف..

فالعدل كل لا يتجزأ فحتى المجرم لا يجوز ان تنسب إليه اكثر من جرائمه والا كنت مفترياً.. ومن يبيح الجور على الخصوم لابد ان يعتاد ممارسة الجور حتى مع أشد الناس أمانة وصدقاً وصلاحاً..

فإذا تحدثنا عن عظماء الناس فإن هذا الحديث لابد ان يستصحب امكانية الوقوع في الكثير من الاخطاء والنقائص، فنحن نتحدث عن بشر غير معصومين فعظمتهم تنبع من قدرتهم على تخطي بعض النقائص البشرية ولا أمل في الكمال ولا مطمع في العصمة وبهذا نتخلص من العقلية الخرافية التي تنسب للإنسان كل صور الكمال أو تسلبه كل حقوقه في الفهم السليم والسلوك الراشد فينبغي ان نتعامل مع الانسان كمخلوق يخطيء ويصيب، وله نوازع وميول وأفكار وآراء وتصرفات هي خليط من الخير والشر، وهي مزيج من الكمال والنقص وهي امشاج من الفضيلة والرذيلة وهي تداخل بين الحق والهوى..

إن الغياب والبعد في الزمان أو المكان أو المنزلة وان الهالات لتعطل العقل وتقعده عن ممارسة دوره في الكشف والتحليل فتبعده عن الواقعية نفياً أو إثباتاً، ولذلك لا بد ان يتواصل الحديث عن هذه الآفات الذهنية من أجل تحصين العقول من أن تقع رهناً لهذه المعوقات..

«الرياض» الخميس ٣٠ ذو الحجة ١٤١٤هـ ـ ٩ يونية ١٩٩٤م ـ العدد ٩٤٨١.

العمل الذي يؤدى بغير اهتمام يكون ضرره أكثر من نفعه لان احتمالات الخطأ تحصل وتتكرر حتى مع اليقظة الكاملة والتأهب الشديد فإذا غابت اليقظة ولم يتوفر التأهب فإن حصول الاخطاء لا يصير مجرد احتمال وإنما يصبح نتيجة حتمية.

وتتقلص احتمالات الخطأ كلما تضاعف الاهتمام حيث يشتد الانتباه ويتركز الجهد فالاتقان مرتبط ارتباطاً سببياً بالاهتمام فلا يمكن ان يتحقق الاتقان إلا بالعناية التامة فإذا اقترن الاهتمام الشديد بالموهبة السخية فقد يتولد الإبداع..

قد لا يفطن الناس إلى خطورة الأداء الركيك الناجم عن التراخي والاهمال وعدم الاكتراث فمع ان فتور الحماس وغياب الاهتمام هو السبب الأول للقحط العلمي والعملي فإن الناس لا يدركون خطورته إلا في الحالات التي تكون ذات نتائج ساخنة وسريعة حين يموت إنسان تحت التخدير بسبب الاهمال أو حين يحصل خطأ شنيع في تشخيص المرض وتنجم عن ذلك نتائج اليمة وغير متوقعة أو حين يتم اجراء عملية جراحية لا تسمح بها الحالة الصحية للشخص أو نحو ذلك مما تكون نتائجه مفاجئة وصاعقة.

لكن الناس يغفلون عن النتائج الوخيمة للاهمال في الجوانب الأخرى ولو اجريت دراسة عن أدائنا العام لظهرت نتائج مفزعة وذلك لأننا نؤدي أعمالنا بفتور وعدم اهتمام فهذا الركام من المعاملات سببه غياب الاهتمام ومعظم مظاهر النقص والخلل ناجم عن فقدان العناية..

هذه حقيقة يجب أن يستوعبها الجميع كما ينبغي ان يتكرر التذكير بها والالحاح عليها حتى يرتفع مستوى الأداء وخصوصاً لطلبة الجامعات حيث يجب ان يعرفوا حدود امكاناتهم وان يدركوا ان تنمية قدراتهم تتوقف على رصيدهم من طاقة الاهتمام وتنظيم الجهد.

إن الإنسان لا يتقن عمله لمجرد أنه تلقى عنه بعض المعلومات النظرية التي اضطر إلى ترديدها وإنما يكتسب القدرة على الاتقان إذا أصبح مجال العمل محور اهتمامه ومحط عاطفته..

فالاهتمام احتشاد وتوحد وتركيز. ان المنشار لا يقطع إلا إذا تم الامساك به بقوة وتركزت حركته على نقطة واحدة فإذا تراخت اليد أو خرج المنشار عن مجراه أفسد ولم يقطع.

والعمل الذهني أكثر قابلية للتشتت والتبدد فالوعي لا يتبلور تياره إلا بالتركيز. والنفاذ إلى بواطن الامور يتطلب حشد الانتباه بتركيز واهتمام واصرار ومثابرة..

الإهتمام مرادف العناية وكلاهماعكس التبلد وعدم الاكتراث ولكن الاهتمام قد يصل درجة التوهج .. والعناية قد تبلغ حد التركيز (ومنه العناية المركزة في المشافي) وكل انشغال بشيء هو انصراف عن أشياء أخرى..

معاجم اللغة تورد من معاني (الاهتمام) التوفز والقلق والرغبة الملحة في تجاوز الحالة الراهنة: «.. همه: شغل باله وتعلق به..» و«.. أهمه الأمر: أثار اهتمامه» .. و«.. اهتم بالشيء عني به» .. «واهتمام مصدر اهتم. اتجاه نفسي إلى تركيز الانتباه حول موضوع معين».. والشيء المهم هو: «كل ما يثير الاهتمام من الامور» و«مهام الأمور ما له أهمية كبيرة» وهي أيضاً اختصاصات ومسؤوليات» .. ومهتم بالشيء: معنٍ به .. والهم هو ما يشغل الفكر..

فالاهتمام يعني العناية بالشيء والتركيز عليه والالتصاق به ومواجهته بعنفوان الحب أو غليان الكره انه يحمل معنى الإصرار والعزيمة والإرادة والفطنة والانتهاء وهو عكس الاهمال والتبلد وعدم الاكتراث والغفلة والذهول..

ولذلك فإن الإنسان لا يمكن ان يتقن عملاً لا يهتم به ولا تحصيل معرفة لا ينجذب إليها وكل شيء تمارسه بدون اهتمام سيكون عقيم النتائج أو يكون ضاراً وكل عمل تؤديه بدون ان تحس بجاذبية قوية نحوه يكون اداء ركيكاً خالياً من الجدوى وبعيداً عن الاتقان فضلاً عن الابداع.

وفكرة التخصصات الاكاديمية هي محاولة لتكوين اهتمامات متنوعة لجذب كل فئة إلى تركيز اهتمامها في مجالات محددة تضمن النجوع والمهارة وحسن الأداء.

فإذا فشلت الدراسة الأكاديمية في تكوين الاهتمامات التي تتطلبها تنمية المجتمع وخلق الجاذبية في الاتجاهات المطلوبة فإنها تكون قد فشلت تماماً في إعداد المتخصصين لأن الدراسة ليست مهمتها اعطاء الكفاية من العلم لان هذا غير ممكن وانما مهمتها الأساسية خلق علاقة حميمة بين الدارسين وبين المجالات التي يراد توجيه اهتمامهم إليها..

ولذلك فإنه في المجتمعات المتقدمة يعتبر الإنسان متخصصاً في المجال الذي يستغرق أهتمامه حتى ولو كان مختلفاً بشكل جذري عن تخصصه الدراسي وفي هذه الحالة يكون قد تحول من مجال إلى آخر بمحض اهتمامه.

ومع ان الحصول على شهادة التخصص بالطريق المعتاد هو منال سهل وباستطاعة كل دارس متوسط القدرات ان ينال شهادة التخصص متى التزم بالمنهج حتى ولو كان مفتقراً إلى الموهبة..

أما التخصص بمحض الاهتمام فإن الاعتراف به يحتاج إلى انتاج غير عادي لكنهم في المجتمعات المتقدمة يحتفون أشد الحفاوة بالانجازات الفردية ويعترفون بالتحول من تخصص إلى تخصص آخر مختلف بواسطة الأعمال التي ينجزها الفرد بمحض اهتمامه.

والأمثلة على ذلك تتعدد بتعدد النابهين فكل مؤسسي العلوم لم تكن الموهبة وحدها هي سلاحهم وإنما كان نصيب الموهبة نصيباً ضئيلاً قياساً بنصيب الجهد فقد كان الاهتمام المستغرق هو الذي حقق البزوغ للمؤسسين ولم يكن الأداء الأكاديمي الرتيب منبعاً لطفرات العلم والفكر والفن وإنما كانت الجامعات تستجيب بعد بطء المبدعين من ذوي الاهتمام المستغرق والمواهب الدافقة فالتأسيس في كل فروع العلم والفن والفكر سابق للتخصصات أو مطور لها وهو ابتداع محض.

وكل الطفرات والتحولات والابداعات في مجالات العلم والفكر والفن والاختراع كانت من حصائل الاهتمام اللحوح المستغرق المباين للتخصصات الشكلية فالاهتمام هو الذي اتاح للموهوبين تأسيس العلوم أو تطوير الفنون أو أحداث طفرات فيما كان مستقراً عند الاكاديميين ان تاريخ العلم والفكر والابداع كله شاهد لهذه الحقيقة لكن رغم وضوحها فإنها تغيب غياباً يكاد يكون كاملاً مما كان له اسوأ الأثر في تكريس

الانطفاء وانتظار التوهج ممن لا يملك جذوة الاهتمام.

إن كون الاهتمام هو محور النشاط البشري ومصدر اشعاعه وسبب انطفائه كان المفترض ان يكون وضوحه لا يحتاج إلى تأكيد لكننا في خضم الفجاجة المستشرية اعتدنا على استنكار البداهات.

إن سجل الإبداع في كافة المجالات شاهد على أنه ما من انجاز جليل إلا كان مسبوقاً باهتمام قوي مستغرق كما أنه من المؤكد انه لا يمكن تحقيق المهارة في أي أداء إلا بالتدريب الشاق والمثابرة الصبورة.

وهذا لا يعني ان قاحل الموهبة يستطيع بالجهد وحده ان يبدع لكنه برهان قاطع على أنه مهما بلغ سخاء المواهب فلابد من الاهتمام اللحوح والالتصاق الحميم فمن حرارة الجهد تبزغ الموهبة ومن تركيز العناية ينبثق الابداع..

فلا ابداع بدون اهتمام .. هذا هو ما يؤكده تاريخ المبدعين كما يشهد له الواقع وتلح عليه الدراسات التي تناولت ظاهرة الابداعات في كل المجالات.

لذلك فسوف نواصل إن شاء الله تحت هذا العنوان (عبقرية الاهتمام) تقديم عشرات الشواهد في مقالات لاحقة توضح أحقية الاهتمام بمثل هذا الامتياز كمنبع أساسي للطاقة البشرية ليتم التركيز على خلق الاهتمامات الجيدة وليتضح ان الفارغين من الاهتمام لا يمكن ان يكونوا من الماهرين فضلاً عن ان يصيروا من المبدعين..

ونبدأ بنموذج من النماذج العلمية المعترف بها عالمياً من الذين كانت شهرتهم العلمية الواسعة في مجال مختلف كلياً عن مجال تخصصهم الدراسي.

فهذا فيلفريدو باريتو واحد من أبرز علماء الاجتماع مع أن دراسته النظامية لا تؤهله لأكثر من التعامل مع الاسمنت والحديد والطوب والأسفلت فقد كانت دراسته الشكلية تتيح له العمل في مجال المباني أو الطرق أو تمديدات المياه والصرف الصحي أو أي مجال انشائي تتجه له خبرته كمهندس انشائي.

لكنه بسبب اهتمامه بقضايا المجتمع اضافة إلى يقظة العقل وسخاء الموهبة تخلى نهائياً عن مجال اختصاصه الدراسي وانصرف اهتمامه لمجال آخر مختلف كلياً فكرس جهده لعلم الاقتصاد أولاً ثم لعلم الاجتماع ثانياً وفي كليهما كانت له اسهامات كبرى وكانت بداية هذا التحول الجذري انه لاحظ اثناء عمله: «مهندساً في مناجم الحديد التي كانت تملكها بعض المصارف الايطالية القوية: (لاحظ) الصراع الدائر بين انصار حرية

التجارة وأنصار فرض اجراءات الحماية وأدى به ذلك ـ كما يقول الدكتور أحمد ابوزيد .. إلى الاهتمام بالنظرية الاقتصادية».

عشرات العاملين كانوا معه في هذا العمل لكنه وحده لفت الصراع انتباهه وأثار اهتمامه وحول مجرى حياته فصار له هذا الجهد البارز في مجال من أعقد مجالات المعرفة البشرية وأعصاها على التحليل والتحديد.

تحول أولاً عن اختصاصه في الهندسة المدنية إلى مجال الاقتصاد حيث كان يرى أن علم الاقتصاد كان متخلفاً عن تطبيق المناهج والأساليب العلمية وقادته جهوده الشخصية المحضة في المجال الجديد إلى درجة الاستاذية.. «لكرسي الاقتصاد في جامعة لوزان بسويسرا وظل يشغل المنصب كما جاء في (معجم أعلام الفكر الإنساني) حتى تقاعده..» .. هكذا قادته نتائج اهتمامه إلى كرسي الاستاذية في الاقتصاد في واحدة من أشهر الجامعات الاوروبية وهو مجال مختلف كلياً عن المجال الذي تناولته دراسته الجامعية.

وبعد تقاعده وسع دائرة اهتمامه فتحول عن مجال الاقتصاد إلى الاهتمام بعلم الاجتماع مهيئاً نفسه لنقد المسائل الاجتماعية والانسانية فاشتهر شهرة واسعة بنظريته عن: (النخبة والجماهير) فهو يحتقر الدهماء ويعتقد أنهم طوفان يتحرك بالعاطفة ولا أثر للعقل في السلوك الجماهيري وهو بذلك يلتقي مع جوستاف أوبون وغيره من المفكرين الذين ادركوا تلقائية السلوك الجماهيري وبعده عن التمييز.

وأفكاره عن الجماهير تقترن بأفكاره عن الصفوة الذين يمثلون أقلية ضئيلة في كل المجتمعات ونحن باستعراض أفكاره لا نستهدف فقط تقديمه كنموذج للعالم الذي حقق له محض اهتمامه شهرة عالمية واسعة واعترافاً علمياً عاماً في مجال مختلف كلياً عن مجال تخصصه الدراسي وإنما بهدف تقديم هذه الأفكار لذاتها لأنها تستحق العرض اضافة إلى دلالتها في ابراز الدور الاساسي للاهتمام في توجيه ونجوع النشاط البشري.

يقول عنه الدكتور محمد علي محمد في كتابه (تاريخ علم الاجتماع) «يعد باريتو أحد علماء الاجتماع الذين ينتمون إلى الجيل الذي أسهم في تطور علم الاجتماع .. لكنه يمتاز عنهم بصورة واضحة بنجاحه في صياغة وتشييد نسق كامل للتحليل السوسيولوجي ولا شك ان هذا النسق يتسم بالتأثير والشمول والقدرة الفائقة .. فنظريته تفسر بناء المجتمع وتغيره وتحليلاته تتطلع إلى آفاق عريضة ودراساته للأنساق

الاجتماعية تستند إلى قاعدة المقارنة .. وهذه كلها خصائص كانت تفتقر إليها الدراسات السابقة عليه»..

والتنظير في المجال الاجتماعي ليس مستباحاً لكل من رغب في الخوض فيه وإنما كل المنظرين الاجتماعيين خلال التاريخ البشري بأجمعه هم أفراد معدودون لا يتجاوزون عدد فريق اشراف فني عند احد المشروعات الانشائية.

فباريتو بهذا التحول لا ينضم إلى حشود العاديين من الناس من النوع الذي تلفظه الجامعات كل عام وإنما يرتقي بذلك إلى ذروة سامقة لم يبلغها من ملايين البشر سوى افراد معدودين يأتي باريتو في مقدمة المحدثين منهم وقد حقق له ذلك اهتمامه المستغرق وموهبته السخية.

فالجامعات في العالم تلفظ كل عام آلاف المحامين والأطباء والمهندسين والمعلمين وغيرهم ولكن قرناً كاملاً لا تنجب فيه الانسانية بأجمعها سوى بضعة أفراد من المنظرين الاجتماعيين وبذلك تدرك قيمة هذا التحول في اهتمامات باريتو.

إن الاهتمام بأوضاع المجتمع هو الذي جعله واحداً من علماء الاجتماع المعدودين وكان ممكناً أن يهتم بجمع المال وأن يصاب بهوس الثروة كما انه كان ممكناً ان يصرف طاقته في مجال الابداع الروائي او الادبي بوجه عام أو يصير من قطاع الطرق فيفسد في الأرض أو يصبح من المهربين أو المهرجين أو من لاعبي الكرة أو من المغامرين في استكشاف مجاهيل الأرض أو الغوص في أعماق المحيطات أو يصبح ممثلاً أو صحفياً أو أي شيء آخر مما يخطر على البال أو ما لا يخطر.

لكنه اهتم بالانسان ونشاطاته والمجتمعات واتجاهاتها وانتهى به هذا الاهتمام المستغرق إلى ابداع نظريات اجتماعية هامة يجري تدريسها في جامعات الدنيا ويتدارس المفكرون والباحثون أفكاره في كل أقطار الأرض..

يرى أن فئة صغيرة في كل المجتمعات هي التي تتصرف بعقل وذكاء انهم أفراد قلائل: «.. يتمتعون بقدرات وكفاءات عالية .. أما الدهماء فهم سلبيون بطبيعتهم وغير قادرين على الارتفاع بأنفسهم»..

يلخص الدكتور أحمد أبوزيد أهم أفكار باريتو في ايجاز بارع في المقالة التي كتبها عنه في «معجم أعلام الفكر الانساني» .. نكتفي منه بقوله: «.. باريتو يرى الإنسان كائناً انفعالياً بطبيعته تتحكم فيه العواطف والانفعالات والمشاعر ولذا يعجز عن تغيير الأوضاع التي تحيط به وكثير

من مظاهر السلوك الإنساني .. مظاهر غير منطقية وغير معقولة».

يتفق مؤرخو علم الاجتماع ودارسو حياة باريتو ان من أهم اسهاماته هي (نظرية الصفوة) حيث يقرر حقيقة يشهد لها التاريخ ويؤيدها الواقع فكل مجتمع يتكون من نخبة تقيم سلوكها على العقل والمنطق والاهداف المرسومة بذكاء .. أما الفئة الكبرى فتمثل عامة الناس وهم في نظر باريتو في كل الجامعات يتصفون بالسلوك التلقائي فهم ينقادون كما تنقاد أسراب الجراد..

أما النخبة أو الصفوة فإن منهم فئة تمتاز بالاندفاع والمغامرة والقدرة الفائقة على الخلق والابداع والاقدام .. فهم سريعون في العمل لكن اخطاءهم كثيرة بسبب تسرعهم واندفاعاتهم تقابلهم فئة أخرى من نفس الصفوة لكنها ،تتميز بالترتيب والميل إلى المحافظة، غير أنها تفتقر إلى روح الابداع.. ومن التفاعل بين فئتي النخبة ينمو المجتمع وتزدهر الحياة ويتحقق التوازن. أما الدهماء فهم طوفان يتحرك بدون وعي ولا بصيرة.

ومفهوم (الدهماء) لا يعني الأميين أو غير المتعلمين كما قد يتوهم البعض وإنما يعني كل من ليس من الصفوة أي كل من لم يبلغ مرحلة النضج حتى ولو كان يحمل أرفع الشهادات ولكن هذه المسألة تحتاج إلى مقال آخر.

كان باريتو من أقسى ناقدي الماركسية وأحدثت كتاباته فزعاً شديداً في صفوف المنظرين الشيوعيين في أوج الجاذبية الماركسية حتى إن لينين اصابه السهاد حين قرأ كتاب باريتو عن (المذاهب الاشتراكية) ولم تعد إليه انفاسه إلا بعد ان كتب رداً مشحوناً بالدفاع عن الماركسية فقد لفت النظر باريتو إلى أن المذاهب الاشتراكية تلعب بعواطف الناس ولكنها لا تصمد للمحاكمة العلمية ولا للتحليل العقلي: «.. إنها تخاطب العاطفة أكثر مما تخاطب العقل»..

ولو عاش باريتو ليرى الشيوعية وهي تتقوض وتنهار في معاقلها الرئيسية ثم يعم الانهيار كل مكان، لتتكشف الأوضاع عن عورات فظيعة لربما كان ابتهاجه عارماً..

في المجلد الأول من (موسوعة السياسة) تلخيص لأهم أفكاره وقد جاء في التعريف به «باريتو مفكر سياسي واقتصادي وعالم اجتماع عرف بنظرية النخبة والجماهير وتطبيقه الرياضيات على التحليل الاقتصادي .. قدم باريتو عمله الأول (محاضرات في الاقتصاد السياسي) وعرض فيه قانونه الشهير حول توزيع الدخل .. وقد توصل باريتو (أخيراً) إلى أن

المعضـــلات الاقتصادية لا يمكن حلها إلا عبر علم الاجتـماع فكتب اهم اعماله وهو (الـفكر والمجتمع) الذي تساءل فيه عن طبيعة الـعمل الفردي والاجتماعي وقواعده..».

أما الدكـتور محـمـد فايز فيتـرجم لباريتو ويستـعرض أهم أفكاره في الجزء الثـاني من كتابه (عبـاقرة الفكر الاجتـماعي) ويتناول فيـما يتناول نظريته عن (الرواسب والمشـتقات) حيث يرى باريتو «بأن المجـتمع يتأثر بعناصر تتكون من مجموع المصـالح والمعارف والرواسب والمشتقات التي تعتبـر قوى توازنية في المجتمع .. وان حـركة (النخبة) هي أساس التـغير الاجتماعي»..

ويختم الدكتور محـمد فايز دراسته عنه بالتأكـيد على أن: «دقة باريتو وتحليله الفريد يجعله بحق من عباقرة الفكر الاجتماعي الكبار»..

وحين نتحـدث عن العباقـرة فيجـب ان نتذكر دائمـاً ان تسـعة أعـشار العبقرية هي اهتمام قوي مستغرق وجهد موصول منظم.

إن الذي يقـــرأ تاريخ العلم والفكر والادب والابداع والاخـتـــراع ويسـتقـصي قصـة الحضـارة ويتأمـل في التحـولات والتطورات يحس بالاشفاق على المجتمعات التي تبـالغ في قيمة الشـهادات ولا يجد لذلك من تفسير إلا أنه عنوان الطفولة الحضارية.

«الرياض» الخميس ٢ ذو الحجة ١٤١٤هـ - ١٢ مايو ١٩٩٤م - العدد ٩٤٥٣

عبقرية الاهتمام

إن معرفة مداخل النفس البشرية هي الخطوة الأولى للتعامل معها وتنشئتها على ممارسة الفعل المتحضر ولكننا حتى الآن نغفل أهم هذه المداخل وهو مدخل (الاهتمام)...

إن لكل جهاز مفتاحاً والذات الإنسانية من أعقد الأجهزة ومفتاحها هو الاهتمام فكيف نثير هذا الاهتمام وكيف نوجهه نحو المسائل الجوهرية وكيف نستنفره ليكون في خدمة النفع العام...؟؟

إن التحولات الكبرى في حياة الأفراد والمجتمعات ما هي إلا تحول في الاهتمامات هذا هو ما يؤكده تاريخ الحضارة ويقره علم النفس وتؤيده كل العلوم التي تناولت بواعث النشاط البشري ودوافع السلوك الإنساني كما تشهد له حياة المتميزين من العلماء والمفكرين والفاتحين والمبدعين والمخترعين والمغامرين والمستكشفين والنابهين في شتى المجالات مما يوفر الاقتناع التام بأن (الاهتمام) هو سبب الفطنة وبأن فقدان الاهتمام هو سبب الغفلة..

إن الإنسان يكون حساساً وشديد الفطنة للأشياء التي تستحوذ على اهتمامه ثم تتدرج نزولاً حدة الفطنة حتى تتلاشى تماماً وتتحول إلى غفلة مطبقة إزاء الموضوعات التي لا تثير الاهتمام..

والناس قد يهتمون بما ينفع وقد يهتمون بما يضر والمجتمعات قد تنشغل بالتنامي وقد تنشغل بالتنافي والفرد قد يشغل وقته بالعمل النافع ويملأ فراغه بالقراءة والبحث عن المعرفة وقد ينشغل بالنميمة والغيبة وبالتفاهات والكلام المعاد.. وكل هذا يؤكد ضرورة الاهتمام بتكوين

الاهتمامات النافعة في المجتمع وبذلك ينصرف الناس تلقائياً عن الاهتمامات الضارة أو الفارغة. فالاهتمام هو حافز السلوك وهو سبب الصعود أو الهبوط ان الاهتمامات هي التي تملأ حياة الناس بالنشاط المثمر أو تملأ حياتهم بالنشاط الضار أو تستهلك طاقتهم فيما لا نفع فيه..

ولو حاول الانسان ملاحظة ذلك في سلوكه وفي سلوك الآخرين لبرز له ان الاهتمام هو الذي يثير انتباه الناس ويوجه نشاطهم ويحدد مسارات سلوكهم ايجاباً أو سلباً.. وعلى سبيل المثال فقد تعرفت في معرض الكتاب الذي اقيم بجامعة الملك سعود قبل شهور على مكتبة بالرياض لم أكن أعرفها من قبل فاعطاني الموظف وصفاً ناقصاً لا يرشد إليها إلا بعد بحث وفيما بعد حاولت العثور عليها في الشارع الذي حدده الموظف وسألت أصحاب المحلات في الشارع نفسه فلم أجد من يعرفها وفجأة لمحت مكتبة صغيرة فأرشدني صاحبها فوراً إلى المكتبة التي أبحث عنها..

إن اختلاف الاهتمام بين المكتبة وبين المحلات الاخرى الكثيرة جعل أهلها لا ينتبهون لوجود المكتبة التي تتوسط محلاتهم رغم أنها مكتبة ضخمة وعليها لوحات نيون كبيرة تنادي عليها تبهر أبصارهم ليل نهار وهم يمرون من عندها غادين رائحين...

أما صاحب المكتبة الصغيرة فإن الاهتمام المشترك قد جعله يفطن بوضوح لوجود المكتبة الأخرى وان يحتل وجودها سطح ذاكرته فلم يكن محتاجاًإلى التذكر وإنما كانت الاجابة جاهزة إلى درجة التوتر...

تسأل موظفاً مهتماً عن موضوع مضى عليه سنوات فتجده مازال ماثلاً في ذهنه وتسأل موظفاً فاتر الاهتمام عن موضوع لم يمر عليه سوى أيام فتجده قد غاب عن ذهنه تماماً...

إن اغفال دور الاهتمام في تنبيه العقل وحشد قوى الإدراك وتوجيه النشاط هو الذي جعلنا نعاني من القحط العلمي والعملي في شتى المجالات..

فالاهتمام هو الذي يثير النشاط وهو الذي يوجهه ويحدد مساره وبمقدار درجة الاهتمام تكون درجة الانتباه من التوقد الشديد إلى الانطفاء التام..

إن الشيء الذي يهمنا هو الذي يثير انتباهنا وكما يقول الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل: «... إن النجاح الأصيل يتوقف على الاهتمام الصادق الأصيل بالمادة التي يتعلق بها العمل...».

فلا يمكن تحصيل العلم إلا بالاهتمام ولا امتلاك المهارة إلا بالاهتمام..

وكل جهد نضطر إليه بدون أن يثير اهتمامنا فإنه سيبقى أثره محدوداً ومؤقتاً وسطحياً...

إن الإنتباه من أهم العمليات العقلية الأساسية ولا يوقظ الإنتباه سوى الاهتمام، فكل شيء لا يكون داخل دائرة اهتمامات الإنسان يبقى غريباً عليه ومنفصلاً عنه..

ولكن هذه الحقيقة الجوهرية لم تنل عندنا أي قدر من الاهتمام رغم اهميتها البالغة في اثارة الطاقة البشرية واستثمارها وتوجيهها لخدمة النفع العام..

يقول الفيلسوف الألماني هيدجر في (نداء الحقيقة): «... إن الأفكار الحقة نادرة .. فالأفكار الأصلية تقدم للإنسان ... توهب له حين يضع نفسه في ذلك الانتباه الحقيقي الذي هو بمثابة نوع من التهيؤ لما هو خليق بالفكر...».

إن حفظ المقرر الدراسي ليس ناتجاً عن الانتباه الحقيقي وإنما هو انتباه اضطراري مؤقت وهو لا يثمر ثمرة يانعة باقية وإنما هي ثمرة مغتصبة من النفس وهي بمثابة شيء تم الصاقه في الذاكرة عنوة وبشكل قسري بينما ان الانتباه الحقيقي هو انبعاث داخلي من أعمال النفس ولذلك تكون النتيجة اندماجاً كاملاً بين الذات والموضوع غير أن هذا الاندماج الكامل لابد ان يسبقه تهيؤ حقيقي فالاهتمام الصادق هو الذي يحقق الاندماج فيحيله إلى دماء تخالط النفس وتذوب في الكيان..

ولذلك جاء في (الموسوعة الفلسفية) بأن «.. الإهتمام مطلب هام في الموقف الابداعي للإنسان ويساعده على توسيع أفقه واثراء معرفته...».

بل إن الاهتمام المستغرق هو المدخل الوحيد إلى الالهام الذي هو منبع الكشوف والابداعات التي أغنت الحياة الإنسانية علماً وفكراً وادباً واختراعاً.. والالهام هو: «... حالة تؤدي إلى أشكال مختلفة من النشاط الإبداعي وتتميز بتركيز كل طاقة الفرد الروحية على ما هو بصدد ابداعه وبسمو عاطفي يجعل العمل منتجاً بطريقة غير عادية...»

إن الأهمية القصوى للاهتمام وتأثيره البالغ على حياة الأفراد والمجتمعات قد جعله مداراً لاهتمام المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء التربية ورجال الاعلام وكل من يعنيهم توجيه الناس أو التأثير عليهم سلباً أو ايجاباً..

إن تنمية العقول أو التلاعب بها ليس لهما من مأتى إلا بخلق اهتمامات جيدة أو رديئة فبحسب اهتمامات الأفراد يكون نجاحهم أو اخفاقهم ووفق

الاهتمامات السائدة في المجتمع يكون حظ المجتمع من التقدم أو التخلف...

يلتقي الأفراد إذا اتفقت اهتماماتهم ويتنافرون إذا تنافرت الاهتمامات وليست أوضاع المجتمعات أو حالة الأفراد سوى حصيلة الاهتمامات التي تستهلك طاقتهم وتوجه نشاطهم وتحدد مسار حياتهم...

ويتضح من ذلك ان أكبر مهمات التربية بكافة مستوياتها هي تكوين الاهتمامات النافعة.. فالناس مقودون باهتماماتهم وهي التي تفتح أو تغلق أبواب الحياة وهي التي تهيىء المجتمعات للإزدهار أو الانحطاط..

ولذلك كانت (الاهتمامات) محل اهتمام الباحثين والدارسين ودعاة الاصلاح والتغيير وقد حاول الاستاذ منير البعلبكي في المجلد الثاني من (موسوعة المورد) ان يلخص تعريفات (الاهتمام) فيقول:

«... الاهتمام مصطلح من مصطلحات علم النفس اختلف الباحثون في تعريفه اختلافاً كبيراً فقال بعضهم: إنه موقف يتميز بالميل إلى شيء ما وتركيز الانتباه عليه وقال بعضهم إنه ما يفعله الناس حين تتاح لهم حرية الاختيار أو ما يقولون انهم يتوقون إلى عمله إذا ما اتيحت لهم تلك الحرية وذهب آخرون إلى القول إن الاهتمام هو النشاط أو الموضوع الذي يختاره المرء من بين بدائل مختلفة يقدمها إليه اختبار ما .. وأياً ما كان فلأشواق الأفرد واهتماماتهم أهمية في التربية لانها المرتكزات التي يستند إليها المربون في وضع البرامج وفي اختيار وسائل التعليم وفي توجيه طلابهم ثقافياً ومهنياً...».

فالاهتمام له دور أساسي في ملاحقة المعرفة وتكوينها وقد تناول أناتولي راكيتوف هذا الدور البارز في كتابه (المعرفة التاريخية) حيث يقول:

«.. كثير من قضايا نظرية المعرفة لا يمكن حلها دون فهم مضمون ووظيفة الاهتمام في ظهور وتطور عدد من الظواهر الادراكية...».

ويرى ان على الفكر الفلسفي وخصوصاً الفكر الايستمولوجي: إن يبرز دور (الاهتمام) باعتباره: «... يلعب دورالمقولة الادراكية الهامة..» فالايستمولوجيا هي الدراسة النقدية للعلم ولذلك لابد ان تهتم بدراسة الأدوات المعرفية..

ويقول: «.. إن كمية ضخمة من الادب النفسي المكرسة لمفهوم (الاهتمام) تحظى بأهمية حقيقية بسبب دراستها نشاط الانسان وعلاقاته مع الاشياء الخارجية التي تشتمل على أهداف...».

ثم يؤكد: «.. إن تعدد الدلالات والسمة التناوبية لمفهوم الاهتمام ترجع

إلى حقيقة أنه واحد من المفاهيم التي تسمى مفاهيم الحزمة..×».

ولأن الاهتمام قضية معرفية فإنها حظيت باهتمام مختلف العلوم باعتبارها أحد المداخل الرئيسية لفهم نشاط الانسان واستنفاره وتوجيهه وتفسيره: «.. ذلك ان الاهتمام كما يقول راكيتوف ـ مثير داخلي هام للمعرفة العلمية فهو يعادل الرغبة الذهنية في البحث والتقصي..».

ويحاول راكيتوف ان يلخص مناقشاته عن مفهوم الاهتمام بتعريفه: «.. بأنه حاجة نفسية للفرد لأشياء وأشكال محددة من النشاط كمصادر للتجارب الانفعالية المرغوبة ووسائل تحقيق الاهداف المنشودة..».

وراكيتوف قد تناول قضية (الاهتمام) من زاوية ايستمولوجية كمدخل للمعرفة التاريخية.. فهو أساساً متخصص بنظرية المعرفة ومن مؤلفاته في المجال الايستمولوجي (تشريح المعرفة العلمية) و(مبادىء التفكير العلمي) و(منطق العلم) و(القضايا الفلسفية في العلم) وهو يعمل رئيساً لقسم العلم الفلسفي في اكاديمية العلوم في روسيا..

إن الحديث عن الاهتمامات هو حديث عن مكمن فعاليات الإنسان من أدنى صور الأداء إلى أرفع التجليات الابداعية .. وبالتالي فإنه حديث عن التقدم والتخلف وعن العاجزين وسبب عجزهم وعن المبدعين ودوافع الابداع عندهم..

فإذا كانت الاهتمامات الرفيعة تؤدي إلى تكريس النشاط للأعمال النافعة كما تؤدي إلى تألق المواهب وربما تؤدي إلى بزوغ العبقرية فإن الاهتمامات الرديئة تؤدي إلى انطفاء المواهب وشيوع الركاكة وتكريس الانحطاط..

«الرياض» الخميس ١٧ ذي القعدة ١٤١٤هـ ـ ٢٨ ابريل ١٩٩٤م ـ العدد ٩٤٣٩.

مؤشرات لقياس وعي المجتمع

لا يقاس مستوى تحضر المجتمعات بما تملك من الأشياء وإنما يقاس بما تمارس من الأفعال ولا يُعرف حظها من الوعي بما لديها من المظاهر وإنما يتجلى ذلك من أسلوبها في التعامل وطرائقها في السلوك..

والإنسان الذي يهمه أن يعرف مستوى الوعي الحضاري الذي يعيشه أي مجتمع يستطيع أن يحصل على مؤشرات كثيرة تساعده على أن يدرك مستوى التحضر في أي مجتمع بملاحظة مقدار نصيبه من التهذيب وبمقدار التزامه بالانضباط الاجتماعي..

كيف يقف الناس مثلاً في طوابير الانتظار وكيف يقودون سياراتهم.. كيف يتعاملون حينما تتعارض مصالحهم.. كيف يتحدثون في الاجتماعات وكيف يتناوبون فرصة الكلام إلى غير ذلك من السمات التي تحدد المرحلة الحضارية التي يعيشها المجتمع..

علماء الاجتماع يشترطون التلاؤم للحياة الاجتماعية السوية يتجلى ذلك في مفهوم (الجسم الاجتماعي) والجسم لابد أن تكون كل أعضائه متسمة بالانضباط والتناغم وإلا فقد صفته الأساسية ولم يعد مجتمعاً بالمفهوم الحضاري وإنما يصير نثاراً غير قادر على الفعل الاجتماعي المتحضر..

إن السمة الأولى للمجتمعات المتحضرة هي الانضباط في الفكر والسلوك .. ومتى غابت عن المجتمع هذه السمة الأساسية فإنه يصبح عاجزاً ليس فقط عن انتاج وسائل الحضارة ولكنه ايضاً يصير عاجزاً حتى عن حسن الاستخدام..

وأبرز الظاهرات الاجتماعية التي تؤكد غياب الانضباط في مجتمعنا

هي ظاهرة حوادث السيارات لأنها ظاهرة مستشرية ومتفاقمة ونملك ازاءها براهين دامغة تدل على اعتلال المجتمع وتؤكد انخفاض مستوى الوعي الاجتماعي ولذلك ينبغي الوقوف عندها طويلاً من أجل بحث الأسباب وتشخيص العلل والسعي الحثيث إلى الحالة السوية..

ومع أن سلوكيات أخرى هي أشد تعويقاً للمسيرة التنموية وأكثر دلالة على انعدام الروح الحضارية البانية إلا أن ظاهرة حوادث السيارات هي من التفاقم والوضوح بحيث لا يستطيع أحد أن يكابر حولها أو يغالط في دلالتها..

عشرة قتلى كل يوم من حوادث السيارات ومائة من المصابين يبقى الكثيرون منهم يعانون من عاهات مستديمة فيظلون عالة على المجتمع..

إنها أرقام مفزعة لو تأملناها لادركنا أننا أمام ظاهرة اجتماعية مستشرية ليست محزنة فقط ولكنها أيضاً مخزية لأنها تكشف عجزنا الذريع عن ممارسة حياة اجتماعية واعية سوية..

إنها حرب على الذات وإزهاق للثروة البشرية الغالية فالمستشفيات تغص دائماً بالجثث والمصابين وحطام السيارات يملأ الأرض والمآسي العائلية تتزايد بشكل مرعب..

إن حوادث السيارات صارت أشبه بالحرب المستمرة تملأ النفوس بالحزن وتصيب البيوت بالخراب وتجلب على الأسر الكثير من الضياع والتيتم وتسلب الوطن احياناً خير ابنائه..

آلاف من الأبرياء تزهق ارواحهم كل عام وأضعافهم يصابون باعاقات مختلفة تلازمهم طيلة الحياة ومعظم ذلك يحصل لاننا نسيء استخدام السيارات فلا نلتزم بالنظام ولا نحترم أصول الحركة ولا نضع باعتبارنا المآسي التي نجرها على أنفسنا وعلى الآخرين منا..

إن مجموع القتلى والمصابين في مجتمعنا من حوادث السيارات هم أضعاف عدد القتلى والمصابين في الحرب الأهلية اللبنانية في أسوأ أيامها ولكننا لا نفطن لفظاعة القتل الجماعي الذي نمارسه ضد أنفسنا بواسطة إساءة استخدام السيارات لأن حوادث السيارات لا تصاحب بتغطية اعلامية بخلاف الحروب أو أحداث العنف التي تتبارى وسائل الاعلام في ابرازها والتفنن في اخراجها وعرضها..

وكما ان العنف الطائش لا يفرق بين الأبرياء والمجرمين فإن حوادث السيارات لا تفرق بين المنضبطين والطائشين فلا يجديك ان تنضبط إذا كنت في مجتمع غير منضبط فعدد كبير من قتلى حوادث السيارات يفاجئهم الموت وهم ملتزمون بالانتظار عند اشارات المرور أو وهم يسيرون ملتزمين بالنظام ولكن ذلك لا يحميهم من قفزات طائشة من

سيارات أخرى يقودها طائشون تهاجمهم وهم غـافلون فتسلب منهم حياتهم بدون جريرة.

والرسم البـياني لمعدلات الحوادث خلال السـنوات الماضية يؤكد انه بمقدار مـا تتحسن الطرق وينتظم جـهد رجال المرور تتضـاعف المأساة.. فالشيء الذي لا شك فيه ان الجهد الذي يبذله رجال المرور في المملكة ليس له مثيل في العالم انهم منتشرون في كل مكان ويجوبون الطرق ليل نهار وقد توفر لهم من كثرة العدد ووفرة الإمكانات ما جعلهم حاضرين في كل موقع وشاهدين لكل حادث.

والطرق عندنا تعتبر من أرقى الطرق في العالم مما يؤكد أن السبب في تفاقم هذه المأساة هو غياب الالتزام بأصول السير مما يحصر المشكلة في فقدان الانضباط الناتج عن ضـعف الوعي.. وهذا يستوجب دراسة المأساة كظاهرة اجتماعية..

ومما له دلالة هامة مـا ورد في حديث اجرته مـجلة اليمامـة مع مدير مرور الرياض العقـيد عبدالكريم عبـدالرحمن الفايز .. حيث كـشف جانباً هاماً من جوانب الظاهرة حين أكد ان المتـعلمين لا يختلفون عن الأميين في ارتكاب المخـالفات وفي فـقدان الانضـباط وفي عـدم الوعي بخطورة هذه الرعونة المستشرية..

وهذا يجعلني أكرر التأكيـد على المسألة الجوهرية التي كررت الحديث عنها في مـقالات سـابقة وهي أن الدراسة الشكليـة ليست أكثر من طلاء سطحي فـــهي لا ترتقي بمسـتــوى الوعي ولا تنمي الفـطنة ولا تؤسس الضمـير الجـماعي ولا تغـرس روح الانتماء.. إنـها تنطوي على فـجوات واسعة غير قابلة للاجتياز. فالخريجون لا يختلفون عن الأميين إلا بالدعاء الأخرق والتعالم الفج والانتفاش الفارغ...

إن التـربية الحـقيـقيـة هي التي تتـولى بناء الإنسان أخـلاقيـاً ليكون منضبطاً في فكره وسلوكـه وليكون صـادق الانتماء رفيـع التعامل ناضج العاطفة منظم التفكير خير الإرادة حساس الضمير..

وهي المســألة التي نبه إليـها الكثـير من المفكرين والمهتـمين بالتنمية البشرية أو الذين لهم عناية برصد التطور الحضاري للمجتمعات ...

فالمفكر الطبيب الفرنسي جوسـتاف لوبون كان واحداً من أسبق الذين فطنوا لهذه الخصـيصـة الجوهرية منذ بداية القـرن العشرين.. ولذلك يرى لوبون ان تحـصـيل العلم يأتي في الدرجـة الثانيـة أو الثالثـة في مكونات الإنسان المتـحضـر بينما يرى أن الاخـلاق الرفيـعة المنضـبطة هي المكون الأول للمجتمعات المتحضرة وهي السبب الأول للازدهار والتقدم..

ويستشـهد لوبون بأن انجلترا كـانت البلد الأول الذي نبتت وازدهرت

فيه الثورة الصناعية ويعيد ذلك إلى روح الانضباط التي يتحلى بها المجتمع الانجليزي..

كما يؤكد ان هذه الروح الانضباطية قد انتقلت من انجلترا إلى امريكا الشمالية حيث يرى أن الامريكي لديه قدرة خارقة على ضبط النفس يصفها لوبون بأنها انضباطية تبلغ حد القسرة..

ولا يتردد لوبون في التأكيد بأن الاخلاق الانضباطية هي السبب الأول للتقدم الذي احرزته الولايات المتحدة الأمريكية .. ويجد بالمقابل ان التخلف الذي ترزح تحت نيره بلدان أمريكا الجنوبية يعود إلى غياب روح الانضباط فأمريكا الجنوبية لا تنقصها الجامعات ولا المتعلمون تعليماً شكلياً ولكنها مع ذلك بقيت متخلفة.. ويقول لوبون: «... إن الخلق من أقوى العوامل المحركة للتاريخ..».

إن الأخلاق هي موجهات النشاط فالاخلاق الجيدة ترفع المجتمع إلى حالة الازدهار أما الأخلاق الرديئة فتنحدر به إلى حالة الانحطاط...

ولذلك يرى لوبون أن سبب التخلف ان الناس في المجتمعات المختلفة غير منضبطين ولا يدركون قيمة الالتزام فهم: «... شديدو الانفعال سريعو التقلب لا يبالي الفرد بغير نفسه ولا يقيمون وزنا لاداب السلوك ويفقد كل واحد زمام نفسه فهم غير قادرين على ضبط اهوائهم..».

هكذا يتجلى ان غياب روح الانضباط هو المظهر الأول للتخلف وهو السبب الجوهري لحدوثه واستشراء مظاهره الأخرى..

إن التخلف بنية معقدة تنتج سمات ثابتة في سلوك المجتمع وتصرفات أفراده فكان التخلف هو السبب وهو النتيجة فالتخلف يؤدي إلى وجود ورسوخ واستمرار الاسباب التي أدت إليه لأن المجتمع يستمر في إنتاج ذاته كما هي دون أي تحسين ما لم يبلغ مرحلة القدرة على الانضباط التام في الفكر والسلوك..

وأوضح الشواهد على الأهمية القصوى للانضباط ما حققته اليابان من ازدهار فائق في كل المجالات رغم صعوبة الأرض وندرة الموارد الطبيعية ولكن اليابان حققت هذا التفوق الباهر بسبب الالتزام الذي يتحلى به الناس هناك والمعروف ان اليابانيين يتميزون بالانضباط الشديد والالتزام الصارم وهذا هو مصدر تفوقهم وهو منبع ازدهارهم..

وهذا يستدعي ان نكرر التأكيد بأن الانضباط لازم رئيسي من لوازم التحضر وأنه السمة البارزة في الشعوب المتحضرة بل ان الكون بأجمعه قد قام على الانضباط من اكبر جرم في السماء إلى اصغر ذرة في الوجود..

الكون كله قد قام على (النظام) فلو ابطأ أي كوكب في سيره أو انحرف

عن مجراه لكانت كارثة كونية، ولكن الله سبحانه قد وضع له نظاماً دقيقاً وحركة مرسومة ومحددة في السرعة والمسار والتوجه..

هذا الكون الهائل المملوء بالحركة يقوم كله على النظام الصارم والانضباط الشديد عشرات المجرات التي لا يتصورها العقل والاف النجوم والشموس والكواكب.. كلها تتحرك بانتظام لا يعرف التقدم ولا التأخر ولا الانحراف إلا بمقدار ما يكون الانحراف جزءاً من تكوينه من أجل وظيفة محددة كتغير الفصول وتناوب المواسم..

ولقد بلغت دقة الحركة وصرامة الانضباط انه يمكن معرفة مواعيد الكسوف والخسوف قبل حصولهما بعشرات السنين..

يقول الدكتور أحمد زكي ـ رحمه الله ـ «.. ليس في العالم إلا شيء يتحرك حتى ما ظهر لنا ساكناً.. كشف عنه العلم فإذا هو يتحرك أشد حركة .. الذرة ميدان حركة دائبة هائلة لا تكاد تعيها الافهام...».

ثم يقول: «.. إنها قوانين .. حيث الأجرام متوحدة فريدة .. وحيث الحركة أصفى ما تكون . ومدبر الكون .. صنع القوانين وأطلقها في الكون لا تشذ .. ثبات هذه القوانين في كل مكان وكل زمان .. هو الأصل الذي جرت عليه الأحداث وتجري في نظام هذا الكون وتنظيمه..».

ثم يتحدث عن الأرض فيقول: «.. لقد انضبط دوران هذا الجرم الأرضي الضخم القائم في الفضاء بلا عمد تقيمه أو سند يسنده .. انضبط إلى حد أن قطبه لا يتزحزح أكثر من ٤٠ قدماً.. وهذا مثل يضرب لايضاح درجة الدقة والضبط التي يسير عليها الكون.. وهذه الدقة ما بلغت الغاية إلا باظهار ما في حركة الكون من ازورار.. وهو ازورار بلغ الغاية من الصغر .. جاء نتيجة قوانين في الكون واحدة دائمة ثابتة..».

وأينما تأمل الإنسان وجد ان الانضباط التام هو القانون الكلي الذي ينتظم الكون والحياة وهو الشرط الأول لازدهار المجتمعات..

ففي مجال الحياة لولا انضباط الخلايا وفق النظام الذي وضعه الخالق سبحانه ولولا الالتزام الشديد في مقدار النمو وفي صرامة الاتجاه لرأيتم العجب في أشكال الأحياء..

تأمل أصابعك إنها متفاوتة في الطول والشكل وفي الوظيفة والأداء بحيث يكمل كل منها الآخر إن بناء كل أصبع قد أنجزته خلايا معينة وهي تتوقف عن النمو والتكاثر متى وصل الأصبع إلى كماله ولو استمرت الخلايا في النمو أو توقفت عن التكاثر قبل أن يبلغ الجسم تمامه لحدثت تشويهات مروعة..

وهذه الخلايا الهائلة في الكثرة والمتنوعة في الوظيفة قد انبثقت من خلية واحدة جامعة ثم توزعت لتبني الجسم بدقة لا تعرف الخطأ

وبصرامة لا يعتريها التقدم ولا التأخر ولا الانحراف..

تصور لو ان الخلايا المكلفة بتكوين الأنف أو العين اخطأت في الاتجاه فجاءت العين مكان الانف أو الأنف مكان العين أو جاء الرأس مكان القدم أو جاء القدم مكان الرأس. ولكن النظام الدقيق الصارم الذي وضعه الخالق سبحانه لنمو الخلايا واتجاهها: قد تكفل بعدم حصول مثل هذا الاضطراب..

لاحظ الشبه بين الأقارب ثم أعلم بأن هذا التشابه قد انتقل بواسطة خلية شديدة الصغر لا تراها العين ولا تحسها اليد ثم تكاثرت بالانقسام وتوزعت عوامل الوراثة على هذه المجموعة الهائلة من الخلايا المتكاثرة بحيث تأخذ كل خلية ما يخصها من وجوه الشبه أو وجوه الاختلاف ولولا النظام المحكم الدقيق الصارم لما حصل هذا..

وحين تنفلت الخلية من هذا النظام الصارم تتحول إلى خلية سرطانية فتفتك بالخلايا السليمة فالعلم يشير إلى أن الأورام السرطانية ما هي إلا خلايا غير منضبطة..

ويستطيع كل فرد أن يلاحظ حالة انضباط الخلايا في جسمه فالانسان حين يتعرض لأي جرح فإن الخلايا تبادر لترميمه فتستأنف التكاثر حتى يلتئم الجرح فإذا اتمت عملية الترميم توقفت عن النمو وصارت في حالة انضباط تام..

وبهذا يتضح ان الأورام السرطانية الخبيثة ما هي إلا نوع من الخروج على النظام الذي وضعه الله سبحانه للحياة والاحياء وهو بتقدير الله تعالى ينجم عن خلل يصيب نظام الخلايا لانها في الحالات المنضبطة السليمة تواصل أداء وظيفتها في وضع انضباطي شديد لكنها احياناً تفقد الانضباط بتقدير العليم الحكيم فتستمر في النمو فتحصل الأورام الخبيثة ويختل نظام الجسم ـ وهذا يؤكد ان نظام الحياة يقوم على الانضباط الشديد والالتزام الصارم..

وهذا القانون الشامل يدل على أن حياة المجتمع لا تستقيم إلا بانضباط السلوك والالتزام الشديد بمعايير الحياة السوية فليس اسوأ من الطيش والرعونة وليس أكثر تعويقاً للمسيرة الحضارية من التفلت وفقدان الانضباط..

«الرياض» ٣/١١/١٤١٤هـ ـ ١٤/٤/١٩٩٤م.

مجتمعات التنافي
ومجتمعات التنامي

الازدهار الشامل هو الثمرة اليانعة للإلتزام بمنظومة متكاملة من الأخلاقيات الفكرية والسلوكية المتحضرة أما التخلف فهو النتاج المنطقي للأخلاقيات المتخلفة الوضيعة فالأخلاق هي محور الفعل الاجتماعي سلباً أو ايجاباً وليس العلم والازدهار أو الجهل والانحطاط سوى النتائج الحتمية للوضع الأخلاقي للمجتمع بالمفهوم الواسع للأخلاق بما يعنيه من شمول لكل النشاط الاجتماعي فكراً وممارسة وتعاملاً..

والادراك العميق لهذا المفهوم الواسع للأخلاق والوعي بانها محور العملية الحضارية يجعلنا ندرك بوضوح شديد المعنى العظيم لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «.. إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق..» فالأخلاق هي ضوابط السلوك وهي موجهات التصرف وهي منبع التعامل وهي محور العلاقات وهي محرك النشاط..

والمجتمع الذي يتصرف بعقل ويتعامل بانصاف ويعمل بتوجيه من المثل العليا والغايات السامية لابد ان يزدهر لأن الفعل الاجتماعي سيكون نشاطاً يتسم بالرشد والفاعلية والتكامل..

إن المجتمع يزدهر بقدر تكامل جهود أفراده حيث يتم احترام كل الجهود والاحتفاء بجميع المشاركات وبالمقابل يتخلف المجتمع بقدر شيوع التنافر فلا احترام لأي جهد ولا رعاية لأي اجتهاد... إن ازدهار المجتمعات المتقدمة لم يهبط عليها غيثاً من السماء وهي مسترخية وعلى الأرائك تجتر الاغتياب وتمارس التجريح وتحمي بالاسقاطات وانما هو ثمرة تكامل جميع الجهود ونتاج كل القرائح فلا اللاحق يلغي جهد السابق ولا الآتي يسخر من انجازات الغابر وإنما كل جديد يضاف إلى المحصول التراكمي الذي يملكه المجتمع سواء كان من انتاج افراده أو من اكتشافات المبدعين

من المجتمعات الإنسانية الأخرى وبذلك تتعاظم النتائج ويستتب الازدهار وهذه هي مجتمعات التنامي أي المجتمعات التي تتكامل فيها الجهود كما يتكامل البناء بتلاحم مجموع اللبنات وكما ينمو الجسم الحي بتلاحم الخلايا..

ولعل أوضح تجسيد لمفهوم التكامل في المجتمع ما يعبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «.. المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً..» وقوله: «.. مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر...». وقوله عليه الصلاة والسلام: «.. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه..» وقوله: «.. من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم..».

لكن من يتأمل أوضاع المسلمين كمجتمعات ويلاحظ سلوكهم كأفراد يجد ان بينهم وبين هذه الأخلاقيات العالية مسافات شاسعة تكاد تصل إلى حد القطيعة التامة وهذا هو السبب الأول للتخلف والعجز والهوان الذي يعاني منه المسلمون في كل مكان فالمعضلة اخلاقية بالدرجة الأولى، فسلوك المجتمع وسلوك أفراده هو الذي يسفر عن نتائج جيدة أو رديئة بحسب نصيبها من الالتزام الاخلاقي.

إن التقدم هو في الأساس تقدم في النظر إلى الإنسان بالمفهوم المجرد ممثلاً في الإنسان الفرد وتقدير جهده واحترام مشاعره والرغبة في اسعاده والعمل على تنمية مواهبه واشعاره بأهمية مشاركته وهذا هو الاكتشاف الأكبر الذي ابتدأت به النهضة الاوروبية ومازالت المجتمعات المتقدمة توليه أكبر العناية والرعاية والاهتمام انه الاكتشاف الاكثر أهمية والأشد تأثيراً والذي كان بمثابة المفتاح العام لكل الاكتشافات الأخرى لانه فجر طاقات الانسان ووجه الجهود نحو التآزر والتكامل والالتحام..

ولذلك يرى الرئيس الأمريكي الأسبق نكسون: إن الذي يميز الحضارة الغربية المزدهرة ليس ما تملكه من امكانات مادية، ولكن ميزتها الاساسية عنده هو أسلوبها في التعامل مع الإنسان واحترام كرامته وحفظ حقه وتنظيم جهده وتمرينه على احترام جهد غيره.. «.. إن الحضارة الغربية ليست شكلاً ولكنها أسلوب .. إنهاالأسلوب الذي تتجه به إلى آفاق الحرية والابتكار وتحقيق الأهداف..».

ومقابل هذا الاسلوب الانساني الذي يفجر طاقات الإنسان وينمي مواهبه ويحترم نتاجه ويكافئه على أي انجاز يحققه ويغفر له اخطاء أجتهاده ويربيه على حفظ حقوق الأخرين واحترام جهودهم.. مقابل هذا نجد في المجتمعات العربية مثلا ان العلاقة مع الإنسان الفرد تقوم على الشك والترصد بشكل يجسد عقلية الصياد البدائية وهي العقلية التي يصورها واحد من أبرز الذين كان لهم شأن في ادارة العمل العام في

العالم العربي..

ويقـول المهندس صدقي سليمـان الذي كان رئيسـاً للوزراء في أحـد العهود السابقة: «... إن البيروقـراطية عندنا أقدر على معاقبة المخطيء (أو من نتـوهم أنه مـخطيء) منهـا على اثابة المجتـهـد ولهـذا فـإن التنظيم البيروقراطي انما يحابي السلوك النمطي غير الأخلاقي...».

ثم يقول: «.. والمشكلة اننا تمادينا في هذا السلوك (المتـرصد) حتى بلغ ابعادا مرضـية بالفعل فقـد ضاعفنا بصورة مـزعجة من عمليـات الرقابة والمراجعة والتحفظ والاحتياط والتقيد والتحذير حتى أصبح الملاذ الوحيد أمام الموظف هو الابتعاد عن العمل بقـدر الامكان تجنباً لاية شبهة خطأ قد تحصل نتـيجة اجـتهاده.. وأصـبح من الشعارات المتـداولة بكثرة: إن من يعمل يخطيء لذلك فإن الأسلم هو الاقلال من العمل إيثاراً للسلامة...».

وإذا كان الفـرد في المجتمعـات الناهضـة يعمل وهو مطمـئن إلى نتائج جهده وآمن على سـمعته فإن الإنسـان في المجتمعات المتـخلفة يعيش في حالة توجس مـستمر ويعـاني من المكابدة النفسيـة المرهقة مهـما بلغ في كـفاءته واخـلاصه ونزاهتـه وتفانيـه بل ربما تتـضاعف معـاناته بقـدر تجسيده لمثل هذه الصفات الرفيـعة لان الانجاز في حد ذاته في المجتمعات المتخلفة يظل تهمـة دائمة وعبئا لا يكف عن ملاحقة صاحـبه فالقاعدون لا يجدون ما يخشون عليه اما الذين ينجـزون أي شـيء في المجتمعاتالمتخلفة فإنهم سـوف يضطرون لاستنزاف طاقتـهم من أجل الدفاع عمـا انجزوه سواء كـان انجازاً في مجـال الفكر أم في مجال العـمل وهذه أدنى دركات التعامل الاجتماعي فتحت مطارقها يتبدد كل جهد ويسقط كل عمل..

المجـتمع النـاهض يعي ان الازدهار لا يتـحقق إلا بتكـامل كل الجهـود وباحترام جميع المبادرات وبالاثابة على كافة الاجتهادات مهما اعتراها من نقص أو خطأ..

أما المجتـمعات المتخلفة فـإنها تخلق النقائص وتصيد العـثرات وتهول الاخطاء وتزهق الانجازات وتصـدر احكاماً جزافية لا تميـز بها بين النافع والضار ولا بين الصـادق والزائف وكأنها تعاني من اعاقة حضـارية فظيعة تحيط كل مسـعى رشيد..

إن الانسان في المجتمعات الواعيـة بقدر ما يكون ملتزما باداء واجباته فإنه يعرف ان كل الآخرين يلتزمون بالاخلاقيات الحضارية التي تحفظ له حقه وتقـدر له جهده وتصون لـه كرامته، فكل الاجـتهادات لها حقـها في الاعتبار والرعاية والاحترام حتى الاخطاء العـملية والاجتهادية تغتفر في المجتمعات الواعية لأنهم يعـرفون ان الخطأ عنصر ملازم لكل عمل بشري والعلم ذاته في اعظم نظرياته ماهو إلا مـحاولات مستمرة من التـصحيح

وتصحيح التصحيح..

أما في المجتمعات المتخلفة فإن طوفان الأهواء لا يدع مجالاً لتقييم أي انجاز ولا احترام أي عمل ولا تقدير أي اجتهاد..

إنه لم يتخلف إلا لأنه مجتمع ينفي بعضه بعضاً انه مهووس في التجريح فهو مصاب بالتآكل بدل التكامل وبالتنافي بدل التنامي وبالالغاء بدل الابقاء وبالهدم بدل البناء.. كل واحد لا يهمه سوى نفسه .. وتحت رغبته الفجة المسعورة في الاستحواذ المادي والمعنوي فإنه يحاول أن يلغي كل الآخرين ويبخس كل الأعمال وينكر كل الانجازات لان هاجس المصلحة العامة يعاني من فتور شديد في النفوس ولأن روح الانصاف قد اصيبت بالعطب .. يصور ذلك أبلغ تصوير الاستاذ محمد عمر العامودي في مقالته التالية:

«..إذا تسلم شخص عملاً جديداً فأول تصريح تسمعه منه انه جاء ليقضي على الفساد الجاثم على قلب الادارة والبيروقراطية التي تعرقل مصالح المواطن ونادراً ما تسمع احدهم يقول انه جاء ليواصل المسيرة أو يبني على جهود سلفه فإذا جاء غيره بعد عمل طويل سمعناه يصدر نفس التصريح ويكرر نفس المقولة.. إنا ذهبت إلى حلاق جديد فأول سؤال يطرحه عليك .. من هذا الذي فعل بشعرك كذا، ثم يعدك بتصحيح كل العيوب التي فعلها سلفه فإذا عدت إلى حلاقك القديم بعد فترة .. وضع يده على رأسه في دهشة وهو يتساءل .. من هذا الذي فعل بشعرك كذا؟... ومثل الحلاق صاحب اي مهنة .. فمن النادر ان يسلم أحدهم بسلامة ما صنعه الذي قبله .. حاول ان تجرب ذلك في حياتك اليومية العادية حتى الطبيب إذا ذهبت إليه تحمل روشتة وصفها طبيب قبله فإن أول نصيحة يقدمها لك هي أن تمزق هذه الروشتة وان ترمي الدواء الذي تحمله في سلة الزبالة وتسمع هذا الكلام من طبيب ثان وثالث .. مشكلتنا في الشرق أن صدورنا ضيقة لا تتسع لنجاحات الآخرين ولذلك نحط على الدوام من أعمالهم ونستهجن أي عبارة طيبة تقال في حق احدهم..».

والعامودي الذي يدلي بهذه المرافعة عند هذا السلوك ويدعونا إلى الترفع عن هذه الممارسة المتخلفة الدنيئة: ليس كاتبا فقط وإنما هو من رجال القانون وله خبرة طويلة في مجال المحاماة..

إنه يتوجع من ضياع جهد المجتمع بهذا التلاغي الاحمق ويهوله عجز الناس عن احترام اعمال غيرهم.. إنها آفة مدمرة لا تسمح بأي انجاز ولا تفسح الطريق لأي اجتهاد..

من الأوهام السائدة الظن بأن ازدهار المجتمعات يتوقف على تعدد

الجامعات وان كل مجتمع متخلف ليس بينه وبين اصلاح شأنه سوى ان يتزايد عدد الخريجين ولم يفطنوا إلى أن القوام الأول للتحضر روح اخلاقية رفيعة تسري في كيان المجتمع كله يتأثر بها سائق الشاحنة مثلما يتأثر بها استاذ الجامعة..

إن التعليم بدون هذه الروح العامة ليس أكثر من طلاء سطحي خارجي لا ينفعل به الفكر ولا يسترشد به السلوك وليست هذه النتيجة العاقر مقتصرة على الذين يدرسون داخل المجتمع المتخلف وإنما حتى الذين يحصلون على شهاداتهم الدراسية من أرقى جامعات العالم المتقدم لا يختلفون احياناً عن الذين حصلوا على شهاداتهم داخل المجتمع ذاته فالدارس القادم من بيئة متخلفة قد يقضي كل سنوات الدراسة الجامعية في أرقى الجامعات العالمية في أحد المجتمعات المتقدمة وقد يواصل الدراسة حتى الدكتوراة ولكنه يعود بنفس الذهن المغلق وبذات النفسية المستأثرة لا يرى رأيه ولا يهتم إلا بمصلحته..

في المجتمعات الناهضة يتربى الناس على احترام كل جهد وانصاف كل مجتهد ولذلك فإن الافراد هناك لا يتوقون إلى النجاح عن طريق التطلع إلى هدم الآخرين ولا بالرغبة في الانتصار عليهم وازهاق جهودهم وإنما يكرسون طاقتهم من أجل تحقيق انجازات اضافية يفوقون بها غيرهم دون أن يحاولوا التقليل من قيمة انجازات السابقين أو النيل من الذين معهم في حلبة السباق فهم يعرفون ان ثمرة كل النجاحات تصب في حقول النفع العام الذي ينعم به المجتمع فاخلاقيات العمل تقوم على التنامي لا على التنافي..

إن الفرد في المجتمعات المتقدمة لا يجعل أمله في النجاح متوقفا على سقوط غيره وإنما يوطن نفسه على تكثيف الجهد وتركيز العمل من أجل ان يحقق لنفسه ولمجتمعه انجازا جديداً يكون لبنة جديدة في صرح بناء المجتمع وقطرة اضافية من مكونات الازدهار فلا يكون بروزه بقدر سلاطة لسانه ولا امتيازه بقدر مقدرته في حشد العيوب لغيره وإنما تتوقف مكانته ونجاحه على ما ينجزه من عمل..

وهذه الروح البانية قد سرت إلى الأفراد من روح المجتمع.. لأن المجتمعات لا تقيم وجودها على الحلم بانهيار المجتمعات الاخرى ولا تؤسس ازدهارها على الأمل بانحطاط غيرها..

أما المجتمعات المتخلفة فإن الناس فيها حين يتطلعون إلى أن يكون لمجتمعاتهم مكانة محسوبة لا يكون ذلك بالعزم على العمل الجماعي الصادق ولكنهم يحلمون بأن يتحقق ذلك حينما ينهار هذا المجتمع المتفوق

أو ذاك أو عندما تتدهور هذه الأمة الناهضة أو تلك فقد انهار الاتحاد السوفياتي وانهار معه المعسكر الشرقي وليس بعيدا في نظرهم ان ينهار الآخرون أيضا وفي هذا اغفال للفروق الجوهرية بين نظام مغلق ينخر به العطب وبين نظام مفتوح يملك جهازاً معرفياً يصحح به ذاته وهو الفكر النقدي الذي ينشد البناء وليس الهدم ويروم التنامي وليس التنافي..

أمل الصعود في المجتمعات المتخلفة لا يكون على أساس الرقي بالعمل والتقدم بالجهد وإنما يكون على أساس التطلع إلى انهيار المجتمعات الأقوى.. أما على مستوى تزاحم وتنافس الأفراد فإن انعدام المروءة قد انحدر إلى الصورة الوضعية التي ألمح إليها الاستاذ العامودي..

إنها عقلية متشنجة وعاجزة لا تنهض بنفسها ولا تتطلع إلى الصعود بجهدها وانما تعتبر النجاح هو ان ينحدر الآخرون ليستقروا جميعاً في قاع التخلف..

والوباء الأخلاقي الذي اشار إليه المحامي العامودي ليس على مستوى العامة فقط وإنما هو وباء عام لم تسلم منه حتى الصفوة وهي مأساة أخلاقية مخزية تثار ضدها المرافعات ولكن بدون جدوى وعلى سبيل المثال فإنه قبل سنوات كتب الدكتور أحمد ابراهيم الفقيه مقالاً عما اسماه «.. الهجمة الشرسة على رموز الفكر والثقافة» في الوطن العربي وقال:

«.. نحن نملك هذا العشق العربي لتدمير أنفسنا.. لابد أن نطفيء كل نجمة تضيء في سمائنا.. نقطف كل وردة تعبق عطراً وحناناً في حدائقنا، نقطع كل شجرة تضيف لوناً أخضر إلى صحرائنا.. نحطم كل شيء يزين ميادينا، ننثر الرماد فوق كل وجه يضيء حياتنا..».

ثم يقول: «.. هوس عجيب وغريب بايذاء الذات.. هوس لا ادري من أين جاءنا فجذورنا بريئة من هذا الأفق الضيق الذي يستعدي الأرض والسماء على كل شيء لا يكون مرآة لذاته!!! في أدراجنا تهمة جاهزة (لجميع الناشطين) وهذا يسيء إلى عقل الأمة وإلى كبريائها وكأنها أمة عقيمة وإذا ولدت فهي لا تلد إلا مخلوقات ممسوخة مشوهة..»

وبسبب هذه الأخلاقيات الرديئة لا يُحترم ذو علم ولا يصغى لذي رأي ولا يقدر ذو خبرة وإنما الكل يرى انه أهل لاصدار الأحكام القاطعة على كل شيء ولهذا السبب اجدبت مواقع العمل من الابداع وأمحلت الأمة من المواهب..

ولا يصبح اتقان الأداء مطلب الجميع إلا إذا صارت المهارة والاتقان والنجاحات العملية من القيم التي يحفل بها كل المجتمع أي إذا اصبح المجتمع يكافيء الناجحين في كل مجالات العلم والعمل ويقدم لهم ما

يستحقون من التبجيل والاحترام والمكانة والمكاسب المادية والمعنوية التي تتناسب مع نجاحاتهم..

إن المجتمع لا ينمو ويزدهر ويتوفر له الرخاء والوفرة والتمكين الا بقدر ما تتجه طاقة جميع أفراده لهدف عام موحد حيث يشعر كل فرد بأهمية دوره في المجتمع ويستعد الجميع لاحترام العمل الجاد المتقن المتسم بالنزاهة والاخلاص..

ولا يتم ذلك إلا بالتربية الأخلاقية الصارمة التي تملأ الجميع بالولاء للخير العام مما يجعل كل النفوس تفيض بالفضيلة والحماس والفعالية ونشدان التفوق للأمة وليس للفرد..

والنقطة الجوهرية التي ينبغي أن تكون حاضرة في أذهان الجميع وان تكون محور سلوكهم ان يدركوا انه يستحيل على أي مجتمع ان يتقدم إلا إذا صار هو بمثابة بناء متراص متكامل منسجم الاجزاء متماسك اللبنات وان يقتنعوا ان اختلال أي لبنة في البناء يؤدي إلى تخلخل كامل البناء أو سقوطه..

فلابد أن يقتنع كل فرد بأن نجاح أي شخص آخر في المجتمع هو نجاح للجميع وبأن فشل أي مواطن هو فشل للكل فيجب ان نفرح جميعاً بأي نجاح لأي واحد منا وان نغتم لأي فشل يتعرض له أي فرد في المجتمع فالازدهار هو مجموع نجاحات أفراد المجتمع بينما التخلف هو محصول مجموع الاخفاقات..

لذلك لابد ان ندعم أي نجاح بدافع الاقتناع التام بانه نجاح لنا جميعاً وان نحاول ان نجنب أي فرد في المجتمع كل أسباب الاخفاق لأن الاخفاقات الفردية هي اخفاق لنا جميعاً وبهذه النظرة البنائية المتكاتفة يتكامل الجهد ويتناغم التوجه..

إن نجاحات أفراد المجتمع تشبه قطرات المطر.. تتجمع وتتحد فتتحول إلى نهر عظيم يمثل مجموع طاقة الامة وإن اخفاقات الأفراد تشبه الشقوق والمغارات التي تبتلع ينابيع الجهد وتجفف روافد العمل فيتلاشى التيار وتضمحل القوة..

لا بد ان نتربى على اعلاء اهتماماتنا فنتجاوز اهواء الذات إلى مطامح الأمة ونؤثر مصلحة الوطن على رغبات الذات ونغلب على نوازع النفس فنوجه الجهد للخير العام ونتقي جنوح الاهواء فنلتزم بالاستقامة ونخضع للحق ونؤدي الواجب ،نتحلى بالانصاف وبدون ذلك لا تقوم حضارة ولا تنهض أمة ولا يزدهر وطن..

«الرياض» الخميس ١٩ شوال ١٤١٤هـ - ٣١ مارس ١٩٩٤م - العدد ٩٤١١.

انطفاء الحس الحضاري

الذي يقرأ حياة النابهين عبر التاريخ العربي.. يظهر له واحد من أعتى أسباب التقهقر الذي صاحب هذا التاريخ .. والأفول السريع الذي أعقب ذلك البزوغ الذي خطف أبصار الدنيا وأذهل العالم..

كان بزوغاً شديد التوهج .. وكانت روحاً انسانية بالغة السمو والشفافية أهلتْ من السماء وكانت مهيأة لتكوين مجتمع إنساني رفيع التعامل لا يعرف الاثرة ولا يتخبط في رذائل الحسد والحقد والتربص..

لكن قبل أن تترسخ قيم الإسلام العظيمة في النفوس انتفضت شراهة الإنسان .. وراحت تتلمض لتعيد قيم الانانية والاثرة وغمط الحق..

كانت نكسة فظيعة ظلت ترافق حياة كل الأجيال بل صارت مع التراكم .. شديدة الوطأة بالغة التعقيد..

إن هذا التراجع المشين .. يظهر أشد ما يظهر في المرارات التي عاناها النابهون في مجتمع يضيق بالنباهة ولا يدرك قيمة النبوغ..

يتجلى ذلك في اضطرار الجاحظ إلى اخفاء نبوغه بعض الوقت اتقاء للحسد وتأجيلاً للمنابذة .. حتى يضمن اضطرار الخصوم إلى الاعتراف بهذا النبوغ .. وهذه اسوأ كارثة تحيق بأي مجتمع .. لأن النابهين هم صناع الحضارة .. وهم بناة الازدهار .. لذلك تتضاءل فرص التقدم لأي مجتمع يقدر التضاؤل المتاح للنابهين..

وإذا كان الجاحظ يتقي شر الحساد بتأجيل دلالات نبوغه .. فإن المتنبي عاني من المرارات التي جلبها عليه نبوغه .. حتى لقد لقي حتفه بسبب هذا النبوغ وبسبب اعتزازه بنفسه .. وسخريته من الغباء المستشري المحيط به .. وبرمه من النذالة الشائعة التي تخنق الأنفاس..

وإذا كان الجاحظ .. قد عرى النفوس القميئة نثراً بأسلوبه الساخر الرفيع .. وإذا كان المتنبي قد سجل هذا العري الاخلاقي في أشعار بلغت الروعة في جودة الصناعة .. وبلغت الابهار في دقة التشخيص .. فإن ابن خلدون لم يكن أقل احساساً بشناعة العلل التي اصابت المجتمعات الإسلامية .. كما لم يكن أقل توفيقاً في وصف الدواء..

وتجد نفس المستوى من الاحساس بالفجيعة .. لدى الامام أبي حامد الغزالي .. والامام ابن حزم .. وغيرهما من الأفذاذ الذين ضاق بهم المجتمع فاضطروا إلى اعتزاله والابتعاد عنه طلباً للسلامة من شروره .. فتفرغوا بذلك للعلم والتأليف .. فكان تفاهة اهتمامات المجتمع .. كانت من عوامل التحدي والتحريض لإشعال الطاقات الابداعية لديهم .. كنوع من التعويض .. أو ملجأ للسلوى .. أو ملاذ عن أذى المجتمع وشرور الناس .. يصور ذلك أبلغ تصوير الامام ابن حزم حين يقول:

«.. لقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة ولو لا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف..».

فاعتزال الناس والانشغال بالعلم هو الحل الوحيد النافع .. ذلك ان مخالطة الناس لابد ان تجر إلى التنافر معهم لان مخالفة الناس أو معارضة الراي السائد تجلب على الإنسان ـ كما يقول ابن حزم: «.. الأذى والمنافرة والعداوة».

إن حرقة الألم التي عاناها الافذاذ في المجتمعات العربية مؤشر واضح إلى العلة التي كانت سبباً للإنهيار..

يقول الأستاذ محمود عوض: «.. إن التاريخ هو بالضرورة سجل بسلوك البشر .. وإذا لم يكن هذا السلوك في الماضي محلاً للدراسة والفهم والفحص والتأمل فإننا نصبح مهددين بعدم الاتجاه إلى مستقبل أفضل..

وابن حزم ولد وعاش في ظل خطر يهدد الدولة الإسلامية في الاندلس..

خطر التفكك والانقسام .. خطر الانهيار من الداخل .. وهو ما حدث فعلاً فيما بعد..».

«.. لقد كان عيب ابن حزم في رأي معاصريه أنه: لا يزف أراءه بتدرج ولا يلطف بما عنده من تعريض .. (لذلك) لا نستطيع ان نفهم سقوط الاندلس بغير ان نفهم ابن حزم..».

نجد مصداق ما يقوله محمود عوض .. بما ورد في (مداواة النفوس)

للإمام ابن حزم عن اخـلاق مجتمعه: «.. من امـتحن بأن يخالط الناس فلا يلق بوهمه كله إلى من صحب ولا يبن منه إلا على أنه عدو مناصب ولا يصبح كل غـداة إلا وهو مترقب من غدر إخـوانه وسوء معاملتهـم مثل ما يترقب من العدو المكاشف .. إن بعض من خـالصني المودة واصفاني إياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضا .. تغير على اقبح تغيير بعد اثني عشر عاما متصلة في غاية الصفاء ولسبب لطيف جـداً مـا قدرت قط انه يؤثر مـثله في أحـد من الناس ومـا صلح لي بعدها ولقـد همني ذلك سنين كثيـرة هماً شديداً .. (إن التـعامل مع الناس) طريق وعرة المسلـك شاقة المتكلف يحـتاج سالكهـا إلى أن يكون أهدى من القط وأحذر من العقعق...».

بل ويبلغ به التـوجس من الناس إلى حـد سحب الثـقـة من كل البشـر فيـوصـي الإنسـان أن يكتم سره حتـى عن أخلص اخوانه واخص الناس به فيـقول: «لا تفش إلى أحد من اخـوانك ولا من غيرهم من سـرك ما يمكنك طيه بوجـه ما من الوجـوه وإن كان أخص الناس بك .. ولا تأمن أحـداً على شيء من أمرك تشـفق عليه إلا لضـرورة لابد منها .. فإن ذوي التـراكيب الخبيثـة يبغضون لشدة الحسـد كل من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم...».

ومن واقع ملاحظته للناس ومراقبته لسلوكهم ينتهي إلى أن: «.. الناس في أخلاقهـم على سبع مراتب .. فطائفة تمدح في الوجـه وتذم في المغيب وهذه صفة أهل النفاق من العيابين وهذاخلق فاش في الناس غالب عليهم .. وطائفة تـذم في المشهد والمغـيب وهذه صفـة أهل السلاطة والوقـاحة من العيابين .. وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع .. وطائفـة تذم في المشـهـد وتمدح فـي المغـيب وهذه صـفـة أهل السـخف والنّواكة...».

كما لاحظ: «ان الطمع سبب إلى كل هم .. فنجـد الإنسان لا يهتم لإنفاذ غيرة امور بلده .. حتـى إذا حدث له مطمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والغيظ أمر ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه...

فالطمع إذن أصل لكل ذل ولكل هم وهو خلق سـوء ذميم وضده نزاهة النفس وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم..

نزاهة النفس متركبة من هذه الصـفات فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفـات المضادة لهـذه الصفات الأربع وهـي الجبن والشح والجور والجهل والرغبـة طمع مستوفي متـزايد مستعـمل ولولا الطمع ماذل أحد لأحد...».

إن كتاب (مداواة النفوس) للإمام ابن حزم هو أشبه ما يكون بالمذكرات أو الخواطر اليومية ولذلك فإن فقراته لا تأتي على نسق منطقي وإنما هي حكم ووصايا كل منها مستقلة عن الأخرى .. فهو ثمرة تجربته خلال عمره كله .. وأهم ما نستخلص منه .. ان الحسد المستشري .. والأنانية المفرطة قد رافقتا التاريخ العربي .. لوأد النباهة واطفاء اشراقات النابهين.. ولذلك تعود كل فرد في المجتمع العربي على محاربة أي عمل نابه .. والضيق بأي قدرة بازغة .. فلا يحتفي بأي عمل ولا يصان أي جهد .. ولذلك يستحيل أن يتكون في المجتمع طاقة عامة بانية .. فطاقة البناء تحتاج إلى بيئة حانية تسمح بالنمو والامتداد والتجدد..

وكتاب (مداواة النفوس) للإمام ابن حزم يؤكد هذه الظاهرة العربية أبلغ تأكيد .. لذلك نكمل المقال ببعض النصوص ذات الدلالة الواضحة في هذا الاتجاه:

○ إذا نصحت .. فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك تنفير..

وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ولعلك مخطيء في وجه نصحك فتكون مطالباً بقبول خطئك وبترك الصواب .. بعض أنواع النصيحة يُشكل تمييزه من النميمة .. فالتخلص من هذا الباب صعب إلا على ذوي العقول والرأي العاقل..

فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة لا مؤد حق أمانة واخوة..

○ لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين إلا سبباً للقطيعة .. لان هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طلب حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً.. فإذا اجتمع طلب كل امرىء حظ نفسه .. وقعت المنازعة ومع وقوعها فساد المروءة.. واسلم المصاهرة مغبة مصاهرة الأهلين بعضهم بعضاً لأن القرابة تقتضي العدل وإن كرهوه لأنهم مضطرون إلى ما لا انفكاك لهم منه من الإجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل أحد الذب عنه والحماية له..

○ الأصدقاء لا يكتسبون إلا بالحلم والجود والصبر والوفاء والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعليم العلم وبكل حالة محمودة..

○ عيوب الاستكثار (من الأصدقاء) وصعوبة الحال في إرضائهم ... (تجعل) السرور بهم لا يفي بالحزن المحض من أجلهم...

○ المتآلفون على النيل من أعرض الناس بعضهم ينال من بعض..

○ الحمق .. ضد العقل .. ولا واسطة بين العقل والحمق إلا السخف وحد السخف هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه في دين ولا دنيا ولا

حميد خلق .. ولكنه من هذر القول وفضول العمل..

وأما أحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره أو عيب أو ما عداه والتحيل في إنماء المال وبعد الصيت وتسبيب الجاه بكل ما امكن من معصية ورذيلة فليس عقلاً..

○ الوفاء مركب من العدل والجود والنجدة...

○ أصول الفضائل كلها أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل .. والفهم .. والنجدة .. والجود..

○ أصول الرذائل كلها أربعة عنها تتركب كل رذيلة وهي: الجور .. والجهل.. والجبن.. والشح..

○ الامانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود..

○ النزاهة في النفس فضيلة تركبت من النجدة والجود .. وكذلك الصبر..

○ الحلم نوع مفرد من أنواع النجدة..

○ القناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل..

○ الحرص متولد عن الطمع والطمع متولد عن الحسد والحسد متولد عن الرغبة والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل ... ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الذل والسرقة والغضب والزنا والقتل والعشق والهم والفقر...

○ لا شيء أقبح من الكذب .. والكذب متولد من الجور والجبن والجهل لأن الجبن يولد مهانة النفس والكذاب مهين نفسه بعيد عن عزتها المحمودة..

○ الناس في كلامهم .. ينقسمون أقساماً ثلاثة: أحدها من لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل وهذا هو الأغلب في الناس والثاني ان يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق ودافعاً لما توهم انه باطل غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجا فيما التزم وهذا كثير وهو دون الأول والثالث واضع الكلام في موضعه وهذا أعز من الكبريت الأحمر..

○ الناس فيما يعانونه كالماشي في الفلاة كلما قطع أرضاً بدت لـه أرضون وكلما قضى المرء سبباً حدثت له أسباب...

○ إن لم يكن بد من إغضاب الناس أو اغضاب الله ـ عز وجل ـ ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق..

○ وعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب فمن وعظ بالجفاء

والاكفهرار فقد اخطأ وتعدى طريقته صلى الله عليه وسلم وصار في أكثر الأمر مغريا للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجاً وحرداً ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكأنه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة.

○ يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف..

○ الفاضل يود لو كان الناس فضلاء، وترى الناقص يود لو كان الناس نقصاء .. وكل ذي مذهب يود لو كان الناس موافقين له..

○ من عجائب الدنيا قوم غلبت عليهم آمال فاسدة لا يحصلون منها إلا على أتعاب النفس عاجلاً ثم الهم والإثم آجلاً كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس .. فلو تمنى الخير والرخاء لتعجل الأجر والراحة والفضيلة .. فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة..

○ من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه فإن اعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الاخلاق الدنيئة فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن انه لا عيب فيه فليعلم ان مصيبته إلى الأبد وانه اتم الناس نقصاً واعظمهم عيوبا واضعفهم تمييزا وأول ذلك انه ضعيف العقل جاهل ولا عيب اشد من هذين لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته واما لانه يقدر ان عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض..

○ إعلم يقيناً أنه لا يسلم إنسي من النقص حاشا الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط وصار من السخف والضعة والرذالة والخسة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الارذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الاعجاب بها وعن عيوب غيره التي لا تضره في الدنيا ولا في الآخرة..

وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلاً والواجب اجتنابه..

فإن اعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك وفي أضاليل الأماني الطائفة بك فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ..

إن اعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك واصاب غيرك واخطأت انت .. والاغلب ان خطأك اكثر من صوابك وهكذا كل احد من الناس بعد النبيين...

○ الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله..

وقد شاهدت أقواماً ذوي طبائع رديئة وقد تصور في أنفسهم الخبيثة ان الناس كلهم على مثل طباتعهم لا يصدقون اصلاً بأن أحداً هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوأ ما يكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن كانت هذه صفته لا ترجى له معافاة أبداً..

○ الظالم إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل وانكر الظلم حينئذ وذمه ولا ترى أحداً يذم العدل..

○ الاستهانة نوع من أنواع الخيانة إذ قد يخونك من لا يستهين بك ومن استهان بك فقد خانك الإنصاف..

○ لا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلا عن قوة عقل فاضل..

○ العرض أعز على الكريم من المال..

○ لا يكره الغبن في ماله ويستعظمه إلا لئيم الطبع رقيق الهمة مهين النفس..

○ رب مخوف كان التحرز منه سبب وقوعه ورب سر كانت المبالغة في طيه سبب انتشاره .. وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال..

○ الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم .. حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه..

○ الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع..

○ من العجائب ان الفضائل مستحسنة ومستثقلة والرذائل مستقبحة ومستخفة..

○ من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه في مكان خصمه فإنه يلوح له وجه تعسفه..

○ لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه..

○ غاية الخير ان يسلم عدوك من ظلمك..

○ محن الإنسان في دهره كثيرة .. وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس..

○ داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعي الضارية..

○ الغالب على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم..

وهكذا ننتهي إلى أن معضلات المجتمعات الإسلامية كانت ومازالت معضلات اخلاقية .. نجمت عنها تشوهات في السلوك وعطب في الضمائر وانطفاء في الحس الحضاري على هذا النحو الشائن..

«الرياض» ٢٦/٩/١٤١٣هـ - ١٩/٣/١٩٩٣م.

الاعتدال ذلك السلوك الرفيع

ظاهرة مبهجة حقاً .. أن يشيع التدين بين الشباب والفتيات وأن يكون الالتزام هو السمة الغالبة بين الجميع .. ويكتمل الابتهاج حين يقوم هذا الالتزام على: «.. الايمان الذي عماده الفكر والفطنة..» وسمته النضج والاعتدال..

فما أعظم ان يكون الإنسان ملتزماً ومتديناً منذ بواكير شبابه .. ذلك ان هذا الالتزام المبكر هو الدليل الأكيد على النضج العقلي المبكر..

إن التزام المسلم بالنهج الديني منذ بداية حياته .. هو كسب عظيم له وهو ربح كبير لامته .. لأن الذي يلتزم بالخط الالهي ابتداء لا يتعرض لضياع العمر ولا يتبدد جهده بين شتات الأهواء واعاصير التيارات بحثا عن بدايات الطريق..

نعمة كبرى أن يولد الانسان في بيئة اسلامية .. ونعمة كبرى أن يتوفر لديه الوعي والاقتناع منذ بواكير حياته وان تتحدد له معالم الطريق منذ ان يصبح قادراً على التفكير والتأمل والمقارنة..

الإنسان مخلوق لهدف محدد .. وهو الإيمان بالله تعالى واخلاص العبادة له ولكن حين يتوه الإنسان عن هذا الهدف الأساسي لوجوده .. تكون خسارته فادحة ويكون مصابه شديد الفظاعة.

إن الامتحان الاساسي في الوجود .. هو ان يحدد الإنسان موقفه من قضية الوجود الأساسية فإما ان يؤمن ويلتزم .. وإما أن يتذكر فيتوه .. ونتائج الإمتحان ليست انتقالاً من صف إلى آخر.. أو البقاء سنة أخرى في نفس الصف..

ولكنها بمثابة حسم قاطع لمصير عظيم في حياة أبدية ليس لها من

نهاية .. ليس لنعيمها طرف .. وليس من عذابها فكاك .. ربح عظيم تعجز الكلمات عن وصفه .. أو خسارة فادحة لا تستطيع اللغة ان تصور بشاعتها .. فالنعيم المقيم الذي سيؤول إليه المؤمن فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وذروة النعيم رؤية خالق الكون وبارىء الوجود .. وليس يخطر على بال انسان نعمة أكبر من أن يرى الله عياناً..

ما أتفه اهتمامات الناس حين نقارنها بمغزى الوجود.. وما احقر ما يتنافس عليه البشر .. حين توضع امام المهام العظيمة التي خلقوا من أجلها .. كل لذات الدنيا .. تعتبر تافهة أمام حلاوة الايمان .. وكل مباهج الحياة تعتبر هزيلة وحقيرة امام برد اليقين..

لذلك ينبغي أن نحمد الله تعالى على نعمة الإسلام .. وان نسأله المزيد من رسوخ الإيمان وثبات اليقين .. وان نلتزم دائماً بالاعتدال في كل شأن من شؤون الحياة..

ما أشد ظلمة الحياة حين يهتز الايمان .. وما أبأس الوجود حين يضعف اليقين .. وما أثقل الزمن حين تنقطع الصلة بخالق الوجود..

إن الحياة تصبح شديدة التفاهة حين تنحصر في مطالب الجسد .. فلولا الايمان بالله لكانت الحياة حقيرة تافهة ولولا اليقين بلقائه لكان الوجود عديم المعنى مفقود الهدف.

- فكيف يطيق الانسان حياة خالية من المعنى.. وكيف يرضى بوجود ليس له أي هدف..؟!

بالايمان بالله تكتسب الحياة أهميتها العظيمة .. وباليقين بلقائه، يجد الإنسان مغزى الوجود وحافز العمل.

ومن حظ هذا الجيل أنه يعيش فترة انحسار هجمة الالحاد .. وانه يشهد انبلاج عهد العودة إلى الايمان فلم يلحق بتلك الفترة الكئيبة التي صاحبت المد الالحادي في الوطن العربي وفي العالم كله .. ولم يدرك الهجمة الرعناء التي استشرت في العالم كله حيث كانت كلمة الحق كليلة واهنة .. وحيث كان صوت الباطل يزأر صاخباً.. يروج الالحاد وينشر الفتنة ويصد عن سبيل الله..

ولكن مادام أن التدين والالتزام صار هو السمة الغالبة لدى معظم الشباب .. فإن الذي ينبغي الاهتمام به هو ترشيد هذا التدين وتوجيهه نحو الاعتدال..

فالشباب بطبعه مندفع .. ومشبوب العاطفة وهو بحاجة إلى أن يستفيد ممن هم أكبر منه سناً وأوسع منه تجربة .. ليتجنب الافراط والغلو والاندفاع غير الرشيد..

إذا تجاوز الشيء حده انقلب إلى ضده .. ومن هنا كان الخوارج من

فـرق الضلال رغم كـثرة عـباداتهم وشـدة اندفاعـهم في التدين .. وقد وصفـهم الرسول صلى الله عليـه وسلم للصحـابة .. فـقال: يحقـر أحدكم صلاته عند صلاتهم ومع هذا التعبد الملحف .. فقد وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

ولذلك تعجب ابن عباس حين ذهب إليـهم لمناظرتهم حيث رأي جباههم قد تقرحت من أثر السجود..

الرسول صلى الله عليه وسلم اكثرالخلق ادراكاً لمخاطر الغلو .. ولذلك حذر الأمة مـن الشطط ودعاها إلى ان تلتزم الاعتـدال .. وفي أحد المواقف أبدى غضبه عليه السلام من الافراط .. فقال:

هلك المتنطعون .. كررها ثلاثاً.

وقال: يسروا ولا تعسروا .. وقـال: إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا..

وقال عليـه الصلاة والسـلام: إن هذا الدين متين فأوغل فيـه برفق .. وحين علم صلى الله عليه وسلم بما اعتزمه ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم .. حيث قـال أحدهم أنا أصوم الدهر .. وقال الآخر أنا اعـتزل النساء فلا اتزوج وقـال الثالث انا أقوم الليل ولا انام .. نهـاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: إنما أنا أصـوم وافطر وأقوم وأنام وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني.

ومن آيات الله البـينات في سورة المائدة يقول الله تعـالي: ﴿.. يا أهل الكتاب لا تغلـوا في دينكم غير الحق..﴾ وفي سـورة النساء يقـول تعالي: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق..﴾.

فالسلوك الإسلامي الرشيد هو السلوك الذي يلتزم بالاعتدال ويتجنب الغلو ويبتعد عن الإفراط .. ويخلو من التنطع..

المسلم .. يفتـرض فيه ان يكون قـمة في الوعي وحـسن الخلق وصدق القول وصـفاء القلب ونقـاء الظاهر والباطن.. واسع الأفق رحب التـصور مستنير العقل.. يصـغي لآراء الآخرين ويتحمل اخطاءهم .. ويدرك أنه مثل غيره من الناس .. ليس معصوماً عن الخطأ ولا مبرأ من النقائض..

الأخـلاق الإسلامـيـة تطالب المسلم بأن يكون قـمة في عـلمه وعـمله وسلوكـه .. لا يتواني عن تـقديم الخـير وبذلك النـفع وتأييد الحق وفـعل الفضيلة..

السلوك الإسلامي المتسم بالوعي هو الذي يضمن لنا الحياة السـعيدة في الدنيا والفوز بالحياة الآخرة..

إن الالتزام بالسـلوك الإسلامي المستنيـر هو الذي يتيح للمـسلمين ان يتخـطوا حالة التخـلف التي تعيـشها أغلب الشـعوب الإسـلاميـة .. فأي

انحطاط يصيب الأمة في مجال الاقتصاد أو الصناعة أو غيرهما من جوانب الحياة العامة فإن ذلك يصرف الناس عن الإسلام ويصدهم عن الحق لأن الناس يقيسون العقيدة بمعتنقيها..

لذلك فإن كل مسلم مطالب بأن يعطي القدوة الصالحة في سلوكه .. ولكن حين يكون المسلم متعلماً فإنه مطالب بأن يقدم النموذج الأمثل للمسلم الحق ليس في السلوك فقط وإنما في يقظة الضمير ودقة العمل واصالة الفكر ونضجج الوعي واستنارة العقل ورحابة الصدر واتساع الثقافة وتقبل الحوار..

الحوار هو الوسيلة المثلى للاستنارة العقلية.. والاصغاء إلى مختلف الآراء هو الطريق الصحيح لتكوين الوعي العميق المتسم بالشمول والتنور..

لذلك كان علماء السلف وفقهاء المسلمين .. يعتنون أشد العناية بتعلم أسلوب الحوار والالتزام بآداب الاختلاف..

فحين تختلف مع مسلم آخر فينبغي ان تفترض ان لوجهة نظره نصيباً من الحق لا يقل عن النصيب المفترض لوجهة نظرك..

لقد اعتاد الكثير من الناس على تجريح من يخالفهم في الرأي أو من لا يتفق معهم على بعض المسائل .. وهذا مسلك خطير .. لانه ينشر التشكيك ويورث البغضاء ويبث الفرقة ويعمق الجروح النازفة..

كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله .. وفي السنة النبوية المطهرة تأكيدات متواترة على ضرورة احترام اعراض الناس وفيها تحذيرات شديدة من الولوغ في الأعراض أو التعرض لها بالتجريح أو الانتقاص..

عرض المسلم أغلى عليه من ماله .. وسمعته أثمن عنده من كل ما تحتويه الأرض .. ومع ذلك يتحرج الناس كثيراً من المساس بالاموال .. لكنهم لا يتورعون عن تلويث اعراض الابرياء أو التعريض بسمعة الشرفاء .. وهو تناقض غريب لا يسيغه المنطق ولا يقبله العقل ولا يرضاه الخالق الكريم..

إن هذا التناقض الفظيع ناتج عن خلل شديد في التربية .. فنحن نتربى على احترام أموال الناس .. ولكننا لا نتربى بنفس القدر على احترام اعراضهم..

لا تكاد تأتلف أي مجموعة من الناس في أي مجلس حتى يستعرضوا بسماجة مخزية اعراض الآخرين .. فهذا طويل وذلك قصير .. وهذا سفيه وذاك اخرق ان رأوا الأخضر قالوا لو كان اصفر .. وان شاهدوا الابيض قالوا لو كان أسود فما اسوأ الإنسان حين ينطمس ضميره .. وما اتفه

الحياة حين تنشغل العقول بمثل هذه الحماقات..

أكثر الناس سفاهة من يقضي وقته بالثرثرة المقيتة السخيفة .. وأشدهم حمقاً من يبدد حياته في تجريح الآخرين وتسفيه العقلاء..

يقول أحد المفكرين الكبار: البطالة مفسدة للجماعة فليس أدعى لتضييق الافق ولا أكثر مدعاة للتفاهة واللغو والاحقاد والمنغصات والاكاذيب من ان يمكث جماعة متقابلين وليس لديهم عمل سوى الثرثرة .. فالمشغول لا يلجأ للكلام إلا عند اللزوم أما الذي ليس لديه عمل فإنه لا يجد امامه سوى الكلام بلا انقطاع وهذا ادعى الأمور للتفاهة واخطرها..

هؤلاء الفارغون من العمل النافع المشغولون بنتن القول لو اشغلوا انفسهم بعمل نافع لكانت حياتهم اكرم ..ولسلمت مجتمعاتهم مما يبثونه من احقاد وما ينشرونه من ضغينة وما يلطخون به اعراض الناس من اوضار..

والأسوأ من ذلك ان يكون هذا الاعتداء الشائن على اعراض المسلمين باسم الغيرة الدينية .. حيث يحاول النمام او المغتاب ان يبرر اعتداءه على اعراض الآخرين بالغيرة على الحق .. مع ان الاصلاح يتم بمواجهة المخطىء بخطئه وتقديم النصيحة له .. وليس بتلويث عرضه في الغياب واظهار العكس حين يتم اللقاء.

إن من يقرأ الأحاديث الشريفة التي تتناول الغيبة والنميمة يدرك خطورة هذا الوباء فالرسول صلى الله عليه وسلم قد كرر التحذير والتنفير من هذه الرذيلة المدمرة.. .. بشكل يفوق التنفير من أية رذيلة أخرى .. ومع ذلك لايزال المسلمون يرتكبون هذا الخطأ الفاحش . بمنتهى السهولة وعدم الاكتراث..

يقول أحد المفكرين: ليس أسهل من الجلوس على مقعد مريح واصدار الاحكام على الناس .. أحكام رهيبة مانعة قاطعة .. تقال وتكال بكل بساطة .. مع أن فيها تمزيقاً للشرف وهتكاً لاعراض الشرفاء..

النميمة المتفشية تمس صميم الحياة .. فهي خطر ماحق .. إنها مثل الحامض الكاوي الذي يهري القلوب والصدور وهي الوباء الذي يمزق فعاليات الأمة..

حالة غريبة ممعنة في الغرابة موغلة في الهدم والافساد .. كل من يتحرك فهو موصوم ... وكل من يعمل فهو مطعون فيه أو في انتمائه أو في اهدافه.. إذا اتفقت مجموعة من الناس على ان تلطخ سيرة أي انسان فمن المحال ان تعجز .. فالكلام يقال والشائعات تنتشر .. ولا أحد يعترض أو يطالب بالاثبات أو يحاول التحليل..

ربما لا يفطن الكثيرون بأن تفشي هذه الظواهر في المجتمعات يعتبر

من أشد أسباب التخلف.. فالأخلاق العالية كما يعرف الجميع هي من أقوى العوامل المحركة للتاريخ .. ولذلك يقول الله تعالى عن رسوله الأمين: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

والمسلمون الذين يعانون من التخلف والفقر والهوان في أغلب بقاع الأرض لن يستطيعوا تجاوز هذا الوضع المهين .. حتى يلتزموا بالاسلام في الفكر والسلوك وحتى ينشغلوا بالعمل الجاد المتقن عن الثرثرة الفارغة والكلام السخيف الأخرق: ﴿... إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾.

الأخلاق الإسلامية هي جوهر رسالة الإسلام ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «... إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..» فلا دين لمن لا خلق له .. ولكننا نعطي الأخلاق مفهوماً ضيقاً أبعدها عن دائرة التأثير..

لم تنهض أمة في الأرض إلا بالالتزام الأخلاقي الرشيد .. ذلك ان السلوك كله محكوم بالرؤية الأخلاقية .. فالطالب الذي يهمل واجباته المدرسية لم يفطن للقيمة الحضارية التي ينطوي عليها الجد في التحصيل والاجتهاد في المعرفة .. والموظف الذي لا يتقن عمله .. لا يدرك ان التخلف ليس إلا مجموع الفجوات الناجمة عن الإهمال .. وهذا من صميم الخلل الأخلاقي..

تملك الأمم قابليات متماثلة للنمو الحضاري .. لكننا نعلم جميعاً ان اغلب الشعوب مازالت تعيش في أوضاع دون مستوى الفاقة .. حيث تتردى الأحوال ويعم الفقر ويشيع الجهل وينعدم الحد الأدنى من وسائل العيش الكريمة..

وليس سراً أن ١٠٪ من سكان الأرض يستهلكون ٩٠٪ من خيراتها ويعيشون في ذروة الثراء والقوة والتفوق .. بينما ان ٩٠٪ من سكان الأرض يقتسمون الفتات الباقي من الإنتاج العالمي .. وهؤلاء الكثرة البائسون كان بوسعهم ان يصيبوا حظهم من كرامة الوجود ورغد العيش وهناءة الحياة لو تحركوا لبناء العقول وتكوين المهارات واستثمار خيرات الأرض..

ولكنه الخلل الأخلاقي .. الذي يشيع معه الاختلاف ويعم التسيب ويتفشى الإهمال وتتحول الرذائل في عرف الناس إلى فضائل .. وتنقلب الفضائل في الأذهان المتحجرة إلى رذائل..

(الرياض) ٥/٩/١٤١٤هـ ٢٦/٢/١٩٩٣م.

وباء العنف.. جنون جماعي

إن وباء العنف أشد فتكا بالانسانية من جميع الأوبئة وهو أكثرها افسادا للحياة البشرية وأشدها استعصاء على العلاج. فالعنف من أوبئة النفوس وهي أوبئة تمتزج باللحم وتسري بالدم وتنشأ عليها العظام وتخالط العقول وبذلك تستعصي على العلاج لأن حامل الوباء النفسي يعتبره ميزة يفخر بها..

والعنف يظهر بأشكال من البغي ودرجات من العدوان تبدأ بالغيبة والنميمة والحسد وتتدرج حتى تبلغ الذروة الشنيعة باندلاع احداث القتل الجماعي وتدمير المدن واشاعة الذعر وايقاف نمو الحياة السوية..

والعدوان قد يأتي لاي مجتمع من خارجه حين تقوم دولة أقوى باجتياح دولة أضعف.. ولكن العدوان قد يتفجر داخل المجتمع ذاته بفعل التنشئة الخاطئة التي تقوم على أحادية الرؤية واشاعة نظرة الشك وتكريس نزعة العنف وتوسيع دائرة الكراهيات..

ولست أجد فرقا كبيرا بين النمام الذي يوغر الصدور، المفتري الذي يشيع البغضاء، والحقود الذي تسوؤه مسرات الآخرين، والمغتاب الذي يتلذذ بإراقة الأقذار على أعراض الأبرياء، والحسود الذي ينتشي بزوال النعم عن غيره، والأناني الجشع الذي يشبه الثقوب الكونية السوداء يكاد يلتهم كل شيء، والمتكبر الذي يعامل الناس بتعجرف وصلف واحتقار..

انني لا أجد فرقا كبيرا بين هذا العدوان المعنوي وبين العنف المادي والفردي أو الجماعي.. بل ان هذه الممارسات الشنيعة المتفشية هي التي تهيىء الأفراد والمجتمعات للانزلاق في مهاوي العنف المادي والانغمار في غيبوبة الجنون الجماعي..

فالعنف المعنوي لا يختلف عن العنف المادي الا بالوسائل لكنه يتفق معه في نطاق الشقاء الانساني واستمرار تفاقمه.. رغم ذلك فان المجتمعات تبدي اهتماما شديدا ومنتظما بمكافحة أوبئة الابدان حيث يتم تحصين الأطفال ضد الجدري والحصبة والشلل وضد أمراض أخرى كثيرة، لكن لا يتم تحصينهم ضد الأوبئة النفسية. بل الذي يحصل في كل بقاع الأرض وخلال معظم مراحل التاريخ انه يجري حقن مستمر للناشئين ببذور التعصب والعنف والكره والقسوة وبكل أشكال البغضاء والضغائن والحقد والحسد.. ليس فقط بين الأمم والشعوب التي توارثت تبادل الكره وانما أيضا على مستوى الأفراد والأسر والعشائر والطوائف والفئات والأقاليم والانتماءات المكانية داخل المجتمع الواحد..

ان الناشئين في كل مكان لا يتلقون شيئا من ثقافة السلم التي تزرع فيهم بذور المحبة وتغرس فيهم روح التسامح وتنزع منهم غريزة الاستئثار وتؤصل في أعماقهم حب الحقيقة وتقيم حياتهم على الالتزام بالعدل وأداء الواجب والاحساس الشديد بحقوق الآخرين المادية والمعنوية وتنفرهم من العدوان بأشكاله ودرجاته وتحثهم على الايثار وحب الخير للجميع..

بل ان حياة الأجيال تباشرها أحداث العنف منذ الأيام الأولى فتتعدى بهذه الأحداث.. فالطفل قبل ان يبلغ السنة الثانية من العمر يلتقط عصا المكنسة أو قطعة من الخشب أو أي شيء ويصوبه نحو الآخرين، ويطلق من فمه أصواتا تحاكي أصوات الأعيرة النارية انه لشيء مفزع ان يكون هذا من أول ما يحذقه الأطفال وتتجه اليه اهتماماتهم..

ان عقولا يتفتح وعيها على الصراع وحب التغلب لن تنمو فيها فضيلة التسامح ولن تعرف الانصاف ولن تستجيب لدواعي الايثار ولن تذعن لفروض الحق ولن ترضخ لأداء الواجب بل تكون دائما مشرئبة لكسب الصراع وتحقيق التغلب..

ان هذا التوجه العام في الحياة البشرية قد طبع النفوس كلها الا ما ندر بطابع الأنانية وأحدث فيها اعاقة عاطفية فظيعة وجهت الطاقة الانسانية الفردية والجماعية نحو الصراع وحب التغلب والتزاحم على الامتلاك: امتلاك المال والجاه والنفوذ وبذلك اصطبغت الحياة حتى داخل المجتمع الواحد بالتنازع والتوجس وغياب الاعتبار لحقوق الغير المادية والمعنوية وبذلك تفاقمت الشرور لان الشر يولد الشر حسب قانون الفعل ورد الفعل الذي يسري على كل شيء..

أما على مستوى صراع الأمم والشعوب فانه بسبب رغبة المجتمعات

في كسب الصـراعات فانهـا تحشـد في النفوس أسوأ الخـصال وعن طريق هذا الاحتشاد المتبـادل من الكره تختلط الفضائل بالرذائل وتتداخل المزايا مع الرزايا..

فالشجاعة في نظر كل المجتمعات هي أم المزايا وهي رأس الفضائل مع ان كل شجاع عند قومه هو سفاح عند أعدائه. فالأبيض عند هؤلاء هو ذاته أسود عند خصومهم ومن يتـوهمون انهم حمـاة الحق في هذا الطرف هم في نظر الطرف المقابـل دعاة الباطل ولا ينتـهي هذا الدوران أبدا حتى لدى المتخاصمين داخل المجتمع الواحد كما في النزاعات والاختلافات والحروب الأهلية بل ان التشنيع والتنافر بين الفئات المتخاصمة داخل المجتمع الواحد تكون أفظع وأشد ضراوة..

ومع التضارب في الغايات فان التحريض باسم البطولة وتحت شعار الاستـشهـاد وضمن مفـهوم الشـجاعة : يجـري عند كل الأمم والطوائف والاعراق حتى عند الشيوعـيين كانت البطولة تجـري باسم الاستشـهاد وبهذا الخلط الماحق ضـاعت الحقيـقة ولم يعد الناس يميـزون بين العدوان والشجاعة ولا بين البطل والسفاح..

ولذلك يقتضـي تفاقم الشرور اجراء مراجـعة شاملة لمفهـوم الفضيلة والرذيلة واعادة ترتيب القيم ترتيبا يعيـد تصحيح سلم الفضـائل حسب ما تحققه للبشرية من خير وما تسديه للمجتمع الانساني من صلاح..

فليست الشجاعـة التي تنال كل التمجيد هي شجـاعة الفكر الرشيد ولا فروسية الرأي السديد ولا هي الشجاعة التي تردع الظلم ولا البطولة التي تقيم العدل وتنشر الخير ولكنها شجـاعة القتل وفروسية التدمير وبطولة سفك الدماء البـريئة. فالذين قادوا عمليات مـذابح المسلمين وهدم المساجد من الهندوس هم في نظر المشايعين من الابـطال الذين يستحقون الـتخليد، والذين يدمرون البـيوت على الأبرياء ويهدمون المسـاجد على المصلين في البوسنة ويقتلون الناس قتلا عشـوائيا سيبقون في نظر الصرب من ذوي البطولات المجيدة.

وهكذا هي حياة البشر محكومة بقيم متضاربة تحرض على الشر أكثر مما تدعو للخير وتدفع الى الصراع أشد مما تحث على التعاون.. انه الارث البغيظ الذي ظلت البشرية تتوارثه عبر كل مراحل التاريخ وعند كل الأقوام وهو ارث ثقيل وشديد التعقيد ويزداد تعقدا مع مرور الأيام فالأحقاد تنمو والشكوك تتضـخم والكراهيات تتسع أمـا الحب والفهم والتسـامح فكلها تتضـاءل وتنكمش..

ان الانسان اذا لم يخـضع للضوابط الاخلاقـية العليا بمنتـهى الصدق

والصرامـة فانه يصبح شـريرا يلتذ بايقاع الـظلم والشر والأذى على الآخرين، فالصفة المميزة لهـذا المخلوق الغريب هي الافساد وسفك الدماء :
(..اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء..).

ومع ان هذا الجـانب الحيـواني الغليظ في الانـسـان هو أحق الجـوانب بالترويض والتطويع والتـهذيب والترقيـة فان كل المجتمـعات لا توليه أي قـدر من الاهتـمـام مما أحـال الحـيـاة الانسـانيـة الى هذا الدرك الموحل البغيض..

ان الانسان أبشع الوحوش المفترسة حين يتعطل فيه العقل ويتخلى عنه الرشد وتنزع منه الرحمة ..وليس أسوأ من اسـتعراض الانسان لعضلاته لانه افتخار بالجانب الحيواني البشع.. وتتجلى هذه البشاعة ليس فقط في الصراعات الدموية وانما حتى في الملاكـمة حيث تنزف دماء الانسان أمام المتفرجين وهم يصفقون للفائز الذي أجرى هذه الدماء..

المصارعة لون آخر من ألوان استعراض القـوة العضلية البشعة ولكنها تمارس في أكثـر الأمم تحضرا فـتربي الأجـيال على العنف وتنمي فـيهم نزعة العدوان وتوجههم بطريق غير مـباشر الى اغفال الامتياز الذي خص الله به الانسان والاهتمام بالجانب الحيواني الفظ..

وبسبب هذه التنشـئة الخاطئة فانه اذا ارتفع صـوت واحد بالدعوة الى نبـذ العنف تعـالت ضـده مـلايين الأصـوات تحـرض على العنف وتزرع الضغينة وتغرس الكره وتؤجج التعصب وتمجـد البغي وتدفع المجتمعات الى مزيد من سفك الدماء ونشر الخراب وتوسيع دائرة البؤس..

حتى تعاليم الخير يحيلها الى تعـاليم للشر لان التعصب يشل فاعليات العـقول ويعطل امكانات الفـهم ويحجب عن الانـسـان جوانـب كثيـرة من جوانب الخير.. وعن ذلك يقـول الكاتب الانجليزي هربرت جورج ويلز في كتابه (موجز تاريخ العالم) :

«.. لا بد ان يقتنع البـشر عامة بفكرة الوحدة الانسـانية وان تكون تلك الفكرة المتعلقـة بالبشرية كعـائلة واحدة فكرة تعلم وتفهم الناس كـافة في كل أرجاء العـالم بأسره وقد عاش روح الديانات العـامة العظيمة مكـافحا مناضلا في سـبيل صيـانة ونشر تلك الأخوة العالمـية العامة ولكن الحـقد والغضب والتشكك التي تولدت في الماضي عن المنازعات القـبلية والقومية والعنصـرية لاتزال تسد السـبيل تماما وبنجاح تام أمـام انتـشار الآراء الروحيـة والبواعث السـمحـة التي تجعل من الرجل منا خـادما للبـشرية كلها.. ان المشكلات الاجـتماعيـة والاقتصادية تختلط بالمشكلات الدولية اختلاطا لا سبيل الى فصمه..».

ثم يوضح ان المشكلات البشرية لا يمكن حلها الا : «... في التماس روح الايثار الذي يستطيع ان يدخل القلب الانساني ويملأه الهاما...».

ولكنه يرى ان هذه غاية بعيدة جدا : «.. لأن ارتياب الشعوب وعنادها واانانيتها تنعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد (بمصالحه الخاصة) وأنانيته ازاء الصالح العام.. و(نمو) الشراهة الجشعة.. انها ثمار الميول الغريزية ونتاج الجهالات والتقاليد..».

وعلى الرغم من ان هربرت جورج ويلز كان من أشد مثقفي العالم تفاؤلا وكان من حداة التقدم التقني والمعرفي كان يظن ان الانسانية مقبلة على فترة رخاء شامل يعم البشرية كلها وتزول فيها أسباب البؤس والشقاء الا انه اضطر في آخر عمره ان يفتح بصيرته على الواقع البشري المعقد الكئيب فأدرك انه مشحون بأسباب الشقاء والاختلاف غير انه رغم ذلك بقي متفائلا حيث كان يرى ان الانسانية تتجه بأجمعها نحو السلم الشامل فكتب :

«... وما يستطيع انسان ان يتجاوز حدود معرفته وما يستطيع فكر ان يتجاوز حدود الفكر المعاصر كما ان من المحال علينا ان نحدس كم من أجيال البشرية سيضطر الى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأموال والأنفس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء قبل ان يبزغ فجر الاسلام العظيم الذي يبدو ان التاريخ بأكمله يتجه صوبه : سلام يغمر القلوب وسلام يغمر الدنيا..».

الا انه بقي مدركا : «... ان الأهواء تكتنف الآمال والشبهات تعتور الحلول..» لكنه كان يتطلع الى انتشار : «.. الفهم الجلي والعمل العظيم من أجل اعادة البناء الانساني...».

غير انه بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية راجع ما كتب وكان في شيخوخته فأجرى عليه تعديلات تؤكد رجحان كفة التشاؤم وكان من آخر ما كتب :

«... حدثت سلسلة متعاقبة من الاحداث ارغمت المشاهد الذكي ارغاما على ان يدرك ان قصة البشرية قد بلغت نهايتها وان الانسان في صورته الحالية صار شيئا منهوكا لا غناء فيه ولا بد من ان يخلي مكانه.. فليس أمام الانسان الا مخرجان أحدهما يرتفع الى السماك وثانيهما يهوي سحيقا الى الحضيض.. وكم أتمنى ان أحضر الجنس البشري وهو يجود بأنفاسه...».

هكذا أدرك الحقيقة الكالحة واحد من أبرز المتفائلين وأشدهم ثقة بالجنس البشري وأكثرهم تأكيدا للمستقبل الوضيء الذي كان يتوهم

حتمية صيرورة الانسانية اليه لكنه عرف بعد ضياع عمره ان البشرية باقية في أوحال الصراع النتن ما بقي اثنان على هذه الأرض..

أما عالم الاجتماع الفرنسي غاستون بوتول فقد كرس الجزء الأكبر من نشاطه العلمي خلال عمره الطويل لدراسة ظاهرة العنف في الحياة البشرية منذ بداية التاريخ حتى العصر الحاضر وقد أصدر عن الحروب التي جرت خلال التاريخ البشري عددا من الدراسات التحليلية التي تنهض على التتبع الشامل والرصد الدقيق..

بعض الدراسات انجزها غاستون بوتول منفردا مثل (السلم المسلح) و(هذه هي الحرب) وبعضها بالمشاركة مع آخرين ضمن المشترك (للمعهد الفرنسي لعلم الحرب) ويأتي في مقدمة الجهود العلمية المشتركة كتاب (تحدي الحرب) الذي أنجزه بمشاركة رينيه كارير وكتاب (الحروب والحضارات) الذي شارك معهما فيه جان لويس انوكان.. وكلهم من المعهد الفرنسي لعلم الحرب، وهذا المعهد هو مؤسسة علمية انشيء : «.. من أجل الدراسة العلمية للحروب والسلم والنزاعات... والأعمال العدوانية الجماعية والعنف الذي هو جرثومة الحرب...» فعلم الحرب الذي تهتم به هذه المؤسسة العلمية هو نقيض علم الحرب الذي يدرس في الكليات الحربية.. انه يدرس الحرب كأفظع وأوسع ظاهرة أجتماعية بينما ان الدراسة في الكليات الحربية هي تكريس لهذه الظاهرة واعداد مستمر للمجابهات المحتملة..

في كتاب (الحروب والحضارات) يعرف المؤلفون الحرب : (... بأنها اللقاء الحتمي مع الموت الزؤام وهي انقطاع أحمق يبرهن على فشل العقل والقلب.. تبدأ ثقيلة بمعناها ومخاطرها بل هي حدث هائل بأبعاده وآثاره وبأساليب العنف التي يقتل بها البشر.. والحرب الأهلية هي أكثر أشكال الحروب وحشية..».

وليس أدل على وحشية الحروب الأهلية من الفظائع والمذابح والدمار الذي تعيشه افغانستان في أيامها الحالية الكالحة، أو التخريب الشامل الذي أصاب الصومال، وقبل ذلك ما جرى في لبنان وتشاد ونيجيريا وأثيوبيا وبلدان كثيرة كلها ضمن العالم الثالث المشحون بأساليب التوتر والغارق بعوامل العنف والعاجز عن التفاهم..

اقرأ عناوين أي صحيفة وسوف ترى فواجع العنف تتلاحق في العالم الاسلامي ليس فقط بسبب أعداء من الخارج وانما بسبب التنافس على مواقع النفوذ والتزاحم على السلطة..

وعلى سبيل المثال كانت أبرز عناوين جريدة الرياض يوم ١٨ شعبان

الجاري.. عن أحداث مروعة تجتاح مواقع اسلامية كان الأمل ان تكون آمنة تنعم بالسلم والحياة السعيدة.

«... طائرات دوستم تشن أسوأ هجوم على كابل!!»

«.. قصف كرواتي عنيف على خمس مناطق اسلامية..»

«... أفغانستان : من الجهاد الى الحرب الأهلية...»

«أسيوط : هجوم مسلح..»

«... مقتل ١٣ صوماليا في مصادمات عشائرية..»

«... الهند تفرض حظر تجول في كشمير...»

هذه بعض العناوين التي حوتها الصفحة الأولى فقط من جريدة «الرياض» يوم السبت قبل الماضي وتشير الى فظاعة المأساة التي يعيشها المسلمون في الكثير من بقاع الأرض.. بعضها بسبب أعداء من الخارج والأكثر بسبب سطوة الأهواء والتعصب للمواقف والعجز عن التفاهم..

ان جنوح الانسان الى العدل ورغبته في الوئام وكفه عن العدوان والتزامه بالحق.. كلها تحتاج الى تغيير أخلاقي جذري، كما تتطلب أن يتسع إدراك الناس للحقائق فتتكون بذلك لديهم مناعة قوية ضد وباء العنف ولذلك ينبغي التوسع في ثقافة السلم والتوقف عن غمر الناس بثقافة العنف، كما أنه يجب نشر الثقافة التي تتناول الانسان ودوافعه والأطر المعرفية التي تصوغ اتجاهاته ،وحين تنبلج الحقيقة للناس تستبين لهم حماقات العنف وتتضح لهم تفاهات التكالب وتتعرى الأهواء التي تجر الناس الى كل البلاء..

جان غيتون عضو الأكاديمية الفرنسية يتساءل : «... الحروب ملأت تاريخ هذا الحيوان المفكر الذي تميز بأنه عدواني يميل للسيطرة.. فهل يمكن لعملية الفهم أن تجعلنا قادرين على تحاشي الموت الجماعي..؟!».

ثم يجيب بأن تجنب الكارثة أمر ممكن ولكن على الناس لكي يتجنبوا هذا السلوك الأرعن الباهظ أن يروا وأن يدركوا أو كما قال الفيلسوف ليبنتز : «.. ابحث عن وجهة النظر الأكثر تفهما...».

اننا لكي نفكر بشكل أفضل ونتصرف بمستوى يليق بمسؤوليات الانسان العاقل المكلف لا بد أن نمعن النظر في أسباب الانشقاق وأن نتخلص من سيطرة الأهواء وأن نعيد ترتيب القيم التي توجه السلوك الفردي والجماعي وأن ندرك أن اعجاب كل ذي رأي برأيه علامة الحمق وإيذان باقتراب الكارثة..

في كتاب (الحروب والحضارات) تحليل لأسباب الحرب وسمات المحرضين على العنف ومن بين هذه السمات :

ـ عدم الاعتراف بالغير بل وانكار وجوده

ـ تخويل كل طرف بعرض قوته وقتل عدوه وعدم احترام أرواح المدنيين الابرياء، ففي أتون العنف يسود الجنون ويغيب الحق وتختفي الرحمة..

ـ كل طرف يتوهم انه يجسد الحق وأن خصمه يمثل الباطل فالصراع يبدو لأصحابه وكأنه صراع بين الخير والشر فكلاهما شر في نظر خصمه وكلاهما خير في نظر نفسه وفي هذا التناقض التام ينكشف الخلل.

ـ اذا ساد الطيش امتد التدمير الى كل السكان والى جميع الثروات الاقتصادية والثقافية.. فما كان يحافظ عليه اشد المحافظة في أوقات السلم يتم تهديمه دون تردد في اتون المعارك الهوجاء..

ـ في معمعة غياب العقل تهمل أساسيات الحياة وتحشد جميع النشاطات والمجهودات في المجابهة الدموية ويصبح التغلب هو الغاية التي تهمل بجانبها كل الغايات الحيوية..

أما السلم فهو يقتضي وجود نزعة نحو التنوع والاعتراف بالغير، ونظام من القيم ذي وجهة متسامحة ومنفتحة وتدرك نسبية الأحكام وتعي شطط المواقف المتعصبة، وتعرف أن الازدهار يتطلب حشد الجهود للتنمية «.. فالسلم هو الخلق المستمر والعمل العظيم للعقل والقلب معا...».

ان السلم تعبير عن الارتقاع الى الالتزام بالقيم الأخلاقية العليا، انه إفساح المجال لكل الطاقات من أجل الخير العام لكي ينعم به الجميع..

«... أما الحرب فهي العنف الهائج والمنظم الذي تسبغ عليه صفة القداسة وهي المجابهة الدموية بين مجموعات داخلية أو دولية...» انها اللقاء المأساوي المروع مع القتل الجنوني الجماعي..

ومهما بدا الانسان متحضرا فانه سريع النكوص الى حالة التوحش والقسوة واستخدام العنف لأن طبيعة العدوان كامنة في النفوس ولأن الأمم والشعوب والمجتمعات تنمي ثقافة العنف وتسد الطريق أمام ثقافة السلم..

يقول غاستون بوتول في كتابه (السلم المسلح) : «..ان عقلية العصر القديم كامنة في أعماق الانسان ومهيأة للانبعاث من جديد.. ان بعض الأحداث الجماعية تبدل بصورة فجائية عقلية جماعات بأكملها كما ان بعض الاضطرابات العميقة تثير اندفاعات جماعية وتفجر عندئذ الطبقة الرقيقة للاضافات الحضارية وأخلاقياتها الرفيعة وتدفع الانعكاسات الموغلة في القدم الى الظهور...».

فالوحش المفترس في الانسـان المتحضـر يقبع تحت المظاهر المتـأنقة والكراهيات المتبادلة تختفي خلف الابتسـامات المفتعلة وإضمـار الغدر يتوارى خلف الاعراف الدبلوماسية..

لذلك تشتد حاجة البشرية الى تكثيـف ثقافة السلم بعد أن تشبعت عبر كل تاريخها بثقافة العنف وسيكون يـوما تاريخيا عظيما يمثل نقطة تحول عظمى في التاريخ الانساني : ذلك اليوم الذي تستـهل فيه نشرات الأخبار لا بأحداث التخريب والقتل ولكن بأحداث العلم والفكر والفن والأدب.. فلا يوجـد أي سـبب منطقي بأن تسـتـاثر أحـداث العنف بكـل هذا التكريس بوسائل الاتصـال وأن يصاحب ذلك إهمال تام لأعظم وأهم وأنفع جوانب النشاط الانساني..

ان كشـوف العلم وفتـوحات المعرفـة ومنجزات المهـارة ونتاج الابداع تمثل الجـانب العظيم في حـياة الناس فـهي الأحق بالنشـر والذيوع والاحـتذاء، ولذلك كـان الأولى ان تأخـذ الصـدارة في الاهتـمام والنشـر والتداول..

فـهل نبدأ في نشـر وتوسيع السلـم فنستـبدل أخـبار العنف والقـتل والتدمير بأخبار الابداع البشـري فنجعل المشاهدين والقارئين والمستمعين يعيـشون مع ما يجري في مـخابر الكشف وقاعـات البحث حتى يتـعلقوا بأكثر الانجـازات إشراقـا ونفـعا بدلا من الاسـتـمرار في تكرار عـرض الانسـان في أبشع حالاته وهو يقـاتل أو يخرب أو يصـارع أو يلاكم وهل نتذكـر ان امتـياز الانسـان بعقله النفـاذ وفكره الخلاق ومـهارته الذكـية وأخـلاقه النبـيلة وليس في عـضلاته الفظة ولا فـي ممارسـاته البـشعـة الغليظة..؟!!

ان إبراز هذه الجوانب العظيمة مع النشـاط الانساني سوف يحقق نقلة نوعية في التفكير وتغييرا جذريـا في الاهتمامات فتتجه طاقات الناس الى العلم والفكر والفن والادب بدلا من بقائهم دائما مشدودين لنزعة الهدم..

«الرياض» الخميس ٣٠ شعبان ١٤١٤هـ - ١٠ فبراير ١٩٩٤م - العدد ٩٣٦٢.

التلازم في المعرفة بين العمق والاتساع

عمق المعـرفة مرتبط باتسـاعها واتسـاع المعرفة شـرط لعمقـها.. تلك حقـيقة يؤكـدها تاريخ الفكر والفلسفـة وتاريخ الأدب والفن وتاريخ العلم والابداع كما يشهد لها واقع الناس غير أنها مع ذلك ليست واضحة بالقدر الكافي حتى للكثير من المتعلمين مما يستوجب تجليتها وتكرار التأكيد على التلازم في المعرفة بين العمق والاتسـاع..

والمتمـرسون بالعلم يـدركون هذا التلازم تمام الادراك ولـذلك نجد ان فيليب فرانك يستهل كتابه (فلسفة العلم) الذي ترجمه الدكتور علي ناصف بهذه العبارة الجامعة: «.. القـليل من التعليم امر خطر فإما أن تنهل بغزارة أو لا تذق منابع المعرفة فـالجرعـات الصـغيـرة تغيّب وعينا بينما تعيدنا الجرعات الكبيرة الى حالة الاتزان..».

ان الذي لم يتمـرس على الـبحـث في آفـاق المعـرفـة ولم يتـآلف مع موضـوعات الفكر يشبه السـائح الذي يرتاد امكنة لم يألفها فيجد كل شيء غريبا عليه فاذا لم يتحرك بانتباه شديد فانه لا يستطيع ان يعود الى النقطة التي انطلق منها..

تصور سائحاً يذهب للمرة الاولى الى طوكيو او القاهرة او نيويورك.. انه مـضطر ان يركز انتباهه بشـدة فيضـع في ذهنه علامـة لكل منعطف وصورة لكل طريق ولابد أيضاً أن يستعين بخريطة المدينة وان يتوقف بين فتـرة واخرى ليراجع الخـريطة او يسأل العارفين حـتى يتأكد من صـحة الاتجاه ولكنه مع ذلك يواجـهه صعـوبة شديدة في العودة الى مـقر سكنه ولذلك يلجـأ أغلب السـائحين الى الاستـعـانة بالادلاء بدلا من الانشغـال بالتعرف على الطريق..

لكن قارن هذه المعرفة الغائمة المضطربة الوجلة المحدودة بمعرفة سائق سيارة الاجرة الذي قضى عمره يجوب شوارع المدينة الكبرى انه يعرفها بكل تفاصيلها حيث تنمو معرفته مع نموها أنه لا يحمل خارطة المدينة في يده ولا يضطر للتوقف بين فترة واخرى لمراجعة الخريطة او سؤال الآخرين بل يستطيع أن يصل من أقرب طريق الى أية نقطة في المدينة دون اي تردد انه يتحرك بثقة لان المعالم عنده متميزة والرؤية لديه واضحة ليس فقط بالنسبة للاحياء القديمة وانما تتواصل معرفته حتى لما يستجد من احياء فلا يواجه أي مشقة في التعرف على الاحياء الجديدة التي تطرأ باستمرار لانه يضيف المعرفة الجديدة الى معرفة عريقة واضحة لا يعتريها التلجلج..

والفرق بين الباحث المتمرس وبين الطارىء على البحث.. هو مثل الفرق بين الذي قضى عمره يجوب شوارع المدينة الكبرى كل يوم خلال سنوات مديدة وينمو مع نموها وبين الذي يزورها لاول مرة..

انني بهذا التشبيه احاول تقريب الفكرة التي أريد ايضاحها والا فان الفارق بين المثقف الذي يملك معرفة واسعة وعميقة ومتنوعة وبين الذي يعيش ضيقا في الافق وانكماشا في المعرفة وقصورا في الرؤية هو فارق أكبر من ذلك بما لا يقبل المقارنة..

والخطورة في الامر انه اذا شاعت ضآلة المعرفة كثر الادعياء وقل المحتفون بالعلم وتفاقمت حالة التعالم وضاع العارفون الحقيقيون وسط الاستخفاف العام بالمعرفة..

لابد من الاعتراف انه حتى في البلدان المتقدمة مازالت الجموع الغفيرة تكتفي بما يكفل المهارة المهنية وتركز على الاتقان العلمي من اجل التفوق المهني الذي يضمن لقمة العيش الا ان الفارق بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة ان الناس هناك يقضون وقت فراغهم في تسليات معظمها له جوانب ثقافية وتعتبر متعة القراءة تسليتهم الاساسية ولكنهم مع كل هذا التعايش مع الثقافة فانهم يبقون معترفين بضآلة معرفتهم قياسا بما يتطلب الحكم على الأشياء والافكار والمواقف والاشخاص وهذا الاعتراف يحميهم من الوقوع في رذيلة التعالم فهم يعرفون انهم يجهلون وهذا في حد ذاته علم نافع وهو ما تسميه (علم الجهل) أو (العلم بالجهل) لكن المعضلة في الذين يجهلون ولكنهم لا يعرفون جهلهم ولا يعترفون به ومع كل الجدب فانهم يستخفون بحصون العلم المنيعة فيتحدثون عن كل الاشياء والافكار والمواقف والاشخاص ويصدرون احكاما قاطعة في كل قضية دون ان يتكبدوا مشاق البحث ودون ان يطيلوا التأمل في علاقات

الأشياء..

ولأننا نعاني من قلة الباحثين المتمرسين الذين يعيشون دائماً عرس المعرفة وعشق العلم ولأننا تعودنا ان نحكم على الامور باستخفاف شديد فاننا لا نصدق بوجود افراد قلائل منقطعين لمباهج المعرفة ومكابداتها اللذيذة كما اننا لا نتصور الفتوحات المعرفية التي يحققها عاشق العلم الذي تتخطف عناوين الكتب بصره اكثر بكثير مما يتخطف جمال الحسان ابصار الفتيان لذلك اعتدنا على اختزال كل الافراد ضمن النمط الشائع والعقيم لان الحكم على الشيء فرع عن تصوره والتصور يبتعد عن مطابقة الواقع بمقدار افتقاره الى التجربة السخية والمعلومات الوافرة..

ان تجربة الناس هنا في مجال التوسع والتنوع المعرفي هي تجربة محدودة للغاية لذلك لا يستطيعون ان يتصوروا الافاق المعرفية التي يفتحها التوسع والتنوع المعرفي او كما يقول الدكتور انور عبد الملك في كتابه (الشارع المصري والفكر)..

«... اننا تعودنا ان نحصر شخصية كل فرد في اطار ضيق محدود لا يعرف التغير ولا نعترف له بحقه في التعدد ولا ندرك حقيقته الخصبة المتنوعة ومن هنا كان النزوع الى تعريف كل فرد بيافطة واحدة.. بينما الحياة تنطلق من كل جانب بقوة وحيوية تشق طرقا جديدة لتطورها».

اننا بهذا الاختزال القائم على التنميط ننسى ان الانسان اذا اتسعت معارفه يكون قد استوعب معظم المصطلحات وألمّ بالكثير من النظريات وصار عنده تصور واضح عن غالب المفهومات وتآلف مع أسماء المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء وعرف اتجاهاتهم ومجالات اهتمام كل منهم كما يكون قد تمرّس بطرق تكوين المعرفة وطبيعتها وأسباب الاختلاف فيها فهو لا يسير في أرض قفر موحشة وانما يمشي على ارض يعرف الكثير من معالمها...

ان الاتساع في المعرفة لابد ان يصحبه تلقائياً ثراء في المحصول اللغوي، ومعلوم ان اللغة هي وعاء الفكر فالذي اتسعت معارفه قد اتسعت ايضاً لغته فاذا قرأ كتاباً في أي موضوع فانه يجد اللغة نفسها التي تآلف معها طويلاً..

ان الذي لم تتوطد علاقاته بالتنوع المعرفي لا يفرق في الغالب بين الكلمة كمصطلح ذات مضمون محوري وبين الكلمة كمفردة قبل ان تكتسب سماتها الجديدة..

أما الباحث المتمرس فانه يدرك ايضاً حتى تاريخ المفردات ومقدار الطاقة الايصالية التي تختزنها كل مفردة ضمن البناء العام للنص كما

يدرك التمايزات الطفيفة بين ما نحسبه كلمات مترادفة على النحو الذي يشير اليه الدكتور عادل العوا في كتابه (العمدة في فلسفة القيم):...

«.. اللغة العربية ترفض الترادف وتعتنق فويرقات تفاضل دقيقة تبلغ درجة الاذهال..» وهو ما يسميه الاستاذ سمير عطا الله (رقائق اللغة) ففي حركة صغيرة يتغير المعنى فكلمة (بُر) تختلف عن كلمة (بِر) وكلاهما يختلف عن (بَر) وكذلك (ضعف) و(ضُعف) و(ضَعف) هكذا أو كما قال الدكتور طه حسين: «.. اللغة آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ولون من الوان الشعور وفلسفة الحياة وبقدر ما يتمكن الافراد من لغتهم تنمو حياتهم المنبثقة من أعماق نفوسهم والخارجة من قلوبهم فتمتلىء بعد فراغ وتشبع بعد جوع وتغنى بعد فقر...».

ان الذين فاتتهم فرصة العيش مع جماليات هندسة اللغة قد فاتتهم ايضاً مغانم الفكر وحُرموا من ارفع ملذات الحياة ولكنهم لا تيصورون فداحة الخسارة ولا يدركون فظاعة الحرمان فيبقون بعيدين عن هذه العوالم البهيجة الرفيعة لانه ليس بوسعهم ان يتصوروا شيئا لم يجربوه فالأعمى لا يتصور الالوان والعنين لا يتصور لذة الجماع والمريض الذي اختلت عنده حاسة الذوق لا يتذوق الطعوم اللذيذة وكذلك الجاهل لا يتصور (لذة النص) ولا يتخيل مباهج المعرفة..

ان الذي لا يجدد لغته باستمرار ولا يواصل توسيع آفاقها لابد ان يصاب بالامحال الفكري..

ان لغته العتيقة – كما يقول كمال عبد اللطيف – توجه اختياراته وتشل فاعليته..

والمحصول اللغوي المتدفق لا يتكون الا بالقراءة الدائمة.. وتتعدد جوانب هذا الثراء اللغوية بمقدار التنوع في موضوعات المعرفة..

ان التألق في استخدام اللغة فن رفيع وشديد التمنع وقد يجيده طبيب مرهف الذوق وشغوف بالمعرفة اكثر مما يجيده احد علماء البلاغة من الذين سجنوا عقولهم داخل فرع واحد من فروع المعرفة وعاشوا فيه بجمود ورتابة..

ان الفهم حركة في الذهن ونشاط في الانتباه وتفاعل حاد بين الفطنة وكل الضروب المعرفية..

ولذلك يستطيع الفيلسوف ان يغوص في أعماق اللغة وان يبدع في حذق اساليب التعبير اكثر مما يغوص ويحذق علماؤها المتخصصون..

يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر جيل دي لوز: «... الفلاسفة الكبار هم ايضاً مبدعون كبار في مجال الاسلوب فالاسلوب في الفلسفة هو

حركة المفهوم، ان الاسلوب هو اخضاع اللغة للتنوع وهو تعديل او تشكيل وشد للغة بأكملها الى الخارج تكتب دائما لنمنح الحياة، لنحرر الحياة حيث هي مسجونة، لنرسم مسالك للهرب ولذلك لا ينبغي ان تكون اللغة نظاماً متجانسا بل لا توازنا نظاما لا متجانسا دائماً.. ان الاسلوب يعمق الاختلافات في القوى الكامنة ويمكن ان يمر شيء ما بين هذه الاختلافات وان يحدث كما يمكن ان تنبثق ومضة صادرة عن اللغة نفسها فتجعلنا نرى ونتأمل ما بقي في الظل، من حول الكلمات يوجد الاسلوب عندما يكون للكلمات وميض ينتقل من كلمات الى اخرى حتى وان كانت بعيدة جدا..»

فالمعرفة الواسعة المتنوعة هي في حالة توالد دائم فالفكرة تلد فكرة اخرى والفكرة الاخرى تُفضي الى اخرى ثم اخرى واخرى والباحث في هذه الحالة لا يكون مشغولا بالتأكد من معاني الكلمات لانها صارت ممتزجة في تكوينه الذهني لذلك يركز ذهنه على استخلاص وفرز الاضافات الجديدة في المنهج والشكل والمحتوى..

ان المثقف الذي تنوعت مصادر معرفته يستوعب في جلسة واحدة ما لا يستطيع غير المتمرس ان يستوعبه في شهور ان المعرفة العميقة المتنوعة الواسعة تنشىء في الانسان طاقة استبصارية فذة..

ولعل من أوجز وأبلغ ما قيل عن البصيرة الحدسية التي تتكون بتنوع المعرفة واتساعها ما ورد بكتاب (آفاق القيمة) للفيلسوف الامريكي رالف بارتن بيري:

«... وكلما زادت معرفة الانسان زادت معرفته بكيف يعرف وتضاعفت سرعة تقدم المعرفة...».

ان البصيرة الحادة التي تخترق الاعماق هي ثمرة اتساع المعارف وتنوعها انها ثمرة تكرار السير في رياض العلم والتغذي الدائم من كل بساتين المعرفة ولكن لابد من تكرار التأكيد بان ادمان القراءة ذات البعد الواحد لا يؤدي الى هذه الخصوبة الذهنية فالتنوع المعرفي شرط لهذا الاقتحام الظافر..

ان تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة وتاريخ الفن والتاريخ الحضاري بشكل عام كلها تؤكد ان الذين حققوا انجازات كبرى في العلم أو في الفكر أو في الأدب كانوا من أهل المعرفة الواسعة المتنوعة حيث نجد ان اينشتاين على سبيل المثال قرأ الفلسفة والتاريخ والأدب وله تذوق رفيع في الفن وله رؤية فلسفية قبل ان يكون له كشف علمي وتتكرر تصريحاته بان اتساع وتنوع المعرفة شرط لعمقها ومما جاء في كتابة (أفكار وآراء) قوله:

«... ان أولئك الافراد الذين ندين لهم بأعظم الاعمال العلمية كانوا جميعا تواقين عقلياً للمعرفة ولو لم يكن هذا الاقتناع جياشا بالعاطفة لما استطاعوا الانقطاع الدائب الذي يستطيع وحده ان يدفع المرء الى القيام بجلائل الاعمال...»

وكل الافذاذ الشواهق في الفلسفة والفكر والادب والعلم كانوا من عشاق التنوع المعرفي فهذا الفيلسوف الالماني الكبير عمانوئيل كانط لم يكن نهما في قراءة الفلسفة فقط وانما كان شغوفا بالادب وبالفن الروائي الرفيع الى درجة الهيام وكما يكرر مؤرخو حياته عن انقطاعه التام للمعرفة او على حد تعبير الدكتور علي زيعور في كتابه (مذاهب علم النفس):

«... لم يتزوج كانط وعوض عن ذلك في تكريس وقته للكتب والقراءة.. نظم حياته تنظيما آليا دقيقا فاصبح قمة شامخة من قمم الفلسفة (حيث) تبدو سيادة العقل المطلقة وهيمنة التفكير المجرد...».

ولعل من اطرف ما يروى عن (كانط) انه لم يُخلف عاداته اليومية الصارمة الا حين غرق في قراءة رواية (اميل) لجان جاك روسو حيث عاش نشوة عقلية مفرطة.. ان الرواية تقع في (٤٥٠) صفحة وحين شرع في قراءتها نسي نفسه وذهل عن نظام حياته كان عرسا ذهنيا حافلا بالمتعة لا يتصور مباهجه الا من تعوّد ان يعيش مثل هذه المباهج الذهنية وعن ذلك يقول ديورانت في قصة الحضارة:

«... (إميل) امتع كتاب أُلف في التربية اطلاقا وقد تناول كانط (اميل) ليقرأه فاستغرق في قراءته استغراقاً انساه الخروج للتمشي في نزهته اليومية وهي النزهة التي لم يتركها بتاتا في حياته كلها حتى كان الناس يضبطون ساعاتهم عليها...».

اما كانط نفسه فيصف نشوته حين يقرأ كتابات روسو وصفا مفعما بالتأثر حيث يقول: «... لابد ان أعيد قراءة روسو الى ان يكف جمال عبارته عن فتنتي وعندها فقط استطيع ان افحصه في رويّة وتعقل...»

كانط الذي يمثل ذروة الفلسفة الغربية وصاحب العديد من الاعمال الفلسفية العملاقة الباهرة: (نقد العقل المحض) و(نقد العقل العلمي) و(نقد ملكة الحكم) وغيرها من النصوص الفلسفية التي تحتل الذروة في الفكر البشري...

كانط ذاته صاحب العقل الفذ: يستغرق في قراءة رواية الى درجة الذهول وينتشي بجماليات هندسة اللغة الى حد الافتتان..

والنماذج الباذخة التي تمثل التنوع المعرفي كثيرة في الحضارة

المعاصرة رغم ما يقال عنها إنها حضارة التخصص فاذا كان اينشتاين نموذجا لعالم الفيزياء المثقف وكانط نموذجا للفيلسوف المثقف فان اندريه مالرو نموذج للاديب الذي تنوعت معارفه واهتماماته بشكل يصفه مؤلف كتاب (اهم مائة شخصية) بقوله:

«... كان أندريه مالرو متحركا خلال تشكيلة مدهشة... انه شاعر.. ناثر.. عالم آثار.. ثائر.. كاتب روايات خيالية.. طائر محارب.. مقاتل بالمقاومة.. ناقد... فيلسوف الفن.. وزير استعلامات.. فوزير الثقافة...»

واندريه مالرو نفسه يرى ان العبقريات الخلاقة هي دائما ذات تنوع معرفي ويرى ان علامة العافية في الحضارة الغربية المعاصرة استمرار ظهور شخصيات ذات ثقافة موسوعية حافلة بالتنوع والشمول مثل شخصية البرت شفايتزر صاحب الاهتمامات الفسيحة المتعددة والثقافة الواسعة المتنوعة..

فاذا جاز لعامة الناس الاقتصار على معرفة تخصصية ضيقة فان القيادات الفكرية لابد ان تتسلح بثقافة واسعة وعميقة ومتنوعة لان الاقتصار على فرع واحد من فروع العلم يصيب العقل بالضمور..

والناس لا تتبدد طاقاتهم العقلية بسبب التنوع المعرفي ولكنها تضيع في الاستهلاك التافه او في تجميد طاقات الذهن والانصراف الى اهتمامات لا علاقة لها بالعلم ولا بالمعرفة ولا بالنشاط العقلي...

كل فهم اوسع للانسان والمجتمع والكون والحياة وكل الملم اكثر بالاشياء والافكار والاشخاص والمواقف، يضيف طاقة جديدة للقدرات الفردية فالجهالة هي الداء وهي لم تأتنا بسبب الإفراط في التنوع والتوسع المعرفي وإنما أتتنا من التفريط والانقطاع عن مواصلة طلب العلم وتوهم الاكتفاء بالضئيل الذي يندثر بالنسيان ويتلاشى بالاهمال..

الجهالة المستشرية وفقدان المهارات المهنية لم يكن أي منهما ناتجا عن الانشغال بالتوسع المعرفي وانما هما معا الثمرة الخاوية للكسل وتجميد الطاقة واخماد النهم الفطري..

ولذلك فان الاتجاهات التربوية في البلدان المتقدمة صارت تقوم على توسيع الثقافة وتنويع مصادر المعرفة لاعداد العقول للتعامل الواثق مع التطورات المعرفية المتلاحقة وعن ذلك يقول الخبير الدولي في التربية غاستون ميالاريه في كتابه (مدخل الى التربية): «... وأفضل وسيلة لاعداد رجل الغد لمواجهة المركَّب المجتمعي في تطوره السريع هي في توسيع مظاهر شخصيته واعطائها ثقافة عامة رفيعة بقدرما يمكن من الترفيع...»

ولكننا نجهل هذه الحقيقة جهلا يسيء إلى طاقاتنا العقلية فلقد لاحظت على سبيل المثال ان الذين كتبوا في تقويم ابي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في جريدة «الرياض» ركز الكثير منهم على تعدد جوانب ثقافته واعتبروا هذا التعدد عامل نقص بدلا من ان يعتبروه عامل كمال وهم بهذا الحكم الجائر قد غفلوا عن حقيقة بديهية شديدة الوضوح هي ان ساعة واحدة من عمر ابي عبد الرحمن تعدل عاما كاملا من أعمار سائر الناس انه يستوعب في يوم واحد ما لا يستوعبه الكثيرون في أعوام.. انه قد يقرأ في يوم او في أسبوع ما يحتاج الى زمن طويل وجهد جهيد من آخرين..

ان عقلا قادرا على الهضم السريع ليس كعقل كليل تصيبه الافكار بالعسر وتسبب له الارتباك واذا كنا مغرمين بالبحث عن العيوب والتنقيب عما نتوهم انه من نقاط الضعف ونستثقل ان ينجو حتى الافذاذ من الانتقاص فقد كان الاولى ان نفترض ان التنوع المعرفي عنده لم يكن بالقدر الكافي او انه اعطى بعض الجوانب المعرفية اكثر مما تستحق من الاهتمام والجهد والوقت وكان ذلك على حساب تقليص ما تستحقه جوانب معرفية اخرى ذات أهمية مما اخل بالتوازن المعرفي او كما يقول احد المفكرين..

«.. فلابد للمعرفة لكي تنمو ان تتفاعل جميع روافدها.. ولابد ايضا للفكر لكي يثمر ويتبلور ان يتم ذلك من خلال صيغة حوارية تنصهر المفاهيم في بوتقتها...»

ان عمق المعرفة مرتبط ارتباطا وثيقا بالاتساع فالذي يطل من فضاء واسع على كل الآفاق ليس كمن ينظر من خلال ثقب ضيق فلا يبصر الا ما يسمح به هذا الثقب..

وفوق كل ذلك فان فروع المعرفة متداخلة تداخلا شديدا فلا يكتمل أي جانب منها الا بالالمام بالجوانب الاخرى فالتاريخ والادب وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد - لازمة وضرورية لكل من يريد ان يفهم حركة المجتمعات ويفسر التاريخ.. وكذا كل ما يتعلق بالانسان نفسا وعقلا ووجدانا وسلوكا.. وهذا مثال واحد على التلازم في المعرفة بين العمق والاتساع فالعقل كل لا يتجزأ والمعرفة وحدة لا تنفصم.

«الرياض» الخميس ٢ شعبان ١٤١٤هـ - ١٣ يناير ١٩٩٤م - العدد ٩٣٣٤.

خطورة النظرة الجزئية

الحياة الراشدة تقوم على النظرة الشاملة المتوازنة التي تأخذ بالاعتبار كل جوانب الأشياء والأشخاص والأفكار والأحداث والمواقف فلا تغفل جانباً لحساب جانب آخر ولا تركز على عنصر واحد وتهمل العناصر الأخرى..

إن النظرة الجزئية تختزل الأشياء وتشوه الأعمال وترتكب عدواناً في حق الأشخاص وتخفي جوانب هامة من الأفكار والأحداث والمواقف وبذلك توقف نمو المعرفة وتعوق ازدهار الحياة وتوقع الظلم على كل شيء تتناوله..

إن الاختزاليين لا يبصرون إلا ما حددوه سلفاً من زاوية واحدة ضيقة ويتناسون ان الرؤية العادلة تستوجب رؤية الأشياء من كل الجهات والاحاطة بالأمور من كافة الزوايا فالأشخاص عندهم كمال مطلق أو نقص مطلق والأشياء في نظرهم نفع محض أو ضرر صرف..

وبهذه النظرة الجاهلة المتعجرفة يحكمون على أمور كبيرة وكثيرة ومعقدة بمنتهى الجرأة والفجاجة والانتهاك..

بينما أن تعقيدات الحياة وتعدد أسباب الأشياء وتداخل الأمور تقتضي أن ندرك ان الكمال والنقص والخطأ كلها أمور نسبية فليس في أمور هذه الحياة الدنيا ولا في أشيائها ولا في أشخاصها: كمال مطلق ولا خير محض وإنما الكمال يقاس بمقدار انخفاض عناصر النقص ورجحان نقاط الكمال فلا يوجد كما قال بول كلافال: «... حل كامل في عالم غير كامل...».

إن النظرة الناضجة هي التي تتعامل مع الواقع بأشيائه وأشخاصه بعد

ان تدرك استحالة الكمال المطلق لأي مخلوق فلا شيء يتمحض للخير ولا للشر ولا شيء يخلص للنفع ولا للضر ولا مخلوق يبلغ درجة الكمال وإنما في كل شيء جوانب نافعة وأخرى ضارة فيكون القبول أو الرفض ليس مبنياً على توهم المحض أو الكمال وإنما يكون قائماً على التغليب والترجيح فلا تزدهر حياة أي مجتمع إلا إذا أخذ من كل شيء خير ما فيه وتحمل بأريحية ما قد يشتمل عليه من ضرر..

تجربة الحياة وبداهة الواقع كلتاهما تؤكد ان في كل شيء خيراً وشراً وفي كل انسان كمالاً ونقصاً فالكمال المطلق للخالق وحده والذين يريدون الناس بدون أي نقائص هم انفسهم مثخنون بالنقائص وأشد نقائصهم توهمهم الكمال المطلق لأنفسهم وتوقع الكمال من الآخرين.

إنهم يقيمون احكامهم على أساس مطلب واحد إنهم ينظرون إلى كل شيء من خلال معارفهم المحدودة وتجاربهم الضحلة ونظرتهم الضيقة والانكى من ذلك أنهم مأسورون بمصالحهم ورغباتهم وهي بمثابة الثقب الذي يطلون منه على كل ما يصادفهم في الحياة من الافكار والأعمال والاشخاص والمواقف فالميزان عندهم محكوم فقط برؤية متحيزة ضيقة إنهم مرتهنون بنظرتهم الجزئية الجائرة فيلفون كل شيء لا يوافق أهواءهم ومع ذلك يتوهمون أنهم قمة في الاخلاص والنزاهة والصواب والموضوعية والحكمة..

إنهم يخفون عن الآخرين حقيقة حالهم بل في احيان كثيرة يوهمون انفسهم بتجردهم وإخلاصهم ويبقون متلبسين بالعدوان وتزكية الذات معاً وهذه أخطر صور العدوان على الحقيقة..

إن نظرتنا إلى كل فرد في أفكاره وأعماله ينبغي أن تكون شبيهة بنظرة المعلم حين يقوم بتصحيح أوراق التلاميذ في الامتحان فالذي يكون صوابه أكثر من خطئه يعتبر ناجحاً والذي تكون مزاياه أكثر من عيوبه يعتبر متميزاً ومن تتساوى فضائله ورذائله يكون من ذوي الفضائل وكلما ارتفع نصيب الفرد من الفضائل وجب أن يعد من أهل الخير والنبل..

أما توقع أن يكون الفرد كمالاً تاماً فهو دليل على الجهل بأبجديات الطبيعة البشرية وعنوان على الفجاجة المزرية..

والذين يتوهمون في أنفسهم الكمال هم أبعد الناس عن الكمال والذين يستنكفون من الاعتراف بالنقص البشري الملازم للجميع هم أشد الناس تلبساً بالنقائص وأظهرهم لجاجة ورعونة وسوء خلق..

فمن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه

وكذلك الشأن في تقييم الأشياء والأعمال فما كان نفعه أكثر من ضره يعتبر من الأشياء النافعة أما إدراج الأشياء في قائمة الضرر فيقوم على مبدأ: (.. وإثمهما أكبر من نفعهما..)

إن أحكامنا بالحسن أو بالقبح وبالصواب أو الخطأ وبالكمال أو النقص تكون مرتهنة بحيثيات هي في الغالب من نتاج رغباتنا ولذلك فإن الذي نعتبره حسناً قد لا يكون كذلك في واقع الأمر ولا في نظر الآخرين..

وما نُصر على أنه صواب مطلق قد لا يكون نصيبه من موافقة الحقيقة سوى نصيب ضئيل ولا يوجد أي سبب مقبول يبرر لكل فرد الإصرار على اختزال كل شيء وفق أهوائه مهما بلغت ثقته بصواب موقفه لكن الإنسان كما وصفه الله ظلوم جهول وهو لا ينعتق من هذا الوضع المشين إلا إذا وعاد واعترف به واستفرغ طاقته من أجل الانعتاق منه..

إن الأشياء لا تكون خيراً محضاً ولا شراً صرفاً وإنما في الغالب تشتمل على الخير والشر معاً فالماء والهواء والحرارة هي المصادر الطبيعية الكبرى للطاقة التي تقوم عليها الحياة وهي كلها تشتمل على منافع هائلة وأضرار كبيرة لكن منافعها أكبر من أضرارها.

جاء في كتاب (منظومة العقل البشري): «... إن ظهور الأضداد والنقائض في مجال الطبيعة وفي مجال الفكر إنما هو صورة من صور التوازن..».

أجل: إن الحياة تقوم على مبدأ التوازن فالنفع والضرر يقومان على قاعدة الترجيح وليس على خلوص الأشياء للنفع أو الضرر.

والفرد الذي يواجه مسؤوليات الحياة وهو لا يعرف هذه الحقيقة الضخمة لا بد ان تمنى مساعيه بالفشل ويبقى يتعامل مع ذاته ومع الآخرين ومع الوجود وهو يجهل أكثر الحقائق لزوماً لصيرورة الحياة..

والمجتمع الذي يخوض تجربة الحياة بدون أن يدرك هذه الحقيقة الكبرى البديهية هو مجتمع ساذج وبدائي ويفتقر إلى أبسط مقومات الرؤية الحضارية الواعية التي لابد منها للنمو والازدهار..

الفيضانات التي تعرضت لها فرنسا وبريطانيا وغيرهما من البلدان الاوروبية ألحقت بالناس وبالمدن وبالمنشآت وببعض المزارع أضراراً كبيرة لكنها بوجه عام كانت ذات نفع كبير..

إن الأمم المتحضرة لا ترى تعباً من الضرر الذي يصحب النفع ولا

تحتج على الصعوبات التي ترافق الخير لأنها تعلمت ان الحياة لا تقوم على الخير المحض وإنما يكون الشيء خيراً حين تزيد منافعه على أضراره ويعتبر الشيء شراً حين تزيد أضراره على منافعه..

إن المجتمعات المتقدمة ذات التجربة السخية قد تربت على أن الخير في هذه الحياة الدنيا لا يأتي صافياً خالياً من الكدر وإنما لابد دون الشهد من إبر النحل..

أما المجتمعات التي تجهل حقائق الحياة فإنها تتوهم ان الأشياء لابد أن تكون بيضاء خالية من أي سواد او سوداء خالية من أي بياض..

وعلى سبيل المثال حين اقيم السد العالي بمصر حاول المؤيدون ان يعتبروه انجازا كله خير واستمات المعارضون من أجل إثبات انه كارثة وانه شر لا خير فيه..

كانت فيضانات النيل تغمر الاراضي الزراعية فتعيد إليها الخصوب المفقودة وتزيل الأملاح المتراكمة غير أنها كانت تتلف الكثير من الزروع والمنشآت وتجتاح الكثير من المدن والقرى وفوق ذلك فهي تمر سريعاً لتذهب إلى البحر كانت المياه الثمينة التي تتدفق سنوياً إلى البحر تصل إلى مائة مليار متر مكعب تضيع هدراً رغم ان الناس بأمس الحاجة إليها..

يقول المهندس عبدالمعطي علي باشا: «.. تأتي مياه نهر النيل في فصل الفيضانات كل عام غزيرة متدفقة وينساب معظمها إلى البحر دون الانتفاع بها وهي في طريقها إليه قد تهلك الحرث والنسل وتهدد القرى والمدن في حين أنها تشح في فصل الصيف....».

غير أنه بواسطة السد العالي تم حفظ هذه الثروة الثمينة الهائلة بدلاً من أن تضيع في البحر وأصبح تصريف هذه المياه العظيمة يتم حسب الحاجة وعلى مدار السنة بشكل: «... إيراد ثابت تتفق تصرفاته مع الوفاء الكامل بالمطالب الزراعية في كل المواسم....».

وقد استعرض المهندس عبدالمعطي علي وغيره من الدارسين: مزايا المشروع الكثيرة وفوائده العظيمة التي من بينها توفير طاقة كهربائية ضخمة كانت مصر بأمس الحاجة إليها..

وعموماً فالمشروع إنجاز عظيم كان المفترض أن يحصل اتفاق على اهميته لمصر وضرورته وجدواه غير أن المجتمعات التي مازالت تعيش عقلية الصياد تتصيد ما تتوهمه عيوباً ثم تبالغ في تضخيم هذه العيوب الوهمية لتحيل الإنجاز العظيم إلى كارثة مفزعة...

إن النفوس التي تربت على الاهواء لا تستطيع أن تنظر إلى الأمور نظرة

موضوعية ولا ان تقييم الأشياء تقييمهما عادلاً بل إن الأعمال والأشخاص يتم تقييمها حسب الرغبات فالذي يوافق الهوى يكون خالياً من كل نقص أماالذي يخالف الرغبة فيوصم بأنه خال من أي نفع..

ولكن الغالب ان الناس يبالغون في تضخيم العيوب أكثر مما يبالغون في تأكيد المزايا لأن الانتقاص يجد قبولاً في النفوس اكثر مما يجد الثناء حتى ولو كان الثناء حقاً وهذا العدوان من أشد أسباب تخلف المجتمعات حيث يتم اسقاط كل النماذج الجيدة من الأعمال والأفكار والاشخاص..

والعرب حين قالوا: «.. إذا مدحتم فأقصروا وإذا هجوتم فأطيلوا فالشر لا يُمل...» كانوا يُشهرون ظاهرة عامة مستشرية وبالذات ظاهرة عربية متأصلة تمتد عبر العصور وتتوارثها الأجيال ويتربى عليها الناشئون..

فالسد العالي بولغ في تضخيم عيوبه وإخفاء مزاياه من أجل إثبات أنه ليس إنجازاً عظيماً وإنما هو كارثة كبرى حتى لقد قيل إن المياه الهائلة في بحيرة السد العالي قد أثقلت كاهل القشرة الارضية وأنها من أسباب الزلازل التي اصابت اليمن قبل بضعة أعوام..

صحيح ان الفيضانات قبل السد كانت تجدد خصوبة التربة وكانت تغسل الأرض دورياً فتزيل الاملاح وتعيد إليها شبابها وحيويتها .. لكن الصحيح ايضا ان مزايا المشروع أعظم بكثير من عيوبه وان منافع السد أكثر بكثير من اضراره والحياة تنهض بالترجيح وليس بالكمال..

إن الأمم المتحضرة لا تجهل أضرار السدود بل هي تعلمها تمام العلم غير أنها توازن بين الأضرار والمنافع فإذا وجدت ان المنافع أكبر عمدت إلى تشييدها فكل دراسة عن أي سد لا بد ان تستعرض المنافع والأضرار معاً فهي لا تفترض النفع المحض وإنما تضع في حسابها جوانب الضرر وعلى ضوء ما تسفر عنه الموازنة بين المنافع والأضرار يكون الإقدام والأحجام..

أما في المجتمعات المتخلفة فإن صاحب الفكرة أو مقدم الاقتراح أو منفذ المشروع لا يستطيع أن يعترف بالعيوب بجوار المزايا لأن العقول الفجة لا تتصور اجتماع العيوب والمزايا معاً في شيء واحد بل كل شيء في نظر المجتمعات ذات التجربة الضحلة والرؤية القاصرة إما أن يكون سطوعاً باهراً من المزايا أو انطفاء شاملاً من العيوب أما قاعدة الترجيح فغير معترف بها ومبدأ التغليب لا يخطر على بال أحد ولذلك يضطر كل صاحب فكرة جيدة وكل قائم بإنجاز نافع ان يستجمع كل الطاقات من أجل إبراز المزايا وإخفاء العيوب لأنه أمام خيار واحد فالناس لا تعرف سوى اللون الأبيض أو اللون الأسود رغم سواد القلوب وعفن النوايا وسماجة

السلوك.

أما المجتمعات الناضجة فهي تضع في حسابها كل جوانب النقص وجميع احتمالات الضرر وتقارنها بالمنافع فتقدم أو تحجم فوق ما تتمخض عنه المقارنة ففي مجال السدود مثلا الذي تحدثنا عنه نجد أن آلان كالين في كتابه عن (السدود والانهار) قد عقد فصلاً عن (المشاكل) وفيه يقول: «.. لا شك في أن السدود أعمال مفيدة .. لكن السدود يمكن أن تسبب المتاعب ايضا فإن لها مشاكلها ومضارها...».

ويستعرض بعض الأحداث المرعبة التي نجمت عن انهيارات السدود في الولايات المتحدة الامريكية وفي فرنسا واسبانيا وغيرها..

ليس هذا فحسب بل إن السدود قد تستخدم للتهديد الدائم حيث يمكن ان تصبح وقت الحروب مصدراً لدمار شامل حتى ان كوريا الشمالية انشأت على حدود كوريا الجنوبية واحداً من أضخم السدود في العالم من أجل ان تستثمره أولاً كخزان عظيم للمياه ولتجعله سلاحاً مرعباً ضد كوريا الجنوبية فعند نشوب أي نزاع خطير تستطيع كوريا الشمالية أن تغرق كوريا الجنوبية بفتح فيضان مدمر من هذا السد العملاق..

وإغراق الناس وتدمير المدن عن طريق السدود وقت الحروب ليس مجرد احتمال فقط وإنما حصل فعلاً في الحرب العالمية الثانية فسلاح الطيران البريطاني: «... نسف ثلاثة سدود المانية محدثاً فيضانات رهيبة .. كذلك حطم سلاح الطيران الامريكي سدا في ايطاليا سنة ١٩٤٤م فغمر الجيوش الألمانية بالماء...».

إن وسائل التدمير المتوفرة حاليا تتيح بضربة واحدة: «.. دك السدود الكبرى وحينئذ تتفجر المياه كأنها الجبال فتأتي على الحرث والنسل بصورة لا تخطر على بال...».

ورغم ذلك فإنه كما يقول آلان كالين: «... من الحماقة أن نحرم أنفسنا من مزايا السدود الكبيرة لانها تمثل أخطاراً .. وهكذا فإنه دون إنكار للأضرار الكبرى .. فلا بد من المضي في بنائها .. أما التوقف عن بناء السدود فإن معناه إعاقة اقتصادياتنا إنه يكون أشبه شيء برفض ركوب السيارات لأن بعض الناس قد أصيبوا في حوادث التصادم.. لابد من تقبل شيء من المغامرة إذا كنا نريد التقدم فإذا كنا نحتاج إلى الطاقة الكهربائية ونريد ان نتحكم في الفيضانات ونوفر ماء الري لمزارعنا فلا بد لنا من بناء السدود متقبلين الأخطار التي تنجم عنها..».

إن الحياة تنهض بالترجيح وليس بالكمال فالفوز الذي يتم بالاقتراع

يكون في معظم الحالات بأغلبيـة ضئيلة وهذا ليس إلغاء للمعـارضة ولكنه تغليب لرأي الأكـثرية وهذا يشبـه ترجيـح المنافع إذا زادت عن الأضرار...

وحتى في الحياة الآخرة يقـذف في النار من زادت سيئاته عن حسناته رغم أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها فقط بل إن الله تعـالى يقول: ﴿... نتـقـبل عنهم أحسن مـا عـملوا ونتجـاوز عن سيئاتهم..﴾.

فإذا أقبلنا على الحياة ونحن نعلم أن اليسر مقترن بالعسر وان الشفاء يأتي بعد الألم والنجاح لا بد ان تسبـقه المكابدة والنفع لا يكون خـالياً من ضرر...

إذا أقبلنا على الحـياة بهذه الرؤية الواعـية استطعنا التـعامل مع الواقع بمهارة ومقدرة وإقدام فالحضارة كـما يرى وايتهد وتوينبي وغيرهما من دارسـي الحـضارات: تزدهر بالمغـامرة في تعـبيـر وايتهـد وبالاستجـابة للتحدي في تعبير توينبي..

إن أشـعة الشمس شـرط جوهري لنمـو النبـات واخضـرار الأوراق فالتمثـيل الضوئي من أهم حلقات دورة الحياة غير أن هذه الأشعـة نفسها هي التي تحرق النبات وتحيله إلى هشيم تذروه الرياح..

الأطبـاء يطلبـون تعريض الأطفـال لأشـعة الشـمس من أجل تنشـيط فيتـامين (د) الذي لابدمنه لبناء اجسامهم .. لكن تعريضـهم الزائد لأشعة الشمس قد يسبب لهم ضربة الشمس أو نمش الجلد أو غيرهما..

النار من أوضح النماذج التي تبرهن على أن الأشياء تشتمل على المنافع والمضار معاً، فـالنار تخدم الإنسان في منافع لا حصـر لها لكنهـا أيضاً مصـدر أضرار لن تنقطع ومن أمـثلة الضرر انه قبل أيام انـدلعت النيران الهائلة في إحدى غـابات استراليا وامتدت إلى مساحات شـاسعة وطالت أضرارها الناس والمنشآت وتدفق اللهب المروع إلى المدينة الكبرى..

وليس هذا الحريق المدمر هو الحريق الأول ولن يكون الأخير ولا بد أن في الدنيـا الآن حرائق كـثيـرة في أمكنة متباينة في المدن والغـابات وفي المصانع والمستودعات وفي المتاجر والمنشآت...

وليس هذا هو جانبها الضار فقط وإنما هي جشعة إلى أبعد الحدود في استـهلاك الأكسـجين فالنار تلتـهم هذا العنصر الحيـوي بشراهة فظيـعة فكلما اتسع استخدام النار كان ذلك من أسباب الاختلال البيئي..

ومع كل هذه الأضرار الكثيـرة والمستمرة فإن البـشرية لا تستطيع أن تستـغني عن النار أبداً حتى ولو افتـرضنا أن بمقدورها ان تستـغني عنها

فإنها لن تفعل ليس فقط من أجل الطهي والتدفئة والإضاءة ولكن من أجل استمرار الحضارة فلولا النار لبقيت البشرية في الحالة البدائية ولذلك فإن اكتشاف استخدام النار يعتبر من المنعطفات العظمى في الحياة الإنسانية فلولا النار لما عرف الناس التعدين ولولا التعدين لظلت البشرية بوسائلها البدائية..

بل إن التبخر الناتج عن الغليان كان المفتاح الذي فتق الذهن البشري إلى اختراع الآلة البخارية ثم تلاحقت الاختراعات حتى وصلت إلى المقذوفات عابرة القارات وإلى المحركات الانفجارية التي مكنت الإنسان من الانفلات من قبضة الجاذبية الأرضية والانسياح في عوالم الفضاء الأرحب...

وأقرب مثال على تداخل الضرر مع النفع: استخدام الأشعة السينية كعنصر هام في الاستشفاء والضرر هنا أكيد وليس مجرد احتمال وهو ضرر لا يقتصر على المرضى وإنما يمتد إلى الأطباء والمرضين والفنيين الشعاعيين وفئات كثيرة تتعامل بهذه الأشعة التي تنطوي على النفع والضرر معاً..

الأدوية ذاتها هي علاج للأمراض لكنها قد تتسبب في أمراض غير أنه لا مناص منها لأنه لا يوجد أي شيء في الدنيا خير محض وإنما يأتي الغيث مصحوباً بالعواصف..

على هذه الحقيقة يجب أن تتربى الأجيال من أجل إعداد الجميع لتحمل تبعات مسؤوليات الحياة ومن أجل تهيئة كل الناشئين لمواجهة العوائق ليس باعتبارها نشازاً يحدث الارتباك وإنما بوصفها قاعدة كونية تستثير قدرات الإنسان وتنمي طاقته وتحفزه على المزيد من الوعي والجهد والمثابرة..

«الرياض» الخميس ١٦ شعبان ١٤١٤هـ - ٢٧ يناير ١٩٩٤م - العدد ٩٣٤٨.

تداخل التخصصات والعلوم

العلم البشري شبيه ببناء هائل الأبعاد شامخ الارتفاع متعدد الأدوار وفيه غرف كثيرة بعضها بالغ الاتساع وبعضها شديد الضيق، بعضها يفضي إلى أفنية مضيئة ولها نوافذ متعددة ومخدومة بطرق واضحة وبعضها بفعل ساكنيها تصير مغمورة بالظلام فهي أشبه ما تكون بالزنزانات الخانقة أو الأنفاق المظلمة..

ولكن هذا البناء المدهش بأبعاده الهائلة وارتفاعاته الشاهقة وأدواره المتعددة وغرفه الكثيرة، مترابط الأجزاء سواء في تكوينه الإنشائي أم في استخداماته المتنوعة..

والمتعلمون وهم ساكنو هذا البناء بامتداده الشاسع وارتفاعه الباهظ: لابد ان يتربوا على التزاور المستمر صعوداً وهبوطاً وطولاً وعرضاً .. أما الذين يبقون داخل غرف التخصص المغلقة فسوف تجف أذهانهم وتتيبس روح البحث فيهم .. فالعلم سؤال لحوح وسعي دائم للبحث عن الاجابات الممكنة في كل المواقع وخلال كل فترات العمر..

إن فروع العلم ليست منشآت منفصلة قائمة بذاتها وإنما هي اجزاء أو غرف ضمن هذا البناء الهائل وكل غرفة مفتوحة على ممرات تفضي إلى جميع الغرف الأخرى التي لابد ايضا ان تبقى مفتوحة لأنها تستمد حياتها من هذا الإنفتاح وتتغذى من هذا التواصل..

إن التخصصات فروع من شجرة عظيمة وليست اشجاراً مستقلة فأي فرع يجري بتره من الشجرة فإنه يموت ويجف فالتخصصات لابد ان تتغذى مما تصطفيه الجذور الكثيرة من التربة الغنية التي تستمد

خصوبتها من تعدد العناصر والارتباط بالكل..

إن إهمال وغياب هذا التداخل والترابط والتواصل هو واحد من أكبر أسباب الانيمياء المعرفية التي تعاني منها ذلك ان معظم خريجي الجامعات في المجتمعات العربية لا يلتزمون بهذا التواصل ولا يدركون اهميته الأساسية بل هم في الغالب يعتبرون الدراسة عبئاً ثقيلاً حملوه اضطراراً فيتخففون من هذا العبء متى زال الاضطرار..

أما في العالم المتقدم فإن الدارسين مقتنعون منذ البداية بأن تغذية مجال التخصص من كل الحقول المعرفية هو شرط أساسي لنمو القدرة ووضوح الرؤية وتكوين المهارة الذهنية والعملية..

إن التداخل بين العلوم والترابط بين التخصصات هما السمتان البارزتان في الثقافة الجياشة المعاصرة فالحاجة إلى التزود المستمر من كل الفروع المعرفية أصبحت من المسلمات في المجتمعات الواعية المتقدمة..

وقد أدرك هذه الحاجة الملحة ووعاها وأحس بضرورة التذكير المستمر بها: المثقفون الواعون في المجتمعات العربية فصدرت كتابات كثيرة حولها..

ومن الباحثين الذين يكررون التأكيد على ضرورة التواصل بين الحقول المعرفية الدكتور عماد حاتم .. فلقد تناول هذه القضية في كتابه (مدخل إلى تاريخ الآداب الأوروبية) ثم أعاد مناقشتها بشكل أوسع في كتابه (في فقه اللغة وتاريخ الكتابة) وفي الكتاب الاخير يقول:

«... إن السمة الاجتماعية للغة تحدد ارتباطها الوثيق بمجموعة كبيرة من العلوم كعلم الادلة والفلسفة والمنطق وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس والانتروبولوجيا وعلم دراسة الشعوب بل وهناك عدد من القضايا التي يستحيل على علم اللغة حلها الا بالمشاركة مع العلوم الأخرى مثل قضية ماهية اللغة والترابط بين اللغة والتفكير وأصل اللغة وسوى ذلك..

فلعلم اللغة علاقة وثيقة بعلم الأدلة على الرغم من أن هذا العلم لا يتطرق إلى اللغة من ناحيتها الصميمية لكنه يدرس الادلة والرموز من زاوية كونها وسائل التعبير عن المعاني وأدائها .. وعلم الأدلة يشمل مختلف أنواع الرموز بدءا من الرموز البسيطة كالبرق والاشارات البحرية والجوية واللاسلكية وتنظيم المرور وحتى اكثرها تعقيداً كالبيانات الهندسية والمصورات الجغرافية والفهارس والخرائط واشارات الأصابع لدى البكم وحتى الاشارات التي تطلقها الحيوانات ويستفيد عالم اللغات من دراسة هذه الرموز في امور لغوية مختلفة إذ انها موجهة ـ شان

الالفاظ - للدلالة على معاني معينة كما يستفيد منها ايضا في حل الاحاجي التي خلفتها الحضارات البائدة كالحضارة المصرية القديمة قبل حل رموزها وحضارة الهنود الحمر في أمريكا..»

ثم يشير الدكتور عماد حاتم إلى أهمية التأصيل الفلسفي لاية دراسة جادة ونجد هذا الاتجاه لدى كبار العلماء من أمثال اينشتاين الذي يكرر التأكيد في كتاباته على ضرورة الاهتمام بالفلسفة وخصوصاً الاهتمام بنظرية المعرفة حيث يقول:

«.. أستطيع أن أجزم بأن أقدر من لقيت من الطلاب كانوا مهتمين اهتماماً كبيراً بنظرية المعرفة .. ويميل هؤلاء إلى إثارة المناقشات حول بديهيات العلم وطرقه..».

ويقول اينشتاين في موضوع آخر: «.. ان الصعوبات الحالية للعلم تجبر عالم الفيزياء على الالتصاق بالفلسفة بدرجة أكبر..».

ويكرر القول في مكان آخر: «.. إن التفكير النقدي لعالم الفيزياء لا يمكن ان ينحصر في اختبار مفاهيم ميدانه الخاص..».

وعن ذلك أيضاً يقول فيليب فرانك في كتابه (فلسفة العلم): «.. أعظم المبدعين في علوم القرن العشرين يؤكدون على حتمية وجود رابطة وثيقة بين العلم والفلسفة..»

ويقول: «.. الاهتمام بالجانب الفلسفي للعلم من قبل ذوي العقول الخلاقة الواسعي الخيال.. تذكرنا ان التغيرات الأساسية في العلم كانت دائماً مقترنة بمزيد من التعمق في الأسس الفلسفية..».

وهكذا نجد ان الفلسفة هي أم المعرفة وعلم العلوم وهي الجذر الأكبر الذي تغذت منه كل المعارف وهي الشجرة التي تفرعت منها مختلف التخصصات .. ولذلك يقول الدكتور عماد حاتم:

«.. أما الفلسفة فتمثل الاساس المنهجي الذي تقوم عليه معظم الدراسات الإنسانية واللغوية منها وهي تحدد الاتجاه العام الذي تحل من خلاله القضاياالأساسية في علم اللغة كما تحدد مبادىء دراستها أيضاً ويلاحظ الباحث عامة ان قضايا أساسية في اللغة كاصل اللغة وتطورها وتصنيف اللغات قد حل خلال الابحاث اللغوية من أحد منطلقين رئيسيين في الفلسفة وهما المنطق المثالي والمنطق المادي مما أوجد اختلافا كبيراً في تفسير هذه الظواهر..».

ويواصل الدكتور عماد حاتم ايضاح العلاقة بين علم اللغة وعلوم النفس والفيزيولوجيا والفيزياء والعلاقة العضوية بين اللغة والفكر

وعلاقة علم اللغة بالعلوم الاجتماعية وبالتاريخ وبدراسة اللغات وبالجغرافيا وبالأدب وبعلم التحكم أو علم التنظيم والتوجيه (السيبدنتيك).. فلنترك له المجال ليوضح هذا التعدد في وجوه الارتباط بين اللغة ومختلف العلوم .. وإذا كان هذا شأن اللغة فإنه ليس سوى نموذج للتداخل بين الفروع المعرفية:

«..وتقوم العلاقة بين علم اللغة وعلمي النفس والفيزيولوجيا من خلال دراسة الآخرين للكلام والنطق فعلم النفس يتناول عملية الكلام بصورة صميمة .. وإذا كان كل كتاب في علم النفس يفرد فصلاً من فصوله لدراسة النشاط الكلامي وعمليات الحديث والنطق فإنه إنما يتناول السلوك الفردي لدى الإنسان أما اللغوي فموضوعه اللغة ككل وهو في الوقت نفسه يستقي موضوعاته من الكلام الذي يقرؤه ويسمعه ولهذا كان عليه ان يضع في اعتباره معطيات علم النفس بالرغم من ان كلا من العالمين يتناول الموضوع من زاوية خاصة وما دامت عملية الكلام لا تتم دون جهازي الإرسال والتلقي فإن علم اللغة يهتم بالعلم الذي يطرق هذين الموضوعين ألا وهو علم الفيزيولوجيا الذي يعنى بجهاز انتاج الكلام أو اللفظ وبجهاز التلقي أي الحاسة السمعية.

ويهتم (علم اللغة) بعلم يكاد يكون خاصاً بالفيزياء وهو علم الصوت فلكي يعرف عالم اللغات ما هي الأصوات التي تختارها اللغة لتكوين نظامها اللفظي لابد له من معرفة المواصفات الصوتية المتعلقة بإرتفاع الصوت وشدته وقوته ومدته واستمراره وجرسه الأمر الذي يجعله يتصل بعلم فيزياء الصوت..

أما ارتباط اللغة بالتفكير والعلاقة العضوية بينهما فيحددان ارتباط علم اللغة بعلم المنطق الذي يدرس قوانين التفكير ومظاهره ومن المهم في هذا المضمار دراسة العلاقة بين الوحدات المنطقية والوحدات اللغوية: أي بين المفاهيم والكلمات بين المحاكمات والجمل وبين المقولات المنطقية والنحوية بل ان من العلماء من حاول استبدال التحليل اللغوي بالتحليل المنطقي وما نسميه بـ(التقدير) في النحو العربي وصورة من صور تطبيق البناء المنطقي في التحليل الاعرابي.

وبما ان اللغة لا يمكن ان توجد إلا في المجتمع فإن علم اللغة يرتبط وثيق الارتباط بالدراسات الاجتماعية التي تتناول بنية المجتمع وتطوره بل وقد انتهى الأمر إلى وجود فرع جديد من العلم يسمى علم اللغة الاجتماعي وهو يدرس العلاقة بين اللغة والمجتمع والخصائص الوظيفية

للغة خلال المراحل المختلفة من حياة المجتمع.

كما أن ارتباط تاريخ اللغة بتاريخ الشعب المتكلم بها يطرح العلاقة الوثيقة بين الدراسات اللغوية والتاريخية ومعرفة الشروط التاريخية لتطور الشعب تساعد على فهم خصائص لغته .. إن دراسة تاريخ الشعب التركي والايراني (مثلا) تمهد للباحث فهم أسباب دخول العدد الكبير من المفردات العربية لغة ذلك الشعب ومثل هذه الدراسة توضح أيضاً أسباب دخول المفردات اللاتينية او الفرنسية الجذور في اللغة الانجليزية فقد احتلت الجيوش الرومانية انكلترا في القرون الأولى بعد الميلاد ودخلها النورمان في القرن الحادي عشر وكانت هذه الظروف التاريخية سبباً في تطعيم اللغة الانجليزية بالمفردات اللاتينية والفرنسية وإذا كانت الدراسات التاريخية تساعد علم اللغة فإن الدراسات اللغوية تقدم الكثير من المساعدة لعالم التاريخ إذ تمكنه من النفاذ إلى التاريخ العميق للشعوب وتحدد الأرض التي عاش الشعب فيها آنفاً وعلاقاته بالشعوب الأخرى ونوعيات تلك العلاقة..

وقد وسع علم اللغة آفاقه كثيراً ولم يعد قصراً على دراسة اللغات القديمة بل أصبح العلماء يهتمون بوصف اللغات واللهجات الحية المعاصرة ويجمعون تراث اللغات وفلكلورها لدى مختلف الشعوب ويتدارسون آدابها وأغانيها وأساطيرها وما يرتبط بحياة الشعوب من المساكن والألبسة وأدوات الإنتاج إذ ذاك ظهرت علاقة علم اللغات بعلم آخر هو علم دراسة الشعوب (الانتوغرافيا) واتصلت به دراسة اللهجات اتصالا وثيقا حتى ظهر في الدراسات الانتروبولوجية (علم الاجناس) وهي الدراسات المتخصصة في الطبيعة البيولوجية للإنسان وفي تطوره وأصوله .. وتكتسب المعطيات الانتروبولوجية أهمية بالغة في فهم أصل اللغة ومنشأ النطق والكلام لدى الشعوب التي ماتزال تقف في درجات دنيا من سلم الحضارة الإنسانية وتكتسب دراسة الآثار اهميتها ايضاً بالنسبة لعالم اللغات إذ يساعدنا هذا العلم على معرفة مناطق انتشار اللغات المنقرضة وتحديد هوية المتكلمين بها..

وإذا كانت الدراسات الجغرافية لا ترتبط مباشرة بالدراسات اللغوية فإنها تساعدنا في تفسير العديد من الظواهر اللغوية فالحدود الجغرافية الصعبة التي تحول دون التقاء الشعوب أو الأقليات في منطقة صغيرة تكون نسبياً سبباً للحيلولة دون التفاهم بين هذه الشعوب وبالتالي نشوء اللغة الواحدة المشتركة لديها فداغستان الواقعة فوق منطقة صغيرة في

جبال القوقاز كانت تضم مايزيد على عشرين لغة مختلفة وذلك بسبب الجبال العالية والوعرة التي تفصل بين سكانها وعلى العكس فإن توفر سبل الالتقاء بين الشعوب كثيراً ما يساعد على نشوء اللغة الموحدة وقد لاحظنا ذلك في انتشار اللغة الفينيقية على الشاطئين الشرقي والغربي من البحر المتوسط فقد كانت قرطاج وصور تتكلمان لغة واحدة رغم اتساع المسافة بين المنطقتين ونلمس ذلك حالياً في وحدة اللغة بين الجزر الصغيرة المتباعدة في المحيط الهادي.

أما العلاقة بين الدراسات اللغوية والدراسات الأدبية فقديمة جداً وقد جرت العادة على تسمية هذه الدراسات مجتمعة بالدراسات (الفيلولوجية) والحق أن كلا من العلمين يدرس الكلمة من زاويته الخاصة وإذا كانت الدراسات الأدبية تهتم بالجانب الأسلوبي والبلاغي من الكلمة فإن الدراسات اللغوية تتناول الكلمة من كافة جوانبها - من حيث هي صوت ودلالة ومن خلال كونها كلمة أو موقعها داخل الكلمة وقد درجت معظم الجامعات الأوروبية على الفصل في الكليات الفيلولوجية بين دراسات اللغة والدراسات الأدبية أما الجامعات العربية فمازالت في معظمها تخلط بين الدراستين.

وأخيراً فإن هناك صلة بين علم اللغة والسيبرنتيك هذا العلم الذي يطمح إلى تجميع معطيات العلوم المختلفة وشحن الآلات بثمار ما وصل إليه الفكر البشري ومن هنا ظهرت الآلات الحاسبة التي تسرع العمليات الحسابية التي يقوم بها الإنسان آلاف المرات وذلك عن طريق استخدام التقنية الالكترونية التي لا تخطيء ويحاول العلماء الوصول إلى ما يسمى بالترجمة الآلية التي تعتمد في شطر كبير منها على الدراسات اللغوية.

ونترك العلاقات المتعددة بين علم اللغة والعلوم الأخرى وننتقل إلى الجغرافيا .. فقد لا ينتبه الأطباء مثلاً أن الباحثين في الجغرافيا يشاركونهم في البحث في (التوزيع الجغرافي للأمراض) وهو اهتمام يفيد الأطباء حين يضع امامهم نسبة انتشار الأمراض في المواطن المختلفة ويتنبأ لهم بأسباب الانتشار أو عوامل الاختفاء وذلك بواسطة البحوث الميدانية وعن طريق المقارنة وتحليل الأرقام..

وقد لا يدرك رجال الأمن بأن من ضمن مهام الباحثين الجغرافيين .. بحث (جغرافية الجريمة) حيث يقومون ببحوث ميدانية في تتبع الجريمة كما يقومون بتحليل البيانات والمعلومات المتوفرة عن الجرائم اين ومتى تكثر وتأثيرات المكان والزمان على ارتفاع أو انخفاض معدلات الجريمة..

وقد لا يفطن الناس بأن علم الجغرافيا يشارك علم الاقتصاد في جوانب عديدة من اهتماماته .. وعلى سبيل المثال فإن (جغرافية الموارد والإنتاج) تهتم كما تقول الدكتورة سارة منيمنة: «.. بمناقشة خصائص النشاط الإقتصادي في العالم من حيث الإنتاج والإستهلاك والتجارة الدولية مع ربط ذلك بالعوامل الجغرافية المختلفة من طبيعية واقتصادية وبشرية .. (حيث) تتناول الجغرافية الاقتصادية الموضوع الاقتصادي من زاوية توزيع النشاط الاقتصادي على سطح الأرض والتأثيرات الطبيعية والبشرية التي تتحكم في أشكال الإنتاج والاستهلاك لفترات زمنية مختلفة نتيجة لخلفيات حضارية وتكنولوجية..».

وقد لا يدرك الكثير من الدارسين أن علم الجغرافيا يشارك علم الأحياء في اهتماماته من جوانب عديدة فالجغرافيا الحيوية كما قال الدكتور السيد خالد المطري: «... تختص بدراسة الجوانب الجغرافية لحياة النبات والحيوان وبخاصة توزيعهما والعلاقات المتبادلة بينهما وبين بيئاتهما من الناحيتين الطبيعية والبيولوجية...».

كما نجد أن دراسات جغرافية البحار تهتم بكل ما تشتمل عليه المحيطات والبحار من أحياء وثروات وطرق استخدام المياه البحرية لتوليد الطاقة أو للشرب بعد التحلية .. وبذلك تتداخل هذه الدراسات مع علوم كثيرة..

كما يهتم الجغرافيون بجغرافية الصناعة: توزيعها وأماكن تواجدها وانواعها وأسباب ازدهارها وعوامل تدهورها والصعوبات التي تواجهها وأين تتركز انواع الصناعات مثل الحديد والصلب وأين توجد صناعات تكرير البترول وعوامل التوطن الصناعي وغير ذلك مما له علاقة وثيقة بالتنمية الصناعية في العالم ومناطق وجودها وأسباب هذا الوجود..

إن الجغرافيا تدرس العلاقة بين الإنسان والمكان والزمان والتأثير المتبادل فالبيئة الطبيعية كثيراً ما تكون صعبة وقاسية على الإنسان لكن هذه القسوة تستنفر قدرات الإنسان لمواجهتها والعمل على تعديلها وتطويرها ومن ثم فإن هذا البحث الجغرافي هو في الوقت ذاته بحث في كيفية نشوء الحضارات وتتبع مراحل نموها وأسباب ازدهارها وعوامل تدهورها فالجغرافيا كما قال الدكتور علي وهب: «.. علم يدرس الإنسان والأرض وخاصة الظواهر الطبيعية والعلاقات المتبادلة بينهما من تأثر وتأثير في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعمراني والسياسي...».

وللجغرافيا علاقة وثيقة بتخطيط الحواضر ودراسة الانماط العمرانية

في المدن والارياف ودراسة: «.. توزيع انماط الحياة .. وسبل معالجة مشكلاتها .. كما تهتم في سياسة الإنسان وتطوره السياسي..». وهي لا تكتفي بالوصف وإنما تحاول «.. التحليل والربط والتحليل للظواهر الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من علاقات الإنسان بالبيئة..».

وهكذا تبدو الجغرافيا بشقيها: الطبيعي والبشري .. وكأنها لا تدع فرعاً من فروع العلم إلا وتقاطعت معه وتداخلت فيه .. وهذا ليس خاصا بالجغرافيا وإنما هو نموذج على التداخل بين جميع فروع المعرفة الإنسانية .. سواء في ذروتها الفلسفية أو في تجسيدها التقني والانتاجي.

ولست بصدد تقديم دراسة عن الجغرافيا فالهدف هو ابراز تداخل التخصصات وتكامل فروع العلم وتشابك مجالات المعرفة..

إن تنويع مصادر المعرفة شرط لخصوبة الذهن ولكن لابد ان يرافق التنويع تأصيل فلسفي وفهم لروح العلم والتزام بمناهج البحث وإلمام بالنظريات وكيفية بنائها وادراك لطبيعة المعرفة البشرية واستيعاب للتطور التاريخي وتمييز للتحولات النوعية التي كانت سبباً في نمو العلم.. وبذلك يتكون العقل العلمي وتتضح الرؤية المعرفية وتتجلى مفهومات العلوم ويتخلص الإنسان من الاستجابة التلقائية البلهاء وتتكون لديه قابلية دائمة للنمو والمراجعة والتصحيح..

ولكن الحديث عن العلاقة المتينة بين العلوم لابد ان يكون مصحوباً بحديث عن علاقة أوثق بين الإنسان وبين العلم كقيمة كبرى في الحياة وما لم تتوطد هذه العلاقة الحميمة مع العلم فلا أمل في ادراكه فالعلم معايشة صادقة والانجاز سواء في العلم أو العمل هو المولود النبيل الذي تتمخض عنه علاقة عشق دافق لا يفتر غير أن هذا له حديث آخر إن شاء الله.

«الرياض» الخميس ١٧ رجب ١٤١٤هـ - ٣٠ ديسمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٣٢٠.

التاريخ .. مختبر الطبيعة البشرية

بفهم التاريخ نكتشف طبيعة الإنسان كما أننا بتفهم الطبيعة البشرية نستوعب مغزى التاريخ وندرك دوافع الأشخاص ونبصر أسباب اتجاهات الأحداث..

إننا بواسطة علم الاجتماع نحاول فهم بنية المجتمع وبواسطة علم النفس نقترب من فهم دوافع الأفراد وعن طريق علم الاجتماع وعلم النفس نحاول أن نفهم التاريخ وبفهم تاريخ الأموات نحاول أن نفهم تصرفات الأحياء..

إن فروع العلم هي بمثابة الخيوط التي يكون منها نسيج المعرفة فلا يتكون النسيج إلا بالتداخل والتشابك والالتحام..

ولكن مهما بلغ هذا الالتحام من القوة فإنه يبقى مليئاً بالفجوات ويظل مجرد مقاربات نسبية تحاول الاقتراب من الحقيقة وهي مقاربات محكومة بظروف الفرد النفسية والاجتماعية والمعرفية..

إن الامتداد الأفقي والرأسي للمعرفة الفرديةشرط لاضطلاع المرء بمحاولة الفهم والتفسير لأي شيء يتعلق بحياة الفرد والمجتمع سواء في ماضيه أم حاضره..

ولكن المرء حتى يسعى قدر طاقته: عمقاً واتساعاً لبلوغ الحقيقة يكون مُعرضاً للخطأ في آرائه والجور في أحكامه أما حين يحاول الحكم على الأفكار والأحداث والأشخاص والمواقف بدون أن يملك أدوات المعرفة بكل العمق والاتساع: فإنه يكون قد ارتكب الخطأ والجور منذ البداية..

إن الإنسان لا يجوز له أن يمارس حتى أعمال السباكة أو الخياطة أو

الحدادة إلا بعد أن يتعلم المهنة .. مع أنها أعمال سهلة ولا تنطوي على أي تعقيد ولا يترتب على الخطأ فيها سوى أضرار جزئية صغيرة..

أما الحكم على الأفكار والأشخاص والمواقف والأحداث فهو حكم على أشياء شديدة الخفاء والتداخل وبالغة التركيب والتعقيد ومع ذلك يتساهل الناس في إصدار الأحكام فيها إلى درجة العدوان والوقاحة .. ذلك أنه كما قال جورج اورويل: «.. في الجهل قوة..!!..».

لذلك لا بد أن يتربى الناس على ادراك خطورة الأحكام على الأفكار والأشخاص والمواقف والاحداث وان يكون هم مؤسسات التعليم تأصيل المعرفة واشباع العقول بجسامة المسؤولية..

فالمعرفة ليست اشتاتاً من الوقائع والأرقام ولكنها رؤية متعلقة تستمد وضوحها من معرفة منهجية دقيقة وروافد علمية شاملة ذات نسيج وقوام متماسك محكم واحساس مفعم بالأمانة الأخلاقية..

فالتأصيل المعرفي اذن هو قوام المعرفة غير أننا اعتدنا أن ننشغل بجزئيات المسائل الفردية عن القاعدة التي تتفرع منها هذه الجزئيات فنصبح أسرى المسائل الفردية ولا نستضيء بالقاعدة التي تنتظم الشتات..

وفي التاريخ مثلاً تستغرقنا تفاصيل الأحداث أو جزئيات صغيرة وكثيرة عن الأشخاص دون أن نفطن للدلالة العميقة لهذه الأحداث ودون أن نتلمس الأسباب الخفية التي سارت بها على هذا النحو ولم تسر بها على نحو آخر وبذلك غفلنا عن المغزى الحقيقي للعلم..

ابن خلدون كان صاحب عقل لماح وكانت له في الحياة تجربة سخية وكان منظم التفكير وقد اتاحت له هذه المزايا الرفيعة النادرة ان يستفيد من تجربته وان يضع ملاحظات ضمن خيط واحد ينتظمها جميعاً وان يخرج من كل التفاصيل الهائمة ومن جميع المعارف المشتتة عن التغيرات والأحداث والأشخاص: باكتشاف قوانين عامة تنتظم النشاط البشري في الاقبال والاعراض وفي الاستجابة والرفض وفي الصعود والهبوط وفي الازدهار والتدهور..

لقد كانت محاولة ابن خلدون من المحاولات الرائدة في تفهم الطبيعة البشرية والاقتراب من تفسير الاحداث تفسيراً نفسياً ينهض على تحليل الواقع واستنطاق الأحداث للوصول إلى الأسباب الحقيقية التي تستثير الناس وتحرك التاريخ وتوجه المجتمعات..

ولكن ابن خلدون ذهب دون أن يترك أثراً في تغيير مسار الفكر أو

توجيه مناهج البحث فلم يخلف تياراً نقدياً يواصل تشييد الفكر العربي والاجتماعي أو يوسع دائرة التأصيل المنهجي لتعليل التاريخ تعليلاً واقعياً باعتباره عملاً من اعمال البشر حيث يتم تحليل الاحداث وكشف النوازع وتعرية الدوافع وتفسير التاريخ..

وظل ابن خلدون عقلاً استثنائياً في دراسة التاريخ وفي فهم المجتمع وفي تعليل الأحداث فبقينا مستغرقين بالتفاصيل غافلين عن الدوافع المحركة تستهوينا المقارنة بين الروايات أكثر مما يستهوينا البحث عن علل الاحداث ونطرب بالانتصارات دون ان نستقصي عن أسباب الانكسارات وبذلك ضاعت فائدة التاريخ فلم يصبح عندنا مختبرا للسلوك البشري وإنما هو ملامح للافتخار والتغني حتى في هزائمه وانكساراته وكوارثه..

وليس هكذا تفعل الأمم حيث يقول الفيلسوف الالماني هيجل: «.. ليس المقصود من الفلسفة ان تكون رواية لما يحدث بل معرفة لما هو صحيح في الأحداث .. وعليها ان تفهم خارج نطاق الحقيقة ما يبدو في الرواية على أنه مجرد حدث..».

وليس هذا الشرط مقصوراً على الفلسفة بل ان الهدف من المعارف كلها هو البحث عن الحقيقة فإذا غاب هذا المضمون الأساسي بقيت تفاصيل الاحداث لغواً فارغاً من الجدوى..

ولكي يدرك الإنسان مقدار اللغو الذي تنطوي عليه كتب التاريخ برواياتها المسهبة وتفاصيلها المملة وتحيزاتها الصارخة: فليقرأ تواريخ الامم الأخرى وليحاول أن يقارن بين معالجتها للتاريخ في الوقائع المشتركة مثل ما يكتبه الألمان والفرنسيون حول احداث وقعت بين الجانبين وسوف يرى بشاعة التحيز وصنف الادعاء وتزييف الحقائق وضياع الحقيقة..

وفي هذا تضييع للمغزى وافساد للعقول وطمس للحقيقة كما انه يؤدي إلى استمرار الجهل ونمو التعصب واختفاء العقل النقدي الذي هو قوام كل معرفة..

وبالاضافة إلى ذلك فإن المادة التاريخية تأتي مشحونة بالتفاصيل والاغراق بالجزئيات وتقدم بشكل تقريري جازم لا يدع للدارسين فرصة العطاء والأخذ مما يحيل العقول إلى أوعية للامتلاء وليست مختبرات للتحليل والفحص والرؤية النقدية...

وعن ذلك يقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي في كتابه الذي يحمل عنوان (الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات) وهو كتاب

يقع في جزءين وقد نقله إلى العربية الدكتور عبدالوهاب محمد المسيري والدكتورة هدى عبدالسميع حجازي.. يقول كافين رايلي:

«.. معظم الكتب المدرسية التقليدية عن تاريخ .. العالم تستند إلى الفرض القائل ان الفهم التاريخي يعني امتلاك المعلومات وان عملية التعليم تعني نقل هذه المعلومات للطالب..».

وهو يعترض على هذا الأسلوب التلقيني الجامد.. حيث يتم تقديم المعلومات المعلبة غير مصحوبة بأي بادرة من الشك مما يحيل التلاميذ إلى ذاكرات للحفظ وليست عقولاً للفهم وبذلك يغيب التفاعل الواعي مع الحدث..

ويلفت المؤلف النظر إلى أن الفكر البشري التاريخي لم يأخذ مسار التقدم بانتظام ولكنه مُني بالتراجع في بعض الفترات التاريخية اللاحقة فمن اللافت للنظر أن اليونانيين في عصر ازدهارهم الفكري كانوا يعتبرون دراسة التاريخ طريقة للتفكير وليست مادة للحفظ وأنها دعوة إلى الحركة وليست حثاً على السكون والاستظهار.. وفي ذلك يقول كافين رايلي:

«.. لقد كان اليونانيون القدماء يتحدثون عن التاريخ باعتباره عملية بحث وتحقيق .. التاريخ طريقة للتفكير وللبحث عن التغير الانساني .. أما اليوم فإن التاريخ أصبح موضوعا دراسياً وهكذا أصبح المرء يتعلم التاريخ بدلاً من أن يتعلم كيف يفكر بشكل تاريخي وأصبح يحفظه عن ظهر قلب بدلاً من أنه يفهمه وهكذا فقدنا قدرتنا على التفكير في التغيير..».

ومن المسائل الجوهرية التي أراد كافين رايلي ابرازها: تأكيده على أن المعرفة حركة في العقل وامتداد في البصيرة.. فالمعرفة تخلق لا تعطى وعلى هذا المفهوم تقوم الانطلاقة الفكرية المعاصرة وفي ذلك يقول:

«.. فالمعرفة تخلق ولا تعطى والمصلحة أو المنظور الخاص أو القيم أو الارتباطات هي التي تخلق كل واقعة (من بين عدد لا نهائي من الممكنات الأخرى) كما أننا لا نملك قط كل الوقائع المتعلقة بأتفه حدث كما ان الوقائع المحددة ليست لها قيمة في ذاتها وإنما يكون لها معنى في اطار الأسئلة التي تطرحها وحسب..».

ويثير كافين رايلي قضية أساسية حول مهمة التعليم ليؤكد ان التعليم لا يكون مجدياً إلا إذا هو استطاع ايقاظ العقول وتدريبها على استخلاص الحقائق فالتلقين الجازم يطفيء الأذهان وايهام الدارسين بالاكتفاء يورث الخمول:

«... أمام التعليم فهو معرفة كيف نخلق الحقائق والتفسيرات وكيف نختبرها للتحقق من صحتها.. وكيف نطرح أسئلة مفيدة ونجيب عليها ونخلق معنى ما ونقيّم مدى الدقة ونفكر بشكل نقدي وواضح.. وإذا كان التعليم هو تدريب على التفكير فإن تعليم التاريخ هو تدريب على التفكير في الماضي وفي علاقة الماضي بالحاضر.. (فلابد) ان يشجع الطلاب على مزيد من التفكير بشكل نقدي وجاد وواضح في كيفية تغير الأشياء..».

وهو يرى ضرورة أن يدرك الدارسون: «.. ان كل تفسير تاريخي معين لأي قضية هو قطعاً رأي جزئي وليس اجابة نهائية (فلا بد من دفع) الطالب إلى (فحصها) وإلى ابتكار بدائل لها (ذلك أن) الكتب المدرسية التقليدية (تتضمن) ادعاء بأنها الحجة النهائية...» وهذا يتعارض مع مهمة التعليم في ايقاظ العقول وشحذ الأذهان وتدريب الفكر.

وفي محاولة للخروج من الرتابة التقليدية فإن كافين رايلي: «.. لم يقدم تاريخاً تقليدياً تتعاقب فيه الأحداث تعاقباً زمنياً وإنما حاول أن يستخدم بعض مقولات علم اجتماع المعرفة وحاول أن ينظر للتاريخ باعتباره انماطاً وتشكيلات متكاملة (وذلك من أجل ان) يجعلنا نعايش التاريخ كتجربة لا ان نتأمله وندرسه كشيء خارج عنا.. ان تناول تاريخ الحضارة من خلال موضوعات يفترض وجود وحدة بين الأحداث تتجاوز مجرد التعاقب وتربط بينها...».

وهذه في نظر كافين رايلي هي أحد السبل لإثارة العقول وتوجيهها إلى مكامن المتعة في المعرفة التاريخية أو على حد تعبيره: «.. ان تناول المادة من خلال موضوعات لا ينمي الاهتمام ومهارات التفكير فحسب ولكنه يقترح أيضاً اجابة لمسألة تدريس الحضارة الغربية مقابل حضارة العالم.. (وأيضاً فإن) معظم المشاكل الغربية ليست مقتصرة علينا وحدنا وإذا اهملنا التجارب التاريخية لبقية العالم بشكل كامل فسنكون في حماقة ذلك الذي لا يقرأ سوى الكتب (ذات الأغلفة) الخضراء في المكتبة ان تاريخ الحضارة الغربية قد يخبرنا عن المشاكل الغربية بقدر أكبر مما قد تتيحه دراسة الحضارات الاخرى.. إلا ان تاريخ العالم بأسره سوف يخبرنا اكثر وأكثر عمن نكون وعن كيفية تغير الأشياء وهكذا فإن تناول تاريخ الحضارة من خلال موضوعات بامكانه ان يجعل هذا الاكتشاف ممكناً وممتعاً وذا معنى...».

وهكذا يتم الخروج من الرتابة التقليدية بتقديم المادة التاريخية وفق منهج جديد يستبعد التعاقب الزمني ويعتني بتلمس أسباب التغير ولا

يكتفي بذلك بل يختار من المادة التاريخية موضوعات متباعدة في المكان والزمان والمضمون ليجعل الأذهان أمام مسئولية التعامل الحاذق مع المواد التاريخية ذات التنوع والثراء..

فدراسة التاريخ لا ينبغي أن تكون تلقينا تقريرياً من جانب واستجابة بلهاء من جانب آخر وانما يجب أن تكون جهداً عقلياً متحفزاً يتعامل مع مادة غير جاهزة ليست للتلقي المستكين وإنما هي مادة مفعمة بالأسئلة وخاضعة للبحث والمراجعة والنقد وقابلة لشتى التشكيلات في أي تركيب جديد يكتشفه العقل الناقد.

جاء في كتاب (دراسة التاريخ) الذي أعده مجموعة من المؤرخين الأمريكيين وترجمة الدكتور محمود زايد..

«.. الغاية من وراء البحث في العلم كله: هي المعرفة أو فهم العلائق ومثل هذا الفهم يقتضي في البحث التاريخي شيئاً أكبر بكثير من مجرد ترتيب الحوادث على النحو الذي وقعت فيه زمنياً فتدوين الحوادث على ذلك النحو يمدنا بالاخبار لكنه لا يحمل معه فهماً لعلاقاتها فإذا أردنا فهمها فينبغي علينا أن نكتشف وجوه ارتباطها بعضها ببعض علاوة على ارتباطها من حيث التتابع أو الاتفاق الزمنيين وينبغي علينا بصورة خاصة ان نكشف عن الصلة بين الأحداث من حيث ان بعضها علل وبعضها معلولات.. وبايجاز يتطلب ذلك منا استخدام المفهومات والفرضيات..».

ثم يقول فريق المؤرخين الأمريكيين: «..وظيفة النظرية في التاريخ هي طرح المشكلات واعداد مقولات تنتظم تحتها المعطيات وتهيئة فرضيات يمكن بها اختبار مختلف التفسيرات ووضع المعايير للبرهان.. ولا يمكن لنظرية ان تمد الباحث بأجوبة وإنما الامر على العكس من ذلك أي نظرية تمد الباحث بأسئلة..».

ثم تقول الدراسة: «.. طبيعة التاريخ انه فرع من فروع النشاط الفكري ان الدربة في التفكير حول التاريخ أمر مهم كأي دربة في أي ضرب من ضروب التحليل. فالتاريخ ليس فوضى أو مصادفة لا غير: ذلك أن في السلوك الانساني درجة من النظام والنسق الظاهرين يمكن التنبؤ الجزئي باستمرارهما المنتظم.. (ولكن) لما كان التاريخ شاملاً كل الشمول (فلابد ان يدرك الدارسون أنه) لا يمكن أن يكون لدى المؤرخ مهما يكن لامعاً معرفة وخيال كافيان لإدراك جميع وجوه مادته..».

وهكذا يتضح ان المعرفة التاريخية تأتي في طليعة المعارف الهامة التي نستقي منها كيفية التغير الاجتماعي ونحذق بها صناعة التقدم في كل

ميادين الفكر والعمل ونعرف بها طبيعة حركة المجتمع خلال مراحل التحول الاجتماعي والتطور الحضاري عبر التاريخ..

إن كل العلوم المتعلقة بالإنسان تصبح لغواً ما لم ترشدنا إلى المنهج الأمثل الذي يتيح لنا فهم الطبيعة الإنسانية وادراك محددات السلوك البشري وكيفية استثماره..

فالتاريخ الذي هو موضوع هذا المقال لا يكون مجدياً إذا هو اقتصر على سرد الوقائع وتتبع حياة الأشخاص وإنما يكون عظيم الفائدة إذا هو كشف لنا أسباب الوقائع وانار لنا سبل فهم الأحداث.

إذا كشف لنا ما هي الاهتمامات السائدة في هذه المرحلة أو تلك ولماذا تحرك هذا المجتمع أو ذاك في هذا الاتجاه وعلى هذا النحو ولم يتحرك في اتجاه آخر وعلى نحو آخر بحيث يكون الهدف ليس التبجيل أو التنقص وإنما يكون الهدف الفهم المطلق أي فهم القوانين والسنن التي توجه النشاط الفردي والنشاط الاجتماعي أي فهم القاسم: «..المشترك بين بني الإنسان أجمعين..».

وحول ذلك يقول الفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم: «.. فائدة التاريخ الكبرى هي مجرد الكشف عن المبادىء الثابتة العامة في طبيعة الإنسان..».

فلا معنى للتفاصيل عن حياة هذا الإنسان أو ذاك إلا بقدر ما تتيح لنا فهماً أوسع للطبيعة الإنسانية المطلقة فكل الناس يولدون ويحيون وتكون لهم ايجابيات وسلبيات وتصدر عنهم استبصارات وحماقات ولكن ما هو المنبع المشترك بين كل البشر ما هو المصدر الذي تنساب منه التصرفات وما هو الدافع الثابت العميق الذي يحرك سلوك البشر..؟!.

ومن الظواهر التي تستدعي الانتباه في المجتمع الإسلامي عدم الاستفادة من عبرة التاريخ مع ان القرآن يؤكد على أهمية الاعتبار وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾.

وقد مرت بالمجتمع الإسلامي محن عظيمة فلم يتعظ بها وأوضح مثال على انطفاء الحس التاريخي.. ان المسلمين في الأندلس ظلوا اربعة قرون كاملة واوروبا تسوقهم وتزيحهم من مواقعهم فيتراجعون ولكنهم يزدادون فرقة بينما يزداد المسيحيون تآلفاً فقد استعاد النصارى اولاً (صقلية) وفي عام ١٠٨٥م سقطت (طليطلة) وفي عام ١١٤١م سقطت (سرقسطة) وفي عام ١٢٣٦م سقطت (قرطبة) وفي عام ١٢٤٨م سقطت (اشبيلية) وفي عام ١٤٩١م سقطت (غرناطة) آخر محطات المطاردة الصليبية للإسلام..

إنها صورة مرعبة من صور انطفاء الحس التاريخي حيث امتدت مراحل السقوط اربعمائة سنة ومع ذلك لم تنجب هذه الأمة في الأندلس جيلاً واحداً يتعظ فيدرك خطورة المستقبل فكانت تلك الكارثة المروعة التي تحكي اقتلاع الإسلام اقتلاعا كاملاً من أهم قارات الأرض ثم مذابح الإبادة الوحشية ولكن كل ذلك لم يحمل المسلمين على الاتعاظ ولم يوقظ عقولهم إلى اكتساب شيء من الحس التاريخي..!!.

«الرياض» الخميس ٣ رجب ١٤١٤هـ ـ ١٦ ديسمبر ١٩٩٣م ـ العدد ٩٣٠٦.

أولوية تأسيس
علم الجهل

كلما استمعت إلى طوفان الأحكام التي يصدرها الناس على كافة القضايا وعلى مختلف الافكار والأشخاص والمواقف والأشياء بشكل جزافي وجائر وخال من الاحساس بمسؤولية الكلمة شعرت بأننا نعاني معاناة حادة من وباء التعالم وان الإلمام بعلم الجهل له أولوية كبرى كمدخل أساسي للعلم وكوسيلة لكف أو تخفيف هذا الطوفان الماحق..

وكلما اصغيت إلى جدال بين مختلفين أحسست بالحاجة القصوى إلى تأسيس علم الجهل ليرافق حياة الناشئين منذ البدايات الأولى لطلب العلم وليصطحبوه في كل حياتهم حتى يدركوا ضآلة ما يعرفون قياساً بما لا يعرفون وليكونوا على علم دائم بهفوات النفوس فيحتاطون من تحيزات الذات وينتبهون لتأثيرات الرغبة ويحذرون من تلقائية العادة ويحاولون التخلص في أحكامهم من جاذبية الحب أو صوارف الكره وما لهما من أثر حاسم في تلوين الأحكام..

إن علم الجهل هو المدخل الحقيقي للعلم لأن الناس لا يفطنون أن الجهل في الفرد هو الأصل أما العلم فهو شيء طارىء وضئيل وهش ومع ذلك لابد من المجاهدة الدائمة لاكتسابه فالجهل بلا حدود أما العلم فهو تقميش محدود..

إن الناس قد اعتادوا ان يغفلوا عن قصور معارفهم فيتصدون بمنتهى الاستخفاف للحديث عرضاً عن أمور كثيرة وكبيرة وجوهرية ومعقدة لا تقع ضمن نطاق معرفتهم ولا تضمها دائرة اهتماماتهم دون ان يحسوا بأي حرج ودون ان يشعروا بأي تجاوز..

إن الذي يبدأ التعلم وهو يدرك ان الجهل هو الأصل ويعرف العوائق

الكثيرة التي تحول دون بلوغ الحقيقة لابد ان يجتهد في تحصيل العلم من أجل تجاوز الجهل.. كما أنه لابد ان يحتاط لهذه العوائق ويعلم أنها سوف تظل مصاحبة له في عمره كله .. كما أنه يبقى مدركاً لتعدد احتمالات النقص في معلوماته والخطأ في أحكامه فيظل يسعى في طلب العلم وهو يدرك صعوبة نواله وكثرة صوارفه وتعدد انحائه وامتداد آفاقه وعمق جذوره..

وبذلك يشتد في الطلب وهو يستصحب التواضع في نفسه ويدرك القصور في معارفه فيكون حذراً في أحكامه متسامحاً مع المخالفين له إذا كانوا جادين في طلب الحقيقة ومستعدين لها: بحثاً واستشرافاً..

ولكن التسامح مع المخالفين في الرأي لا ينبغي أن يكون سبباً في ابتذال العلم ولا تسويغ المشاركة فيه بدون معرفة ولا أن يكون مبرراً لاجازة الاقتحام الفج من قبل الطفيليين أو السماح للدخلاء بالاستخفاف بحصون العلم المنيعة.

ان تأسيس علم الجهل سوف يعيد للعلم احترامه الذي لا نماء له بدونه بحيث يعتاد الناس الاحساس بعظمة العلم وشموخ بنائه فلا يحاولون التطاول بالمشاركة إلا بعد استعداد كامل.

فالتسامح مع المخالف شرط لبث المعرفة ونشر العلم والتقريب بين وجهات النظر المختلفة لكن ذلك لا يعني قبول التطفل الفج ولا السماح بالاعتراض الوقح دون استعداد مفعم بالاهتمام يتناسب مع أهمية موضوع النقاش..

ومن الضروري ملاحظة الفرق الشاسع بين الاعتراض من موقع الند المماثل رغم فقدان التكافؤ وبين التساؤل من أجل التوضيح بهدف ازالة اللبس وكشف الغموض وتحديد القصد بحيث يكون الهدف هو المعرفة المحضة واستجلاء الحقيقة المجردة فالعلم هو أثمن ما تملك البشرية.. والحق يجب أن يكون هو المطلب المحض بكل ما ينطوي عليه ذلك من احتشاد في الاهتمام وتجرد عن الهوى وتعظيم للعلم واحترام لحامليه.

فلابد ان يكون المتحاورون على مستوى مقبول من التكافؤ.. والتكافؤ لا يعني الاتفاق في الرأي ولا التساوي في العلم ولكنه يعني وجود الاهتمام المشترك فلا يجوز الدخول في النقاش دون استعداد حقيقي حافل بالاهتمام فمن الضروري ان يكون المخالفون جادّين في تلمس الحقيقة وليس دخلاء فارغين يجادلون بسطحية وعفوية وسذاجة ودون اهتمام حقيقي أو معايشة حميمة..

إن الذي يتصدى للنقاش في قضايا فكرية أو علمية أو اجتماعية لابد ان يكون من الذين تشغل اذهانهم هذه القضايا وإلا فإنه يصبح متطفلاً.. كما

أن هذا التطفل ينطوي على استهانة بالعلم واستخفاف بالمعرفة وامتهان لقضايا الإنسان والوجود وانتقاص لمسؤولية الكلمة واعتداء على الحقيقة واهانة لحاملي العلم وجهل بأصول الحوار..

إن التكافؤ في الاهتمام شرط لأي حوار جاد ولست بهذا أدعو إلى اغلاق النقاش مع غير الانداد ولكنني أرى أننا في مجالسنا نرتكب أشد صور الاستخفاف بالعلم ونبتذل حاملي المعرفة ونجهل ابجديات أصول الحوار..

فحتى حارس المبنى وسائق الشاحنة وصاحب المتجر وبائع العقارات كل منهم يدخل في النقاش مهما تعقّدت قضاياه ويرى أنه ند للذين امضوا اعمارهم في البحث عن الحقيقة.

وفي هذا المجال لابد من التأكيد بأن أي انسان يدخل في حوار أو يشترك في نقاش في موضوع لا يدخل ضمن دائرة اهتمامه هو في الواقع لا يختلف كثيراً عن حارس المبنى أو سائق الشاحنة مهما حمل من شهادات.. لأن استيعاب القضايا يتطلب الاهتمام الشديد والمعايشة الحميمة وبدون ذلك يكون الاشتراك اعتداء على الحقيقة واستخفافاً بالعلم..

ولغياب الالتزام بمقتضيات التفاوت المعرفي وإهمال ما يعنيه التدرج العلمي وبسبب توهم الندية بين الجميع شاع ابتذال المعرفة وانعدمت الفوارق بين من يعلم ومن يجهل وبذلك ضاعت الحقيقة واختلط العلم بالجهل فالذي لديه شيء من العلم لا يستطيع ان يعطي ما لديه من علم لأن المحتاجين لهذا العلم يجهلون هذه الحاجة فإذا هو حاول ايصال ما انتهى إليه من معرفة نافعة أمضى عمره في اكتسابها .. وجد أن الجميع غير مستعدين للإصغاء فكل فرد يرى أنه مساو في العلم لكل فرد آخر مهما بلغ التفاوت إلا في حالات نادرة جداً حين يتحول أحد الأفراد إلى ما يشبه الأسطورة فيتخلى الجميع له حتى عن بداهات عقولهم.

إن الناس في عرفنا ليسوا على مستويات متدرجة من العلم فالجاهلون لا يعترفون لذوي الدرجات الاعلى بهذا التدرج أو هذا السبق ولكنهم يرون أنهم مماثلون لهم تماماً.. فإذا تكلم من لديه علم في شيء يعلمه .. عارضه من لم يسبق أن خطرت القضية على باله وكأنه حوار بين انداد ولا يخرج العالم من هذا الابتذال المهين إلا إذا تحول إلى اسطورة فالناس إما أن يعاملوك بصورة استثنائية فيرفعوك فوق ما تستحق وإما ان يسقطوك تماماً. فالباحث والعالم والمفكر يظل في نظرهم مساوياً في علمه لعامة الناس حتى يحصل حدث عارض فيطفو به من القاع إلى الذروة ليكون أشبه بالاسطورة وهذا منشأ الكثير من اهدار الطاقات العلمية والفكرية

ولهذا تبقى أرفع الطاقات البشرية غير مستثمرة لأن المجتمع لم يدرك اهمية هذه الطاقات الفكرية النادرة .. ولو اننا اعطينا علم الجهل القدر الكافي من الاهتمام لما بقي الفكر هامشياً ولما كانت احكامنا على الناس بهذا المستوى الساذج الذي يجعل الفرد كل شيء أو لا شيء على الاطلاق.

فالأزمة ليست فقط في غياب أدب الاختلاف بين المتعلمين من ذوي الاهتمام المشترك .. وإنما الأزمة الأكثر ضرراً والأشد ايلاماً هي ابتذال العلم بتطاول الجاهلين على المشاركة فيه دون أي استعداد .. وبذلك أوصد الناس عقولهم عن العلم .. فصار حامل العلم غير قادر على أن يفيد فاصيب جهده بالعقم وتعرضت ذاته للامتهان.

فالتعليم في أدائه الحالي يوهم الدارسين بأنه يعطيهم كفايتهم من العلم وهو لا يؤكد ضرورة الانتباه للأبعاد الشاسعة للجهل ولا يوقظ في الدارسين حقيقة ان الجهل سيظل يغمر الفرد مهما بلغ علمه ومهما امتد عمره..

كما انه يغفل اخلاق العلم ويتجاهل كفاح العلماء ولا يزرع في الدارسين حقيقة وجود التفاوت في المعرفة بين الناس ولا يغرس فيهم حقيقة التباين في درجات التحصيل للعلم بين المتعلمين بل يكرس أسباب الانتفاش وينمي الرغبة في السبق والطمع في التغلب ولا يجعل بلوغ الحقيقة هو الهدف.

حتى حين يكرس الإنسان كل حياته للعلم فإن معارفه تبقى ضئيلة قياساً بحجم الوجود وتعقيدات المجتمع ودخائل النفس البشرية ومهام الحياة.

إن الفرد قصير العمر ومحدود الإدراك وضئيل الجهد ومحكوم بعوامل ذاتية وعوامل بيئية.. ومعرفته محكومة بكل هذه الحيثيات فلا يوجد أي سبب يبرر الانتفاش والوثوق والصلف ونفي الآخرين..

إننا باغفال علم الجهل وعدم الاهتمام بعلم العلم نكرس الحماقة ونغرس الغرور ونمهد لتتويج الجهل ونعمل على تزكية التعصب.

إن التنبيه المتكرر لضحالة المعرفة الفردية هو مطلب حيوي لأنه يوقظ في الناس الرغبة المستمرة لتنمية معارفهم كما أنه يجعلهم مدركين للقصور الشديد الذي سيبقى ملازماً لهم مهما بلغوا من العلم وبذلك تنمو فيهم فضيلة مزدوجة هي فضيلة اللهفة الدائمة إلى المزيد من المعرفة والتواضع الناتج عن ادراك الفجوات الواسعة في أية معرفة فردية.

إن جهل الجهل هو أصعب عوائق المعرفة فالذي يجهل جهله لا يحاول أن يتعلم. والذي تغيب عن ذهنه احتمالات الخطأ لا يكون حذراً في اصدار

الأحكام ولا يضع باعتباره ما تلحقه احكامه بالآخرين من أذى ولا ما تسببه للحقيقة من تشويه..

والمعضل في الامر ان الجهل المركب ـ أي جهل الإنسان بأنه يجهل ـ ليس حالة نادرة وإنما هو الطابع العام السائد الذي يسم التفكير البشري لأن من طبيعة الناس أنهم يثقون ثقة مطلقة في ما استقر في أذهانهم من تصورات وما كونوه من آراء وما أخذوا به من اتجاهات.

ولقد فطن رجال الفكر إلى اتساع فجوات الجهل حتى لدى الذين كرسوا كل حياتهم للبحث رغم الالتزام الصارم بمناهج الفكر ورغم وعيهم بأهمية الإلمام بكافة طرق النظر ولكنهم كلما اتسعت معرفتهم ادركوا ان التفكير الفردي يظل متلبساً بمحدودية الطبيعة الفردية وما تمثلته اثناء التنشئة الطويلة التي تتفاوت حظوظها من الجودة والرداءة .. ومن هنا تأتي حيوية تنبيه الأفراد انهم في الغالب مصوغون بتنشئة هي أحادية الرؤية.

حتى حين يكون الفرد على جانب كبير من التفتح وسعة الاطلاع وعمق المعرفة فإن النقص البشري يبقى ملازماً له لأن معارفه محكومة باهتماماته وهو في الغالب لا يرى إلا ما تجسده هذه الاهتمامات.

يقول فيلسوف العلم الشهير كارل بوبر: «إن العمل النموذجي يتطلب تركيزاً لكل المعلومات المتصلة به في ذهن واحد بينما تتميز المشكلات الاجتماعية الحقة بحاجتها إلى استخدام معارف لا يمكن جمعها على هذا النحو في نقطة مركزية»..

فإذا كان المفكر الذي يضطرم هماً وانفق كل طاقته في البحث خلال كل عمره ومع ذلك يبقى عاجزاً عن اختزال كل المعارف اللازمة وغير قادر على تركيزها في ذهنه على النحو الاحاطي الضروري.. فكيف يكون الشأن في الملايين الذين لا تشغلهم الهموم الفكرية ولا تثيرهم قضايا المجتمع ولا تعنيهم تجليات الفكر ومع كل هذا الجدب لا يشعرون بأنه ينقصهم أي شيء فيتصدون لابداء الرأي القاطع في كل شأن..

إذا كان المالكون لكل أدوات المعرفة يحسون باتساع فجوات الجهل ويترددون أشد التردد في إصدار الأحكام .. فكيف يسيغ العاطلون من كل هذه الأدوات لأنفسهم اغراق الناس بالاحكام الاعتباطية الجاهزة..؟!.

ولذلك يرى كارل بوبر ان المعرفة الحقة هي المعرفة التي توقظ الفرد إلى حدود قدرته وتنبئه بحدود معرفته فهي الشرط لبدء التعلم الحقيقي ذلك ان: «المعرفة بحدود المعرفة» .. تكشف للفرد «.. ان المعرفة (الكلية) .. يستحيل تركيزها في ذهن واحد مفرد..»..

إن تأخر تأسيس علم الجهل هو الذي أدى إلى شيوع ما أسماه الدكتور

الشيخ بكر بن عبدالله أبوزيد (التعالم) حيث أفرد كتاباً يحمل عنوان (التعالم: وأثره على الفكر والكتاب).

إن التركيز على الضئيل الذي نعلم بعض خصائصه قد أعمانا عن الابعاد الشاسعة للخصائص الاخرى التي لا نعلم عنها شيئاً.. وبهذا شاع ما أسماه هايك (النزعة التعالمية) ولذلك يرى كارل بوبر ان العالم الحقيقي هو الذي «.. يعلم أنه لا يعلم إلا قليلاً.. ويعرف أن اخطاءنا هي سبيلنا الوحيد إلى التعلم .. ومن ثم فهو يتلمس طريقه خطوة خطوة .. يقارن النتائج التي كان يتوقعها بالنتائج التي تحققت بالفعل وهو يرتقب على الدوام ظهور النتائج التي يرغب فيها ولكنه يعلم انه لا مفر منها (يدرك استحالة الاحاطة الكاملة وتبعاً لذلك يدرك استحالة التجنب الكامل للخطأ) وإنما يحاول تحقيق أهدافه (العلمية والعملية) أياً كانت بأجراء التعديلات الجزئية ثم يعود فيعدلها وهكذا يمضي في تحسينها باستمرار..».

فلا بدأن يدرك كل انسان ان معارفه مهما اتسعت هي معارف انتقائية وليست احاطية.. انها منحازة منذ البدء وحتى النهاية.. وكما يقول كارل بوبر:

«... إذا أردنا دراسة شيء من الأشياء فلابد لنا من انتخاب صفة من صفاته نجعلها موضوعاً للنظر وليس من الممكن لنا ان نشاهد أو نتناول بالوصف قطعة من العالم بكليتها أو قطعة من الطبيعة بكليتها .. والحق أننا لا نستطيع أن نتناول بالوصف أية قطعة بكليتها مهما صغرت من حيث أن كل وصف هو انتخابي بالضرورة .. وبذلك يهمل الكثير من صفاته الأخرى...».

ولا مناص للإنسان الفرد من الاعتراف بعدم قدرته على تجاوز القصور المعرفي.. بل ان العالم ذاته ينهض على اقتصار الفرد على جانب واحد من جوانب المعرفة ولكن بشرط ان يعرف الفجوات الواسعة والعميقة التي تتسم بها معرفته..«.. فالانتخاب هو سبيل العلم في أغلب الاحوال..».

وهذا الانتقاء في المعرفة الذي حتمه اقتسام مهام الحياة أو هذا الاقتصاد الضيق المحدود الذي اقتضته محدودية قدرات الفرد:★ هو الذي أشار إليه بوضوح الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل حين قال: «.. فالتخصص ادعى للكفاءة .. والكفاءة نوع من الإيثار .. ومهما بلغ ضيق أفق التخصص فلابد ان نتسامح معه إذا اتقن عمله...».

إن الضرورة العملية اقتضت توجيه التعليم لتخريج ذوي المهن وترتب على ذلك الرضا عن قزامة قوقعة التخصص والقناعة ببقاء الفرد داخل هذا الأفق الضيق بشرط ان يتقن عمله .. ولكن ماذا نقول حين نكون

أمام أفواج متتالية لم تكتسب العقلية العلميـة ولم تدرك فداحة الجهل ولم تتقن العمل الذي يفترض أن تتقنه..؟!

فالأصل في التخصص ان الفرد المتعلم يعرف أكثر من غيره عن جانب واحد فقط من فروع العلم على نحو شديد الضيق ويهتم بالمعلومات المتعلقة بجزء من ناحية واحدة من نواحي الحياة الكثيرة ذات التشعب والتنوع فإذا خرج عن هذا النطاق الضيق فإنه يصبح مغموراً بالعمى والجهل ولكنه يتغافل عن هذا الواقع فيبيح لنفسه أن يكون له رأي قاطع في أمور ليست ضمن اختصاصه ولا هي ضمن دائرة الاهتمامات التي تشغل ذهنه..

وهذه النقطة تناولها المفكر الفرنسي جان فوراستيه في كتابه الذي يحمل عنوان (معايير الفكر العلمي) تناولاً مفصلاً وفيه يقول:

«.. إن جسامة الجهل هي أول المعالم التي تستوقف الانتباه .. فنحن نقضي شبابنا في التعلم فلا نتعلم إلا واحداً من مائة ألف جزء مما تعرفه البشرية مع ذلك فإن معرفتنا هذه إذا ما جوبهت بما كنا نود معرفته بأنفسنا في سياق حياتنا القصيرة لا تقاس إلا ببضع شجيرات في غابة شاسعة..».

«... إن حوالي ثلثي حملة الشهادة الثانوية قد أوصدوا السبل التي كانت قادرة على أن تقودهم إلى فهم قانون علمي واحد على الأقل فهماً جدياً..».

«... إن أي اعداد مدرسي أو جامعي لا يعطي اليوم وسائل تتبع حركة الأفكار العلمية .. فليس القليل من الناس هم القادرون على فهم اينشتاين فحسب بل ان هؤلاء القلائل لا يمكنهم فهمه إلا إذا عرفوا عن مجالات واسعة من مجالات المعرفة .. ونحن نعرف التصريحات بالجهل لأكابر العلماء..».

وإذا كان الامحال الذهني شائعاً في فرنسا التي كانت ومازالت مصدراً للعلم والفكر.. فماذا يمكن أن يقال عن الدارسين في العالم الثالث..؟!

ولذلك تشتد الحاجة لتأسيس علم الجهل من أجل أن يبدأ الدارسون رحلة التعلم باستيعاب الأبعاد الشاسعة للجهل.. وليدركوا ان المعرفة ليست شهادات نحتمي بها ولكنها ولع حقيقي بالعلم واشتياق متجدد بالكشف ورغبة عارمة في الفهم وعشق دافق للحقيقة.

«الرياض» الخميس ١٩ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ - ٢ ديسمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٢٩٢.

ذبول عشق الحقيقة

.. ما سببه ..؟

الواجب الأول للإنسان أن يسعى جاهداً لبلوغ الحقيقة وأن يحرص على التحقق منها وأن يلح في طلبها.. لكن الواقع أن معظم الناس لا يفعلون ذلك بل هم مستغرقون في التنافس على المصالح والتزاحم على النفوذ ويظهرون في ذلك فطنة حادة حتى عند أشدهم تغفيلاً..

ولكن هذه الفطنة الحادة التي يبدونها في التنازع على المصالح والتزاحم على النفوذ تتحول إلى تغفيل ذريع عندما يتعلق الأمر باستكشاف الحقيقة..

ذلك أن قدرات الإنسان العقلية تتركز حيث يتركز اهتمامه .. وتنمو حيث تنمو رغبته .. وتشتد حدّتها حيث يشتد اشتياقه..

والتقاليد في كل مكان نمّت في الناس عشق المصالح الآنية الخاصة فصرفتهم بذلك عن عشق الحقيقة .. وأغرتهم بالتزاحم على النفوذ فأطفأت فيهم ذلك الشوق الفطري لطلب الحقيقة..

قلة قليلة من الناس تبقى الحقيقة هي عشقها الأول وهي انسها الدائم وهي همها النامي وهي مطلبها الذي لا يتغير ولا يفتر ولا يحور.. وهذا هو منطق العقل ومقتضى الواجب..

غير أن الدارس للتاريخ خلال كل العصور وفي جميع الأمكنة يصاب بالدوار لكثرة ما يرى من ضياع الواجب بسبب ضغط الواقع .. وخفوت صوت الحقيقة وسط ضوضاء الأهواء..

وإذا هو قارن ذلك بما يجري في الواقع الراهن المعاش في كل بقاع الأرض تيقن أن التنازع على المصالح والاختلاف على النفوذ قد هيمنا على الحياة البشرية هيمنة تكاد تكون كاملة وهذا هو السبب الرئيسي لذبول

عشق الحقيقة لأن هذا الاندفاع العام العارم قد أبعد الحقيقة عن دائرة الاهتمام البشري.. سواء على المستوى الجماعي أو الفردي.. فالتيار الصاخب كله يدور حول المصالح الآنية .. والاهتمام الجياش كله متمركز حول مواقع النفوذ مما جعل الحقيقة تتوارى عن الانظار وتقبع في أذهان قليلة استطاعت أن تستعصي بإرادة تلفت النفوس التائهة المحصورة بركائم التبرير والادعاء..

والتنازع على المصالح والاختلاف على مواقع النفوذ ليس مقتصراً على التكتلات الكبرى أو بين الأمم والشعوب والفئات والطوائف ولكنه يهيمن على حياة معظم الافراد مما جعل الحياة البشرية تتجه اتجاهاً خاطئاً وان تصبح مفعمة بالعداوة والاحقاد والنكد فالكل طامع والكل متوجس..

وليس الدافع الحيوي الغريزي هو الذي يدفع الأفراد إلى الانغماس في هذا الصراع السخيف.. وإنما العادات المتوارثة هي التي تزكي هذا التنافس وتؤجج هذا الكيد.. فصارت الأجيال في كل المجتمعات تتوارث خليطاً منافياً للعقل من أسباب الصراع وتضيف إليها في كل جيل أسباباً جديدة للقطيعة والكره وبذلك أصبحت البشرية أشبه ما تكون بقطار خرج عن مساره لأنها بفعل التقاليد صارت تتصرف بمقتضى قيم مقلوبة وتتحرك بتحريض معايير مختلة...

وقد جاء التأكيد على هذا الواقع البشري في القرآن الكريم بوضوح شديد: ﴿وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله...﴾ ،﴿... وقليل من عبادي الشكور﴾ و﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾.

كما نجد أن الفلاسفة والمفكرين والباحثين عن الحق قد تجلى لهم هذا الواقع البشري الكئيب وراحوا يعبرون عن ذلك بمختلف صور التعبير..

ولم يغب عن بالهم ان هذا الاجماع البشري في التنازع على المصالح الآنية والتزاحم على النفوذ هو السبب في وقوع الناس أسرى لهذا الوباء العام فالناس يقلد بعضهم بعضاً وهم يتوهمون أن الاجماع البشري دلالة الصواب ولذلك حاول الفلاسفة والمفكرون تفنيد هذا الوهم..

فهذا الفيلسوف الامريكي الشهير رالف بارتن بيري يؤكد في كتابه الهام (آفاق القيمة) أن: «... الاتفاق ليس برهاناً على الحقيقة فإننا لو نظرنا إلى تاريخ الإنسانية كله لوجدنا أن الناس اتفقوا على الخطأ أكثر من اتفاقهم على الصواب.. إن أي رأي مهما كان راسخاً قد ينتشر انتشاراً واسعاً بالعادة والايحاء والعدوى الانفعالية والدعاية الحاذقة .. إن اتفاق الرأي هو عادة خليط من أطراد يعزى إلى وجود مادة مشتركة.. واطراد

يرجع إلى تأثيرات خارجية.. (أما) اليقين فيرجع (في الغالب) إلى سيكولوجية الجمهور..».

ويقول في موضع آخر: «.. إن المجتمع مهدد في عقر داره بالصراع.. والحل الممكن هو حل اخلاقي.. إن الإنسانية تعيش تحت تهديد فظيع.. والخلاص الوحيد هو غرس حسن النية وروح العدل في عقول الناس..».

ولكن المجتمعات البشرية في كل مكان لا تبحث عن هذا الحل الوحيد الممكن.. ولا تعترف به.. ولا تضع له حظاً من الاهتمام في مناهج التربية ولا في برامج الاعلام ولا في الممارسات اليومية ولا في العلاقات الدولية..

فكل ما يحيط بالافراد في كل المجتمعات يحرضهم على التنافس ويحثهم على الصراع ويدفعهم إلى المزيد من التكالب والعداوة والحقد ويبرر لهم عملياً أن يتخذوا في سبيل ذلك كل الوسائل الدنيئة التي قد تنحدر إلى مستوى الخديعة والغدر والكذب والبهتان وبهذا الاستغراق الاحمق لم يبق لاذهانهم فرصة للاهتمام باستكشاف الحقيقة..

ولأن التصرفات البشرية.. الجماعية والفردية.. قد هبطت في الكثير من صور السلوك إلى أدنى من هذا الدرك الأسفل: فإنني أجد أنه من النفاق المسجوج أن يعيب الناس افكار نقولا ماكيافيلي وان يظهروا لها كل هذا الاشمئزاز وان يتصنعوا عنها كل هذا النفور..

ولولا الخوف من التسرع من بعض القراء ولولا خشية سوء الفهم: لجعلت هذه المقالة تحت عنوان (دفاع عن ماكيافيلي) ليس استحساناً لافكاره ولكن لأن الناس يمارسون ما هو افظع منها وأسوأ..

إن دراسة التاريخ الإنساني في شتى مراحله.. وان التأمل في الأوضاع البشرية في كل مكان وان الإلمام بالعلوم التي تتناول دوافع السلوك الإنساني: كلها تتكشف عن أيديولوجيا عامة لمعظم الناس ولكل المجتمعات البشرية.. هي ايديولوجيا المصالح والتنازع على النفوذ..

فالأيديولوجيات على مختلف اتجاهاتها وتباين ممارساتها ما هي إلا ستار للأيديولوجيا البشرية العامة وهي أيديولوجيا الانتهاز أو أيديولوجيا التبرير سواء على مستوى خداع الذات أو ايهام الآخرين عن علم وقصد..

ومع أن التنازع على الاختصاص بالمصالح.. والصراع على اكتساب النفوذ.. والتدافع على المكانة.. قد رافقت المجتمعات منذ نشوئها.. واعترت حياة الإنسان منذ ان تصادمت الرغبات.. إلا أنها مع تعاقب العصور قد تراكمت حتى غدت بالغة التعقيد فشغلت الإنسان عن مهمة الانشغال بالحقيقة: عشقاً وبحثاً واستخلاصاً..

إن الايديولوجيا التي تخضع الحقيقة للمصالح.. قديمة قدم الإنسان..

منذ أن بدأ الناس يتنازعون على المصالح أو يقتتلون على النفوذ.. ومنذ أن صار كل طرف من الأطراف المتنازعة .. يحاول تبرير سلوكه .. وتأكيد مشروعية موقفه...

وبذلك صار أشد الفعال توحشاً وأبعد المواقف عن الأخلاق لابد أن يجد تبريره اللفظي .. فالتبرير اللفظي في خضم الاستغراق بالرغبات الآنية: صار له سيطرة على الشأن الإنساني بشكل جعل الحقيقة زائفة .. وجعل الإمساك بها مهمة بالغة الصعوبة..

إن التعارض في المواقف والسلوك قد أدى إلى التضارب في التبرير والتسويغ .. مما ألقى على الحقيقة ركاماً ثقيلاً من الزيف فتوارت عن الأنظار مما جعل استخلاصها من هذا الركام مهمة شديدة التعقيد تتطلب الكثير من الإخلاص والجهد كما أنها تحتاج إلى توفر القدر الكافي من الفراغ والامكانات..

ولكن معظم الناس يميلون إلى قبول الموجود من الأفكار واستساغة السائد من التصرفات وتقليد المعتاد من السلوك .. واستحسان أي تبرير دون أي محاولة للفحص والتمحيص والتحليل والمراجعة .. وبذلك صار للتسويغ اللفظي هيمنة شاملة..

إن الواقع البشري في كل مكان يدل على أن الناس يبيحون لأنفسهم ارتكاب أشنع التصرفات .. ولكنهم لا يستسيغون من ذواتهم ولا من الآخرين الاعتراف بتعمد ارتكاب الأفعال الشنيعة .. وإنما يشعرون انهم ملزمون بالظهور بمظهر الملتزم بالحق فيجتهدون في حشد التبريرات وتنميق الحجج وابراز ما يعتبرونه أسباباً كافية لتسويغ التصرف مهما كانت هذه الأسباب بعيدة عن الموضوعية..

وبذلك اعتاد الناس على التعامل مع الأقوال لا مع الافعال فاختلت معايير الحق وتدنت قدرة التمييز ولذلك حذر الله سبحانه وتعالى من هذا التدهور الاخلاقي الشنيع .. لما يسببه من خلط وتضليل: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾

إنه بسبب تناقض المواقف واستمرار التبرير لكل المواقف المتناقضة تعرضت الوقائع للتزييف وأصيبت الحقيقة بالتمويه لأن كل طرف في جميع الأمكنة وفي كل الازمنة يدعي أنه الذي على الحق المحض وان الآخرين على الباطل البواح..

ومضت الأمم والشعوب وهي تمارس هذا التلون خلال القرون وتعاقبت الأجيال وهي آخذة بهذا الاتجاه إلا أن ذلك كان يتم بدون أساس نظري مكتوب.. غير أنه في الربع الاول من القرن السادس عشر الميلادي .. ظهرت نظرية (الغاية تبرر الوسيلة) فصار الخداع والغدر والانتهاز.. ..

يستند إلى أساس نظري .. بلوره المفكر الايطالي نقولا ماكيافيلي..

ورغم أن ماكيافيلي .. قد تلقى من الشتم والهجاء ما لم يصوب مثله إلا للشيطان .. فإن معظم الناس في كل بقاع الأرض وفي معظم فترات التاريخ: يمارسون المكايفيلية بشكل أبشع وأوسع مما تخيله ماكيافيلي نفسه..

فكل الذي فعله ماكيافيلي أنه وصف ماهو واقع في حياة الناس .. لقد شخص السلوك البشري من منطلق واقعي .. لقد عرف كيف يتصرف الناس فوصف طبيعة هذا التصرف وبين الدوافع والأهواء التي ينبع منها سلوكهم.. وهو بهذا يشبه الطبيب الذي يصف سلوك الجراثيم والفيروسات .. انه لا يمدح ولا يقدح ولكنه يصف ما عرف..

إنه حين قال قولته الشهيرة: «.. إن من يترك الواقع ليتشبث بالواجب يتعلم كيف يهلك لا كيف ينجو...» لم يكن هدفه الدعوة والتبرير بقدر ما كان يهدف إلى الوصف والتنوير..

لقد استقرأ التاريخ وأمعن الفكر في دوافع البشر فرأى: «... إن الناس يحيون تبعاً لأهوائهم...» وأن: «... طبيعة الأفراد هي الأنانية المادية ونزعة حب التملك...» و:«إن من الأسهل على الإنسان أن ينسى وفاة والده من أن ينسى ضياع إرثه وممتلكاته...»..

تلك احدى الخصائص الأساسية في الطبع الإنساني .. فالفرد شديد الذكاء في مصالحه .. لكنه موغل في الغباء في الشؤون العامة: «.. فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين على استعداد أن تنطلي عليهم الخديعة...»..

إن الإنسان عديم الإحساس بالنسبة لآلام الآخرين .. فهو لا يكترث بالضرر الذي يصيب غيره ولذلك لابد من الحزم لحماية الناس بعضهم من بعض وما لم يتحقق هذا الحزم فلابد ان يشيع بين الناس: «... سفك الدماء والنهب والسلب ...».. فما فعله ماكيافيلي هو تعرية الناس على حقيقتهم وإزالة مساحيق التجميل عن الوجه القبيح..

إن نفور ماكيافيلي من التنازع الفج على المصالح واشمئزازه من الصراع على النفوذ... واكتشافه ان هذا هو سبب ضياع وحدة ايطاليا.. وافتتانه بعودة امجاد روما .. كل هذه جعلته يسوغ الأخذ بالوسائل مهما كانت قاسية أو حتى وضيعة مادام ذلك يحقق جمع الشمل المبدد ويعيد المجد المفقود.. خاصة وأنه اكتشف وضاعة الممارسات الفردية مما جعلها في نظره اهواء سخيفة ووضيعة ولا تستحق الاحترام...

وهو يستند في آرائه إلى معايشة واعية وإلى وقائع تاريخية واجهها بعقله التحليلي فانتهى إلى تلك الرؤية عن حركة التاريخ وعن الطبيعة

الإنسانية فها هو يقول:
«... إن كل انسان يدرك ان من الصفات المحمودة .. ان يكون (الإنسان) صادقاً .. وان يعيش في شرف ونبل لا في مكر ودهاء.. لكن تجارب عصرنا أثبتت ان الذين قاموا بجلائل الأعمال .. تمكنوا بالمكر والدهاء من الضحك على عقول الناس وإرباكهم وتغلبوا على أقرانهم من الذين جعلوا الاخلاص والوفاء رائدهم...».
وكان صريحاً في التنبيه إلى ان الإنسان يستطيع أن يتلون في مواقفه وأن يتناقض في أقواله دون أن يخشى فطنة الدهماء .. وفي ذلك يقول: «.. ولن يعدم .. ذريعة .. (ولكن) عليه أن يعرف كيف يتقن فن خداع الآخرين...».
ثم يقول: «... سأكتفي بسرد مثل عصري واحد .. فالبابا اليكسندر السادس لم يقم بأي عمل سوى خداع الآخرين ولم يفكر في أي شيء سوى ذلك وكان يجد دائماً الفرصة للنجاح في خداعه .. ولم يكن ثمة من يفوقه مهارة في تقديم الوعود واغداق التأكيدات داعماً إياها بالأيمان المغلظة في الوقت الذي لم يكن هناك من هو أقل تمسكاً بها منه .. ومع ذلك فقد نجح دائماً في خداعه إذ أنه كان يتقن هذه الطريقة في معالجة الامور...».
لقد كانت غاية ماكيافيلي توحيد ايطاليا والحلم بالقضاء على الشتات الذي كانت تعيشه في زمنه .. وكان يرى أن التنازع على المصالح الخاصة هو السبب في ذلك الشتات فأجاز استعمال الوسائل الدنيئة عند الضرورة من أجل تحقيق الغاية الشريفة.. ولكن ماذا نقول عن الذين يستعملون الوسائل الدنيئة من أجل غايات هي أشد دناءة..؟!
والذين أشبعوا ماكيافيلي .. شتماً ولوماً وذماً.. لم يفعلوا ذلك بدافع التعفف عن تطبيق نظرية الغاية تبرر الوسيلة .. وإنما هم في الغالب يستخدمون كل الوسائل الوضيعة من أجل غايات لا تقل عنها في الوضاعة..
ولكن الناس اعتادوا ان يقبلوا الفعل القبيح إذا كان مسبوقاً أو مصاحباً او متبوعاً بالقول المليح .. فكأن الناس لا يعنيهم ماذا تفعل وإنما الذي يعنيهم ماذا تقول.. حتى لو صرت تقول اليوم عكس ما كنت تقوله بالأمس..
إن الإنسان لا يحتاج إلى جهد كبير لكي يكتشف أن توظيف الايديولوجيات في معظم بقاع الأرض والتغرير بالدهماء للتعصب للأيديولوجيات المتناقضة هو السبب في ما تعيشه البشرية من تنافر وبؤس واقتتال.. إن هذا التوظيف هو السبب الأول للشقاء الإنساني

المتفاقم..

فالناس لا يلاحظون التناقض ولا يحللون المواقف.. وإنما هم هشيم يشعله الكلام ويطفئه الكلام..

إنهم مشغولون بمصالحهم الخاصة مستغرقون في تحقيق رغباتهم والاستجابة لأهوائهم.. وهم في هذا الجانب أذكياء ومتيقظون .. ولذلك يرى ماكيافيلي كما يرى غيره أنه من السهل خداع الناس والتغرير بالأفراد في كل ما يخرج عن المصالح الخاصة والرغبات الذاتية..

أما في الشأن العام الذي يتعلق بالمجموع أو في شؤون ومآزق الآخرين فإن الاحساس عندهم يكاد ينعدم.. والذكاء يتحول إلى غباء مفرط وهذه الحالة (كما يرى ماكيافيلي) هي التي: «... أدت إلى اضعاف العالم وإلى تقديمه فريسة سائغة للشريرين ذوي القلوب الغليظة...».

ماكيافيلي .. لاحظ هذا الواقع البشري.. فراح يفلسف ويبرر دناءة الوسائل من أجل شريف الغايات .. ولكن الذين يلومونه يستخدمون دنيء الوسائل من أجل دنيء الغايات..

لست بهذا أدافع عن ماكيافيلي .. فهو أسوأ منظر للإنتهاز ولكنني من افق انساني عام.. اتساءل: مادام الوضع البشري على هذه الدرجة من السوء فكيف يستطيع الإنسان أن يستخلص الحقيقة ويطمئن إليها وسط هذا الركام من الأهواء والتناقض والتزييف...؟!.

كما أنني أود إدانة كل الانتهازيين الذين يلينون في القول ويشتطون في الفعل.. يطوعون المبادىء ويتقلبون في المواقف حسب اتجاه المكاسب .. مما جعل الحياة البشرية تنهض على النفاق والانتهاز والتلون..

ولابد من التنويه بأن الفلاسفة والمفكرين وأصحاب الحس الانساني الرفيع .. قد أظهروا اشمئزازا شديدا ونفورا صادقا من الأفكار الماكيافيلية .. غير أنه ليس للفلاسفة ولا المفكرين تأثير كبير على اتجاهات السلوك البشري..

ولم يكن ماكيافيلي هو الأول في تشخيص الطبيعة البشرية التي تعرضت للمسخ .. وتحليل دوافع السلوك الإنساني الذي أفسده التزييف.. وإنما قبله ابن خلدون وصف في مقدمته السلوك النفعي للناس بمنطق واقعي ليس بعيداً عن منطق ماكيافيلي .. إنهما معاً يصوران واقع البشر .. بعد ان حولته الممارسات الانتهازية إلى واقع نفعي .. وسوف أتناول في مقام قادم إن شاء الله الفكر الخلدوني في هذا المجال وأشير إلى كتابات الدكتور العروي والدكتورة حورية مجاهد والدكتور ناصيف نصار وغيرهم..

ولو أنه استنار العقل البشري بمعرفة الواقع لما اندفعت الجموع

الرعناء لتَقتُـل وتُقتَل كما هو حاصل في العـديد من بقاع الأرض وعلى مدار التاريخ..

إن المبادىء يجري تطويعها في كل مكان لتبرير الأهواء وتسويغ الظلم وفلسفـة العدوان .. فالناس مقـودون بالأهواء والمصالح وليسوا مـقودين بمبادىء الخير والحق والعدل..

مثـال بسيـط يكشف فظاعة الوضع البشري.. السـياسي البـريطاني اللورد ديفيـد أوين .. كان يصرخ بأن مكـافأة العدوان الصـربي قد تعني نهاية السلوك المتحضر .. وكان يلح على ضرورة التدخل العسكري لوقف تفاقم المأساة في البوسنة .. ولكن ما أن تم تعيينه وسيطاً .. حتى تخلى عن الواجب وانحاز للواقع فصار صربياً أشد من الصربيين...

لقد اسـتساغ السلوك الصـربي الذي كان يصفه بـالهماجة والبـدائية والعـدوان: فخـان ضميـره الإنسـاني كمـفكر وتخلى عن التزامه المهني كطبيب.. وزكى العدوان وساند الظلم وزيف الحقيقة كوسيط..

وهو بكل ذلك يلتزم بالايدلوجـيا العامة التي هي القـاسم المشترك لكل الأيديولوجيات .. هي ايديولوجيا المصالح وليست أيديولوجيا المبادىء..

والأمثلة على هذه الأيديولوجيـا العامة تفوق الحصـر فمنع الشغب في بكين في العـرف الدولي .. عـمل يسـتـوجب الاسـتنكار الشـديد والإدانة الغاضـبة.. أمـا قتل أعضـاء البرلمان في روسـيا يلتسين فـعمل مـشروع واجراء يتفق مع أهداف ومبادىء أعرق الديموقراطيات...

من هنا فإن الحديث عن ذبول عشق الحقيقة .. لابد أن يكون مصـحوباً بالحـديث عن التلون الأيديولوجي .. وعن مـفـارقـات المـارسـات الأيديولوجـيـة .. وعن وقوع الجنس البشـري بأجـمعـه ضـحـية لهـذه المفارقات..

ذلك أن المجـتـمـعـات البـشـرية لا ينقـصـهـا المزيد من التـحـريض الايديولوجي وإنما هي بحاجة إلى أن تستنير إلى أبعد مدى وان تكون على وعي تام بحقيقة ما يجري ويقال في كل مكان لتصير على بينة من التلون والتقلب الأيديولوجي .. ولتدرك طبيعة الاسـتخدام البشـري لهذا التلون: ﴿... وما ربك بغافل عما يعملون..﴾.

---

*الرياض، الخميس ٥ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ ـ ١٨ نوفمبر ١٩٩٣م ـ العدد ٩٢٧٨.

الانتقال من الحفظ
إلـــى الفكـــر

المعلومات ليست هدفاً في ذاتها وإنما هي مواد خام لتصنيع الأفكار، فالذي يحفظ المعلومات دون أن يتعلم كيفية صناعة الأفكار منها: يكون قد وضع الوسيلة مكان الغاية.. وهو بذلك يبقي نفسه في مرحلة البدء..

إن الوقائع والمعلومات والمعارف أياً كان موضوعها .. ليست معطيات ناجزة وإنما هي بمثابة مواد أولية تتطلب عدداً من العمليات العقلية لتصبح من الأفكار الحيّة .. فهي بحاجة إلى الفحص والفرز والتكرير والتأمل وإعادة النظر ثم الربط وإعادة التكوين .. وبذلك ترتقي إلى مستوى الفكر الذي يقترب من الحق ويخدم الإنسان..

إن الذي يحفظ الوقائع ويستظهر المعلومات دون أن يقوم بعملية التكرير والربط وتشييد الأفكار .. لم يتجاوز بذلك مهمة مأمور المخزن الذي يقتصر اهتمامه على إخلاء مسؤوليته .. فهو يحافظ على الأشياء المعهودة إليه شكلاً .. لكنه لا يهتم إذا هي صدئت أو تآكلت .. حتى أو صارت نهاياتها محضر اتلاف..

إن الذي يقتصر على التلقي والحفظ والترديد.. يشبه الذي يملك بعض مواد البناء.. يقوم بتكديسها دون أن يملك القدرة على تشييدها .. بل انه اسوأ حالاً لأن المعلومات تتفلت من الذاكرة ما لم تمتزج بالذهن فتصير ضمن تكوينه .. ولا يحصل هذا الامتزاج إلا نتيجة التأمل العميق والمحاكمة العقلية والتفاعل الحي الجياش..

إن تعوّد العقل على التلقي السلبي الصامت .. وقبوله للامتلاء العفوي يسلب العقل أهم مزاياه .. حيث تضمر ملكة الحكم وتتلاشى قدرة التمييز

.. فالعقل إما أن يعتاد على التفكير المنطقي المنظم أو يبقى سلبياً.. فقواعد التفكير معطيات مكتسبة وليست مزايا موروثة .. فلا بد من أن يأخذ الإنسان نفسه بهذه القواعد لقيادة تفكيره .. وإلا فسوف يبقى فوضوي التفكير ويظل عقله غير منضبط الأداء..

لذلك فإن تأسيس ملكة الحكم وتشييد قدرة النظر وبناء ارادة الحق والخير هي أول ما يلزم للإنسان .. إن استسلام العقل للتقليد الأعمى أو رضوخه لنزوات الأهواء .. آفة فظيعة تقلل فعاليات الإنسان وتشل قدراته وتوقف نمو امكانات عقله وتقضي على جوهر وجوده..

إذا تخلى الإنسان عن التفكير المستقل فإنه يتعود على الاستسلام ويرضخ للتقليد ويصبح دمية تتحرك بارادة الغير ومع طول الاستجابة التلقائية تضمحل الشخصية الفردية وتذوب الارادة المسؤولة الذاتية المستقلة ويفقد الإنسان أرفع خصائصه وأهم مزاياه..

فليس أسوأ على الإنسان من الاستسلام العقلي انه الغاء للذات ويمثل حالة فظيعة من حالات الاستلاب.. لابد أن تثير الفزع في النفس إذا هي وعت معنى الوجود واستشعرت مغزى المسؤولية الفردية..

إن الإنسان الذي لم يتعود على التفكير المنطقي ولم يتمرس بالمحاكمة العقلية يتصرف بدون تفكير صحيح فيكون منصاعاً بقناعات الغير وليس بقناعاته الذاتية وبذلك يتخلى الفرد عن أنبل ما تنطوي عليه نفسه..

إن هذا الانصياع التلقائي يتنافى مع يقظة العقل ويدل على عدم الاحساس بالمسؤولية.. فالفرد الذي ينقاد بدون تفكير يلغي جوهر ذاته ويتخلى عن مسؤوليته..

وأبسط مظهر لهذا الرضوخ المهين ان تسافر إلى بلاد لا تعرفها مع من يدعي انه عليم بها حيث تتحول إلى وضع يشبه وضع احدى عربات القطار .. فأنت تتبع هذا الذي يقودك لا تسأل إلى اين ولماذا .. بل تتدحرج خلفه وتتحرك كما تتحرك قطعة الخشب حين تطفو فوق مياه متدفقة..

وعلى الإنسان أن يجنب نفسه مثل هذه المواقف الذليلة فلئن تكابد صعوبات السفر في بلاد لا تعرفها ولا تحسن لغتها .. أهون من أن تسلم قيادك لمن ينتشي بتحريكك فيمارس من السلطات ما يلغي وجودك لأن استسلامك يطمس بصيرتك ويحيلك إلى تابع عاجز عن التصرف المستقل.. فالذي يتخلى ولو لحظة عن عقله وارادته .. يتخليان عنه بسرعة مذهلة .. فإذا بحث عنهما لم يجدهما إلا بصعوبة شديدة..

فالتلقي السلبي والامتلاء الصامت .. يؤدي إلى اضمحلال قدرات

العقل.. فستتوقف ملكة المحاكمة وتتعطل غريزة التساؤل ويتضاءل الاحساس بالمسؤولية الفردية..

إن كل دارس لمراحل الفكر الإنساني تلفت نظره بشكل آسر .. تلك الطفرة الفكرية التي بزغت في اليونان بظهور افلاطون..

ويعود السبب في جزء كبير منه في تلك الطفرة إلى محاورات افلاطون فلقد كان يواجه بعض الناس بالأسئلة دون أن يقدم لهم الجواب .. وبذلك تشتغل العقول بدلاً من ان تستسلم للجواب الجاهز المقرر..

إن الهدف من التعليم هو تربية الدارسين كيف يفكرون لا كيف يحفظون ويرددون .. وفي ذلك يقول الفيلسوف الألماني الشهير امانويل كانط: «... لا تنحصر مهمة استاذ الفلسفة في تعليم تلاميذه بعض الأفكار الفلسفية بل تنحصر في تعليمهم كيف يفكرون...».

ولا بد من التأكيد على عبارته الأخيرة «... بل تنحصر في تعليمهم كيف يفكرون...» .. وهذا ليس خاصاً باستاذ الفلسفة ولا بطلابها .. وإنما موجَه لكل معلَم أياً كان مجاله..

وهذا يجعلنا نكرر التأكيد بأن من أكبر مهام التعليم هو إعداد الدراسين للانتقال من مرحلة تلقي المعلومات إلى مرحلة كيفية بناء الأفكار .. وادراك ما يعتري تكوينها من أسباب النقص واحتمالات الخطأ..

هذا في المجال المعرفي وتشييد الأفكار والتصورات .. أما في المجال المهني فإن تحصيل المعلومات أيضاً ليس سوى المقدمة الضرورية لاكتساب المهارة المهنية .. لأن المهارات لا يمكن اكتسابها بمجرد استيعاب المعلومات وإنما الطريق الوحيد هو الممارسة الجياشة المفعمة بالتركيز والشغف .. ولذلك فإن هذه الحقيقة الأساسية .. لابد ان تكون واضحة تمام الوضوح في أذهان الدراسين لكي يستعدوا للانتقال الحاسم من مرحلة تحصيل المعلومات إلى مرحلة اكتساب المهارات .. وهي حقيقة مازالت غائمة مما يجعل جلاءها مهمة أساسية في العملية التربوية..

غير أن ايضاح الفرق بين تحصيل المعلومات واكتساب المهارات .. هو موضوع سبق أن تطرقت إليه في مقالات سابقة وربما أعود إليه إن شاء الله في مقالات لاحقة.. إنما الذي يهمني في هذا المقال هو موضوع الارتقاء بالمعلومات من مستوى المادة الخام إلى مستوى الأفكار الواعية الفاعلة .. والتنبيه إلى أن المعلومات مثل مادة خام النفط .. لا تصبح صالحة للاستخدام إلا بعد المرور بالعديد من عمليات التكرير والتصنيف والفصل والفرز.. ليس هذا فحسب بل ان عمليات معالجة وتكرير المعلومات هي

أصعب مئات المرات من عمليات تكرير النفط.. فالنفط يتم تكريره وفق طريقة فنية ثابتة وبوسائل مادية مضمونة النتائج..

أما المعلومات فهي تجريدات ذهنية قابلة لشتى التفسيرات والتأويلات ومن النادر أن تصل إلى المتلقي وهي ناصعة نقية وسافرة.. وإنما تأتيه وهي مغلفة بالتفسيرات .. إنها أشبه ما تكون بحبات القمح قبل استخلاصها من السنابل.. إنها مغطاة بطبقات من الأغفلة .. فلا تصير صالحة للأكل إلا بعد العديد من عمليات التفتيت والقرز والغربلة والتصفية ثم بالعديد من عمليات الطحن والعجن والطهي.. لتصبح أكلاً جاهزاً..

وحتى بعد أن تصبح أكلاً جاهزاً لا يتقبلها الجسم إلا بعد المرور بعمليات معقدة من التحويل والتكرير لتصير قابلة للهضم..

وغذاء العقل أكثر تعقيداً من غذاء الجسم .. وهو أكثر تعرضاً للاختلاط والتعفن والتسمم.. غير أن الجسم فوري الاستجابة للضرر ولديه أجهزة دقيقة وصارمة للإنذار .. فالجسم يتألق فور تعرضه للخطر وهو يصرخ طالباً الإنقاذ..

أما العقل فإنه يتعرض لأخطر حالات التسمم .. ومع ذلك يبقى مطمئناً لأي غذاء يتم حقنه فيه .. فليس في العقل أجهزة للإنذار أو للرفض ولذلك يمتص الأغذية دون تفريق بينها وبين الأغذية الجيدة..

ويكفي أن تُجيل ذهنك في الأوضاع البشرية.. لتدرك فداحة السخف الذي يرتكبه العقل البشري في معظم بقاع الأرض فالكثرة مقودون بأهواء القلة ولكنهم يندفعون لحتوفهم كما يندفع الفراش إلى النار.. ومع كل الغباء فإنهم يتوهمون أنهم يتصرفون بعقل وحكمة .. ورغم أنهم أبعد ما يكونون عن الوعي والتبصر..

إن العقل غير المدرب يتقبل ويستسيغ أي غذاء مهما بلغ من سوئه واختلاطه .. ومهما كانت رداءة عناصره واضطراب تكوينه وهو لا يكتشف شيئاً من ذلك إلا إذا كان قد تمرس بالمنطق واعتاد على المحاكاة العقلية ولديه الملم بطبيعة العقل البشري وقابليته المفتوحة لشتى أشكال الصياغة..

وهذا يستوجب أن يفطن الناس بأن امتلاك المعومة رغم أهميته البالغة ليس سوى الوسيلة الأولية الضرورية لمحاولة الاقتراب من الحقيقة.. أو هو المقدمة للبدء في تكوين المهارة..

إن امتلاك المعلومات والتحقق من الوقائع .. ليس إلا بداية العمل الفكري .. فهو بمثابة توفير المواد وبعد ذلك تبدأ عملية البناء..

فالإنسان ينبغي أن يكون همه الوصول إلى الحقيقة .. ولكن لابد أن يدرك ان بلوغ الحقيقة لا يأتي إلا بالجهد العقلي المكثف..

ولابد من التركيز من اخلاص النية والاستشعار بالمسؤولية الفردية .. فبلوغ الحقيقة مطلب أساسي في الحياة وهو لا يتحقق بالتلقي وإنما يمكن الاقتراب منه بالجهد العقلي الحاذق المركز..

ويجب أن يلاحظ أنه إذا كان الحصول على المعلومات في العصور القديمة غير متيسر فإن وسائل خزن وتوفير المعلومات قد صارت في متناول الجميع فلم يعد الحصول على المعلومات يمثل اية مشكلة وإنما المشكلة كيفية التعامل مع المعلومات .. مما يجعل الأولوية المطلقة تصير لبناء القدرات وليست لتلقين المعلومات..

إن جهازاً صغيراً من أجهزة الكمبيوتر يوفر للراغب أي معلومة يريدها ويمكن ان يرتبط بقواعد هائلة من قواعد المعلومات المتوفرة وبضغطة زر وخلال لحظات تكون المعلومة أمامه..

والمعلومة التي يختزنها الكمبيوتر لا تتعرض للنسيان أو الخلط أو الوهم أو الارتباك .. كما تفعل الذاكرة البشرية .. وإنما هي معلومة دقيقة وذات استجابة فورية..

وليس الكمبيوتر هو وحده الذي وفر سبل الحصول السريع والدقيق على المعلومات وإنما توفرت الموسوعات والمعاجم والقواميس وأدلة البحث حتى أصبح الحصول على المعلومات من أيسر مهام البحث..

لذلك فإن تلقين المعلومات لم يعد اساسياً اثناء قاعات الدرس وإنما المطلوب هو إعداد الأذهان للتعامل الواعي مع المعلومات..

ولا يكون تشييد القدرات العقلية عن طريق معلومات مقررة أو اجابات جاهزة .. وإنما يتم هذا التشييد بواسطة ايقاظ الأذهان بالسؤال الذي لا يكون مصحوباً بالاجابة الجاهزة .. وذلك من أجل استنفار العقول للبحث عن كافة احتمالات الجواب الصحيح..

فسرد المعلومات لن يوقظ العقول .. وعلى سبيل المثال فإنه في مادة الجغرافيا .. لن يستفيد الدارسون من حفظ اسماء المدن والانهار والجبال .. وإنما الفائدة الحقيقية تأتي حين تكون هذه المادة وسيلة لطرح الأسئلة عن التباين الملحوظ بين المجتمعات .. وبشرط ألا يكون الجواب جاهزاً في كتاب مقرر وإنما يكون متاحاً العثور عليه في العديد من المراجع وضمن العديد من الاجابات المحتملة..

وعلى سبيل المثال فإن البانيا بلد اوروبي .. ومع ذلك فهو أفقر شعوب

الأرض .. فلماذا انفرد هذا البلد بعبقرية الفقر دون سائر البلدان الأوروبية..؟!

لوكسمبرج بلد اوروبي صغير جداً ومع ذلك فهو عضو فاعل في السوق الأوروبية المشتركة.. فمن أين جاء هذا التباين...؟!

ونفس السؤال يمكن أن يقال على الدانمارك والنرويج وبلجيكا .. فكلها بلدان صغيرة المساحة وقليلة السكان ولكنها من أغنى بلدان العالم..

لماذا حققت البانيا هذا الامتياز العظيم في التخلف والبؤس والهوان والفقر من بين كل الشعوب الاوروبية..؟!

البرازيل من أغنى بلدان العالم في الموارد الطبيعية .. فهي بلد نهر الأمازون العظيم وموطن المناجم الكبرى وفيها كثافة سكانية ضخمة وكان الدارسون قبل ثلاثين عاماً يتوقعون أنها ستنافس الولايات المتحدة الامريكية .. لكنها خيبت توقعات الدراسين فصارت صاحبة اكبر مديونية في العالم...!!

فما هو السبب في كل هذا العجز.. هل يعود ذلك إلى فقدان الاستقرار السياسي وكثرة التقلبات .. أم يعود إلى نقص أو ضعف أو انعدام الاحساس بالواجب لدى الأفراد .. أم يعود إلى كل هذه الأسباب .. أم أسباب أخرى..؟؟

وبالمقابل لماذا صار اليابانيون أعظم قوة اقتصادية في العالم .. رغم ضيق الأرض وندرة الموارد الطبيعية .. هل يعود ذلك إلى التحدي الذي واجهته اليابان بعد الهزيمة الساحقة .. حيث يرى البعض أن هذا التحدي قد استنفر قدرة اليابانيين للتعويض عن وقع الهزيمة .. أم يعود هذا الازدهار الهائل إلى الاستقرار السياسي الذي تميزت به اليابان .. أم يعود إلى الاحساس الحاد بالمسؤولية من كافة أفراد المجتمع الياباني والالتزام الصارم باداء الواجب من كل الافراد .. والولاء التام لليابان .. وليس للذات .. أم يعود إلى كل هذه الاسباب وإلى أسباب أخرى تتطلب الاستقصاء..؟!

المهم أنه إذا تمت المقارنة وأثيرت الأسئلة فإنها سوف توقظ العقول لمعنى الانتماء ولنتائج الالتزام .. وسوف تنمو لدى الدراسين حاسة إدراك الأسباب .. وتتضح لهم النتائج السلبية للذاتية المفرطة والنتائج العظيمة للتلاحم والاخلاص والعمل..

غانا وكوريا الجنوبية .. كانتا قبل ثلاثين عاماً متماثلتين في الأوضاع الاقتصادية .. وكانت فرصة الازدهار متاحة لكلتيهما بقدر متقارب .. ولكن كوريا الجنوبية وثبت إلى مركز الصدارة بينما بقيت غانا حيث كانت

أو اسوأ .. فإلى أي شيء يعود هذا التباين..؟!

كوبا وسنغافورة .. يمكن ان يثار حول كلتيهما اكثر من سؤال فكوبا ملأت الأرض بالضجيج منذ عام ١٩٥٩م ولكن كل ذلك الصخب لم يسفر إلا عن مزيد من البؤس والشقاء والفقر..

بينما ان سنغافورة حققت ازدهاراً شاملاً وبصورة مذهلة .. ولكن بدون أي صخب ولا ضجيج كؤلآن سنغافورة لم تتأسس كدولة مستقلة وتنضم إلى الامم المتحدة إلا عام ١٩٦٥م ولكنها رغم ضيق الأرض ورغم انه ليس فيها موارد زراعية ولا ثروات طبيعية وليس فيها أي مناجم.. إلا أنها استثمرت المورد البشري حتى غدت واحدة من أميز البلدان القليلة ذات الفوائض المالية الضخمة..

سنغافورة جزيرة شديدة الصغر معدومة الموارد .. وكوبا أيضاً جزيرة لكنها أكبر مساحة وأغنى أرضاً.. غير أن جزيرة (فيدل كاسترو) .. تعيش الفقر والبؤس .. أما جزيرة (لي كوان) فتعيش الثراء والازدهار .. فما هي أسباب هذا التباين الصارخ..؟!

اسبانيا كانت أول دولة تكتشف أمريكا .. وأول دولة استعمارية وصاحبة أول وأكبر اسطول بحري في المراحل الأولى من الانبعاث الاوروبي غير أنها تراجعت إلى الصفوف الخلفية حتى صارت لا تختلف في شيء عن العالم الثالث .. وظلت طوال أيام الجنرال فرانكو .. تعيش الفقر والعزلة.. ولكنها الآن وخلال فترة قصيرة تخطت مرحلة العزلة وانضمت للسوق الأوروبية وتواصل التحديث بخطوات سريعة..

فما الذي جعل هذا البلد الرائد في الاكتشاف يتراجع كل هذا التراجع رغم التصاقه بالمجتمعات الاوروبية .. وما يقال عن اسبانيا يقال قريب منه عن البرتغال المجاورة..؟!

ليس المقصود من هذه الأمثلة سوى ايضاح أن اعداد العقول لا يتم عن طريق تلقين المعلومات ولا سرد الأحداث ولا استظهار الوقائع .. وإنما يتحقق باثارة الأسئلة وعدم المبادرة إلى تقديم الاجابات الجاهزة .. ليتاح للأذهان ان تتحرك وبذلك تنمو قدرات العقل وتتأسس ملكة التمييز..

وبذلك ننتهي إلى أن مهمة التعليم ليست اعطاء المعلومات وإنما مهمته تكوين القدرات والمهارات العقلية .. لتكون أذهان الدراسين بمثابة قدرات نامية ومتجددة ومفتوحة وليست أوعية مملوءة ومغلقة ومكتفية..

وقبل ذلك وبعده لابد من تكرار التأكيد على نقائص العقل البشري وكثرة أخطائه وشدة تلبسه بالأهواء والميول والرغبات .. ومن تغيب عنه

مثل هذه الحقائق في الطبيعة الإنسانية فإنه خليق بأن يغتر بنفسه ويجور على الآخرين فليس أضر على الفرد وعلى مجتمعه من أن تختفي عنه نقائص الطبيعة البشرية لأن الإنسان حتى حين يبلغ الذروة من العلم والحكمة والاخلاص تكون احكامه معرضة للكثير من أسباب الخطأ والجور.. أما الذي مازال في مرحلة البدء ويتوهم أنه قد بلغ النهاية .. فإنه أفدح ضرراً وأشد جوراً لأنه بهذا التوهم يتوقف عن البحث ويعتقد أنه قد بلغ مرحلة الاكتفاء فيخوّل لنفسه اصدار الأحكام القاطعة على القضايا المتنوعة الكبيرة والصغيرة دون حيثيات صحيحة ويتضاعف ضرره ويشتد جوره حين يزكي نفسه وهو متلبّس بالتحيز والهوى.. وما أكثر هذا الصنف بين الناس .. وهذا منشأ الكثير من المآسي ..

«الرياض» الخميس ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٤هـ - ٤ نوفمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٢٦٤.

الأوضاع البشرية والسدود الترابية

ان الانهيار المفاجيء للاتحاد السوفياتي وتشرذم المعسكر الشرقي.. سوف يضطر فلاسفة التاريخ إلى إعادة النظر في الكثير من فلسفات التاريخ..

أما حتميات التاريخ التي قال بها الماركسيون وبنوا على أساسها مقولاتهم الاجتماعية: فقد انهارت بانهيار تنبؤاتهم الخرافية.

لقد تكشف هذا الانهيار الذريع والمدوي عن حقيقة استحالة التنبؤ بالسلوك البشري أو توقع مفاجآته..

لقد ثبت أن الأوضاع البشرية شبيهة بالمياه المحجوزة خلف سد ترابي .. فهي مستقرة مادامت راكدة .. ولكن ما أن تفيض حتى تجرف معها السد الترابي بكامله وتمحوه من الوجود .. ثم تواصل اندفاعها لتهلك كل ما يعترض طريقها..

إن معاهد الدراسات ومؤسسات البحث الاستراتيجي والمشغوفين بتوقعات المستقبل .. ليس من بينهم من توقع انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك المعسكر الشرقي وتشرذم كل دولة إلى دول .. على النحو الذي حصل أو على أي نحو قريب.. بل إن كل الذي حصل جاء معاكساً لاتجاهات التكتل التي كانت رائجة..

ولست بصدد استعراض الدراسات والكتب التي كانت ترسم صورة مستقبل العالم في القرن المقبل .. قبل الأحداث المفاجئة والمذهلة التي تتابعت .. فلقد غابت في هذه البحوث وهذه الدراسات المستقبلية صورة هذا الانهيار غياباً كاملاً .. وكانت الدراسات تتحدث عن نوع التوازنات

المحتملة في القرن المقبل .. أما الانهيار ذاته فلم يكن وارداً ولا متوقعاً .. ثم كانت المفاجأة الكبرى وكان الانهيار الكبير وكان الاختلاط الشديد في الحسابات والتوازنات..

وعلى سبيل المثال فإن الدكتور دانييل براور .. يعمل استاذاً لمادة تاريخ العالم في القرن العشرين بجامعة كاليفورنيا .. وقد حاول أن يصف الأوضاع العالمية وان يضع معالم سيرورتها خلال ما تبقى من هذا القرن وخلال القرن المقبل .. وذلك في كتابه الذي يحمل عنوان (العالم في القرن العشرين).

ومع أن الكتاب صدر بعد ظهور جورباتشوف بسنوات حيث ظهرت طبعته الانجليزية عام ١٩٨٨م فإنه كان يتحدث عن علاقات القوة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي .. ولم يكن وارداً في حسه التاريخي المتخم بالمعلومات والوقائع والأرقام بأن الذي حصل سوف يحصل..

ومع أنه مؤرخ عاش مع أكثر الأحداث مفاجأة وتنوعاً كما أنه كمتخصص في تاريخ القرن العشرين .. قد عاش التحولات الكبرى وشهد تقلبات تفوق الحصر .. إلا أن توهم رسوخ الاتحاد السوفايتي وضخامة بنيان المعسكر الشرقي واحتمائه خلف قوة عسكرية هائلة .. كل ذلك حال تماماً عن محاولة توقع شيء مما حصل ..

ولكنه الطوفان البشري .. إنه مرتهن بعوامل لا تخطر على البال .. ولذلك يستحيل التنبؤ الدقيق في أحداث تتوقف على احتمالات السلوك الجماهيري..

إن سلوك الدهماء اشبه ما يكون باندلاع النار في الهشيم أو اندفاع الفيضان بعد انجراف السد الترابي .. ولذلك من الصعب توقع ماذا سيكون عليه إذا هو تعرض لأي نوع من الاضطراب..

فماذا يقول دانييل براور استاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا عن (العالم في القرن العشرين): «.. يشكل الدمار والبناء اقساماً لا تتجزأ من تاريخ هذا القرن .. إن المرارة والعداء اللذين ولدتهما صراعات القيم والمصالح تجعلان من عالمنا مكاناً عنيفاً وصعباً..».

ثم يقول: «إن القدرة على الحكم على المظاهر الهامة لهذا العصر تشكل أكثر المهمات التاريخية تحدياً لأي كاتب يبحث عن هذه الأوقات المليئة بالتغير..».

ويقول: «.. إن التطورات التي نطلق عليها (بناء الأمم) عملت على تغيير

حياة الأفراد في جميع انحاء العالم.. (إن) التحولات المفاجئة والعنيفة .. فتحت المجال .. لإعادة تشكيل حياة الشعوب..».

ولكن رغم إدراكه لكل احتمالات التفجر والتغير .. ورغم المامه بالتحولات الكبرى التي شهدها التاريخ .. ورغم اننا نعيش عصر دراسات المستقبل: فإن الانهيار المفاجيء الساحق كان خارج احتمالات التصور..

إن الذي حصل في الاتحاد السوفياتي .. وتبعاً لذلك ما حصل في كل العالم نتيجة الانهيار الكبير قد غير كل الحسابات وأرغم الدول التي كانت مرتبطة بالاتحاد السوفياتي على ان تعيد تنظيم نفسها وان تبدأ في بناء علاقات جديدة مغايرة لكل ماخططته في السابق كما ان الدارسين اضطروا أن يعيدوا النظر في الكثير من نظريات التاريخ..

مئات الكتب صدرت ومئات الكتب سوف تصدر في كل اللغات عن أسباب التحول الذي شهده العالم ومازال يعيشه منذ ظهور جورباتشوف على مسرح التاريخ وحتى الآن..

ومن الدراسات التي صدرت في اللغة العربية عن (ظاهرة جورباتشوف) الدراسة الضافية التي أصدرها الأستاذ شفيق مقار .. وهي دراسة تقع في (٤٥٧) صفحة ولا ينقصها سوى أنها صدرت قبل سقوط جورباتشوف بفترة قصيرة..

أما الكتب المترجمة فهي كثيرة ربما يكون من أشملها الكتاب الذي أعده الصحفي الألماني غيرد روغ (جورباتشوف .. صانع القرار وضحيته).

ولكن أهم من الكتب التي صدرت عنه .. الكتاب الذي أصدره هو عن رؤيته للمستقبل ومنهجه في اصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعلمية..

إن كتابه عن (إعادة البناء) الذي تُرجم إلى كل لغات العالم فور صدوره وتتابعت ترجماته باللغة العربية حتى بلغت خمساً .. وربما ضعف هذا العدد مما لم أطلع عليه .. لقد كان متفائلاً إلى درجة مفرطة .. وكان يظن أنه سوف يعيد تنظيم الاتحاد السوفياتي دون أن يخطر على باله ان النظام سوف يتعرض للانفراط التام .. لقد أدرك طبيعة الخلل وتوهم أنه يستطيع تجديد البناء دون أن يتعرض الصرح الهائل للانهيار..

لقد تحدث عن إصلاحات الذين سبقوه على زعامة الاتحاد السوفياتي ابتداء من خرونشوف وبين انها محاولات اصلاحية جادة لكنها كانت مؤقتة لأنها غير جذرية .. بينما هو يرى أنه لابد من الإصلاح الجذري .. حيث يقول:

«.. كل ذلك شكل مبادرات كبيرة جداً هدفت إلى تحقيق تغييرات ايجابية في الاقتصاد .. ولكن حتى هذه المبادرات لم تلبث أن انكبحت بعد أن تمخضت عن أثر فعلي ولكن مؤقت .. وعلى تربة القلق وعدم الاستقرار الناجمين من الخلل الحاصل في عملية تبدل القيادة برزت ظاهرتا الركود والانكباح واقتضى الوضع بالحاح ايجاد حلول جذرية ترمي إلى تحسين أولوية الإدارة الاقتصادية والاجتماعية..»

وغاب عن بال جورباتشوف ان التغيير الجذري يعني دك الأساس والافساح لبنى جديدة تقوم على مقومات جديدة وقد قيل بحق «.. ان ضرب البنية الذهنية في احدى مكوناتها الأساسية يؤدي حتماً إلى احداث تغيير في باقي مكوناتها..»

غير أن غياب هذه الحقيقة عن ذهنه.. وافتتانه بنمط توازنات الحياة الغربية: قد جعلاه ينتهج اسلوباً جديداً لم تكن شعوب الاتحاد السوفياتي قد تهيأت لممارسته.. فانفلت منه الزمام بسبب الطوفان البشري الذي لم يتمرس على اسلوب التوازنات القائمة على الحوار.

نجد تفسير الذي حصل في فقرة من كتاب (مناهج السياسة الخارجية في دول العالم) لمجموعة من الباحثين الغربيين حيث جاء فيه «.. لقد اقيم البناء العلوي للنظام الشيوعي على أساس حكم الفرد وحقه في فرض الوحدة على الجميع .. فلابد ان يعتريه التوتر من جراء تحويله لنظام تعددي وحكم جماعي.. والأساس القديم هو الذي أعطى الدبلوماسية السوفياتية أعظم مكاسبها الفورية.. ولكنه يوشك اليوم أن يؤدي لانهيار البناء الذي أقيم فوقه..».

لكن جورباتشوف سمح للمياه أن تفيض من فوق السد الترابي.. فانجرف به السد وبكل الطوفان البشري الذي كان محجوزاً خلفه .. فإذا هو يقذف به خارج المجرى.. وإذا الطوفان يغرق الذين حاولوا الوقوف في طريقه .. ومازال الطوفان يزمجر دون ان يسفر عن ملامح واضحة للمستقبل.

ولغرابة المفاجأة الكبرى .. فإن الكثيرين توهموا ان الغرب قد خطط لهذا الفيضان الساحق .. وانه ربى جورباتشوف من أجل ان يوصله لزعامة الاتحاد السوفياتي ليضمن تفكيك الجهاز الضخم من قمته وليسمح لمياه السد الترابي ان تفيض لتجرف السد وما حوله ولتتحول إلى طوفان يجرف كل ذلك الكيان الضخم المرعب بكل التعقيدات التي انطوى عليها تكوينه..

ولكن هذا التصور ليس أكثر من وهم من الأوهام التي يلجأ إليها الناس حين يفاجأون بتحولات غير متوقعة..

والشيء المؤكد ان جورباتشوف لم يكن صنيعة غربية كما يتوهم البعض ولم يكن مزروعاً منذ عقود ومخططاً له ليفعل الذي فعل.. وإنما النتائج التي تمضخت عنها اجراءاته كانت مفاجئة له هو ذاته أكثر مما فاجأت الآخرين..

إذن لم يكن جورباتشوف في إجراءاته يهدف إلى تقويض الاتحاد السوفياتي .. كما يتوهم البعض .. بل إنه كان شديد الاخلاص للايديولوجيا التي تربى عليها ولكنه كان موقناً بأنه يعيد الشباب إلى النظام الذي أخلص له وفي هذا يقول:

«... فأي استنتاجات يمكن استخلاصها من دروس الماضي التاريخية وعبره..؟ .. لعل الاستنتاج الأول ان الاشتراكية بوصفها نظاماً اجتماعياً برهنت على امكاناتها الهائلة في حل أعقد مشكلات التقدم الاجتماعي ونحن مقتنعون في قدرتها على تحسين نفسها والكشف عن امكاناتها الكامنة الأخرى وكذلك قدرتها على حل المهمات الكبرى الراهنة للتقدم الاجتماعي المنبثقة عشية القرن الحادي والعشرين..».

وهكذا فقد كان جورباتشوف يعيش وهم تجديد البناء الخرب .. ولم تكن تخطر على باله النهاية المدوية .. كان مخلصاً لأيديولوجيته لكنه كان يجهل مفاجآت السلوك البشري..

إن ظهور جورباتشوف في البيئة السوفياتية المتعفنة .. بهذه العقلية النقدية المتفتحة .. يعتبر ظاهرة غير عادية ولا تتكرر إلا في حالات استثنائية نادرة..

إن جورباتشوف .. أراد أن يواجه الخصوم بما لم يكونوا يتوقعونه .. حتى إنه يذكر أنه بذل جهداً كبيراً من أجل العثور على تعبير يستهوي الاوروبيين فوصف القارة الاوروبية بأنها «.. البيت الأوروبي..» ليجعل الناس في أوروبا يشعرون أنهم والاتحاد السوفياتي ٥ ٤٤ك ٤بة أسرة واحدة يضمها بيت واحد..

واستطاع فعلاً أن يسحر الاوروبيين والامريكيين.. وان يصبح أكثر زعماء العالم شعبية .. غير أنه فشل في توجيه الطوفان الجماهيري داخل المعسكر الشيوعي .. فانفرط التماسك وانهار البناء بأجمعه..

كان يقول: «.. ثمة استنتاج رئيسي .. انه الاعتماد على روح المبادرة عند الجماهير وابداعها والمشاركة الأنشط في تنفيذ برامج التحولات

المرسومة..».

إن جورباتشوف قد أدرك سر اطراد التفوق الغربي فأراد ان يفتح المجال لتوازن الأهواء.. ولكنه واجه أهواء غير مدربة على ممارسة هذا الفن الرفيع فصار هو (... صانع القرار .. وهو الضحية..).

في النظام الغربي يثور الصخب حول أكبر وأصغر القضايا .. بل أحيانا تطفو اضطرابات شاملة ومفاجئة .. كما حصل في فرنسا عام ١٩٦٨م وكما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مرة.

لكن الاحتجاجات هناك جزء أساسي من بنية النظام الغربي .. ولذلك لا تمثل أي تهديد لهذا النظام .. ففي البلدان التي تأسست على مبدأ الحوار تكون الاضطرابات بمثابة غربلة للحياة .. ومهما بلغت من الشمول فإنها فيضان طبيعي ينساب من فوق السد الصخري دون أن يتزعزع أو يتأثر السد ذاته .. ينساب الماء فيروي الأرض ولا يجرفها ويسقي الزرع ولا يتلفه..

إن الحياة هناك تقوم على مبدأ توازن الأهواء.. فالاضطرابات مجرد عامل من عوامل التنبيه بأن المبدأ مصاب في جزء من أجزائه بشيء من الخلل .. يتم اصلاحه فيعود التوازن ويهدأ الاضطراب..

وهذا هو الفرق بين حياة قائمة على سد ترابي.. لا يشتمل على أي نظام لتصريف الفاض .. فإذا فاض الماء انجرف التراب وانهار السد وأهلك الحرث والنسل.. حياة تقوم على السكون المطلق أو الانجراف المطلق..

وبين حياة قائمة اصلاً على التوازنات .. فالفائض لا يتحول إلى طوفان وإنما يتم تصريفه بنظام .. فهو ليس نشازاً ولا طارئاً على الحياة وإنما هو احد مكوناتها الأساسية..

جورباتشوف .. ظن أنه يستطيع أن يجلب للاتحاد السوفياتي وللمعسكر الشرقي .. مزايا النظام الغربي .. دون ان تخطر على باله هذه النهاية الدرامية المذهلة..

كان جورباتشوف صاحب قرار تاريخي جريء ... لكن السلوك البشري فاجأه بما لم يكن له في الحسبان .. كان يجهل المفاجآت التي قد يسفر عنها السلوك البشري .. ربما لأنه كان مأخوذاً بخرافة حتميات التاريخ وحتمية انتصار الشيوعية..

على أي حال ليس هذا هو الذي يعنيني في هذا المقال وإنما الذي أود لفت النظر إليه هو: هشاشة الأوضاع البشرية .. وهشاشتها آتية من عجز العامة عن التبصر مما يؤدي إلى سهولة قيادتهم في مجالات الخير والشر

.. كمـا أن هشاشـتها آتيـة من تعقـيدها البـالغ .. ومن مفاجـآت الطبع الإنساني.. ومن عجـز عامة الناس عن فهم الأحـداث والأفكار والأشخاص والمواقف وتقويمها تقويماً موضوعـياً عماده الفهم والفكر والفطنة.. وإنما يندفعون كـما تندفع أمواج البحـر أو ينقادون كما تنقـاد أسراب الجراد أو أسراب الطيور..

إن ظهور فـرد واحد .. قد يحمل إلى الـبشرية تحولات كـبرى.. فلو لم يظهر جورباتشوف على مسرح التاريخ .. لما كان العالم بالوضع الذي نراه .. فليس صـحيحاً أن انهيار الاتحـاد السوفياتي وتناثر المعسكر الشرقي .. كان نتـيجة حتـمية لأوضـاع كانت متردية ذلـك أن الغرب كان يعتـقد أن المعسكر الشـرقي في حالة تعاظـم مطرد.. ومن هنا كان الحمـاس الشديد الذي ظهر فـي الولايات المتحدة لمشروع (الدفاع الاستراتيجي) الذي عرف باسـم (حرب النجوم).

دكتور اسـماعيل مـقلد في كتابه عن (الاستـراتيجية الدوليـة في عالم متـغير): «.. الـقفزة الهـائلة التي خطتهـا الاستراتيـجية الـضاربة لحلف وارسو بشقـيها النووي والتقليـدي في السنوات الأخيرة شدت انـتباه كل المراقبين العسكريين وكافة مراكز الدراسات الاستراتيجية المتخصصة في العـالم .. بل وأثارت انبهـارهم بهذه الطفـرة التكنولوجيـة الواسعـة التي امـتدت لتـشمل مـختلـف قطاعات التـسليح الســوفياتي تقريبـاً وبدون استثناء..».

«.. وفي نفس الوقت فـقد أصـبحت هذه القـوة في ابعادها الـعمـلاقة الراهنة وبمعدلاتها المتسارعة وبترسانتـها الممتلئة إلى حافتها بكل وسائل الردع المتطورة الهاجس الأكبـر الذي يسيطر على الأجـهزة المسئولة عن صنع الاستـراتيجـية الغـربية وبالأخص اجهـزة التخطيط العسكري في حلف الناتو .. فقوة حلف وارسو زادت بالفعل كثيراً وكثيراً جداً..».

«... تجـمع التـقـارير الصـادرة عـن مـخـتلف مـراكـز الدراسـات الاستـراتيجية الدوليـة وعن الدوائر العسكرية المسئولة في الغرب .. ان الاتحاد السوفياتي الذي يقود حلف وارسو ويهيمن بالكامل على أوضاعه وسياساته وأجهزة اتخاذ القرارات الاستراتيجية فيه قد قطع شوطاً بعيداً في مضـمار التفـوق على الولايات المتحدة وبالتـالي على حلف الناتو ليس فقط في مـجال الأسلحة التقليـدية والقوة البرية ـ التي يبـدو تفوقه فيـها ساحقاً ـ وإنما في مجال الأسلحة النووية ايضاً..».

«... وتمضـي التقـارير إلى القول بأن الترسـانة العسكرية السوفيـاتية

التقليدية في اوروبا اصبحت تكفي لغزو اوروبا الغربية عدة مرات .. وذلك على الرغم من تركيزهم المتزايد على جبهة المواجهة ضد الصين والتي تضاعف عدد الفرق السوفياتية المتمركزة حولها..».

«.. وبلغة الأرقام فإن القوة التي يملكها حلف وارسو في جعبته الآن تضم قرابة أربعة ملايين ونصف المليون جندي.. وأكثر من خمسة وخمسين ألف دبابة وخمسمائة سفينة حربية وسبعة آلاف طائرة مقاتلة من مختلف الانواع..».

«.. وبرنامج اعادة البناء العسكري الذي شرع السوفيات في تنفيذه بجهود مكثفة منذ أواخر الستينات يثير الذهول حقا .. فبينما كانت الولايات المتحدة تصنع ٦٥٠ دبابة و٢٧٥ طائرة حربية سنوياً .. كان السوفيات يصنعون بالمقابل الفي دبابة وخمسمائة طائرة .. كما امتد الفارق إلى طائرات الهليكوبتر فبينما كان انتاج امريكا منها لا يتعدى مائة وخمسين طائرة في السنة وصل الإنتاج السوفياتي إلى ٣٥٠ طائرة، وفي مجال إنتاج الغواصات كان المعدل السنوي ستة للسوفيات مقابل ثلاثة لأمركا .. أما بالنسبة للمدرعات فقد كان المعدل خمسة آلاف مدرعة سوفياتية مقابل الف مدرعة امريكية فقط سنوياً..».

«.. ولم يكن التفوق العددي هو فقط الذي أثار قلق البنتاجون وانزعاجه وانما الذي حرك مخاوفهم هو ان السوفيات امكنهم أن يحققوا قفزة واسعة في الميدان التكنولوجي..».

«.. ومما يعكس هذا القلق المتزايد بوضوح .. التقرير الذي اعدته القيادة الجوية لحلف الناتو اخيراً.. والذي جاء فيه ان الاتحاد السوفياتي تمكن خلال السنوات الماضية من تحقيق انجازات هامة للغاية في مجال تصميم وانتاج الطائرات المعدة لتنفيذ مهمات الهجوم الأرضي والقصف التكتيكي..».

وهكذا يتضح أنه إلى ما قبل بضع سنوات كانت الدراسات تؤكد ان توازن الرعب يميل عسكرياً لصالح ما كان يعرف بالمعسكر الشرقي ان لم يكن من ناحية الكيف فعلى الاقل من ناحية الكم .. وفجأة ينهار ذلك العملاق وتشتعل الحرائق في الأشلاء المتناثرة منه .. على شكل انقسامات عرقية أو اختلافات دينية أو مذهبية .. وتتعرى بوضوح صارخ هشاشة الأوضاع البشرية وقابليتها المطلقة للتذبذب في كل الاتجاهات .. والانتقال السريع والقاصف من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين .. كما تتأكد بأدلة ضخمة وقاطعة خرافة حتميات التاريخ .. كما يتبين بوضوح شديد

استمرار الدور الحاسم للشخصيات القادرة على اتخاذ قرارات تاريخية جريئة تؤدي إلى تغيير مسار المجتمع البشري بأسره .. نحو الشر أو نحو الخير .. أو نحو خليط منهما..

إن ظهور جورباتشوف .. قد غيَّر مسار التاريخ تغييراً جذرياً .. ومع أنه يقال في الغرب باستمرار بأن: «.. عصرنا ليس هو العصر الذي يشجع على انبثاق القادة الشوامخ..» .. فهم يرون ان بلداننا تدار بواسطة المؤسسات والمعلومات والتوازنات .. لا مجال فيها لظهور قيادات تاريخية .. تستطيع احداث تغيير نوعي في الممارسة القيادية..

كما أنهم يؤكدون أن عهد الفورانات والتقلبات قد ولى وان قيادة الشعوب نحو الهاوية أونحو الفوضى أو نحو التغيير الجذري لم يصبح محتملاً لأن الإدارة العامة قد انهت عهد النزوات الفردية..

إلا أن الحقيقة التي تجسدت بوضوح غامر .. هو ان الدهماء مازالوا هم الدهماء في كل مكان .. وان العقل الجماهيري سيظل عقلاً غير راشد ..

ومن هذا المنطلق العام يحق لنا ان نؤكد انه في خضم العقل الجماعي يختلط العلم بالجهل والعقل بالحمق والحقيقة بالخرافة والاخلاص بالهوى والمبادىء بالعادات وينخفض مستوى الأداء الذهني إلى حده الأدنى فالعقل الجماعي يلغي العقل الفردي أو يكاد..

«الرياض» الخميس ٦ جمادى الأولى ١٤١٤هـ ـ ٢١ اكتوبر ١٩٩٣م ـ العدد ٩٢٥٠.

العقـــل البشـــري..
والارتهان الأيديولوجي

شهد هذا القرن من النشاط والإنتاج والتفاعل الإنساني ما لم يشهده أي قرن آخر .. ولكن أي مراجعة شاملة لحصيلة هذا النشاط تكشف فداحة الضياع الذي مني به الجهد البشري في هذا القرن .. كما تشير إلى النتائج العظيمة التي كان ممكناً أن تتحقق لو اتجهت كل الجهود في المجالات الخيرة.

إن البشرية اهتدت فيه إلى الطريقة المثلى لتنظيم الجهد وتكثيف العمل وتوجيه النشاط واستنفار الطاقة الإنسانية .. لكنها لم تستثمر من ذلك سوى القليل في المجالات النافعة .. حيث اتجه غالب النشاط البشري في مجالات التنازع..

إن الإنسانية مازالت تهدر جهدها وتبدد طاقتها في خدمة الايديولوجيات والخضوع المطلق للمسلمات المعلبة .. فالفرد ما برح مستلباً ومغتبطاً بهذا الاستلاب..

ومادام أن هذا القرن بكل ما حفل به من أفكار وعلوم وجيشان وتفاعل واحتكاك واتصال وتقارب لم يستطع أن ينور الناس ولا ان يزحزح الايديولوجيا عن تأثيرها الحاسم .. فإنه من الواضح ان الانسانية سوف تبقى تحت تأثير التنازع الايديولوجي..

إننا في القرن الذي تحقق فيه الاحتكاك المباشر بين كافة المجتمعات وتوفرت فيه الاتصالات بشكل جعل أي حدث في أي مكان يصير متداولاً بين الجميع فور حدوثه .. حيث يتم نقله حياً وعرضه مباشرة على كل الدنيا حتى لكأن جميع الناس قد شهدوا الحدث..

إنه القرن الذي حصل فيه التفاعل بين كل الأجناس ،من مختلف المعتقدات واللغات .. واتيح فيه من تصادم العقائد وتفاعل الآراء وتدفق المعارف ما لم يتح سوى القليل منه في القرون الماضية..

ومع كل هذا الاتصال ومع كل هذا التفاعل فإن الايديولوجيات المتباينة لم تكتسب سوى مزيد من التنافر والتباعد والرسوخ.

كما أن عامة الناس لم يكتسبوا سوى مزيد من من التلقائية وبقيت الكتل البشرية أشبه ما تكون بالقطعان التي تساق إلى المجزرة.. بل ان حال البشر أسوأ من حال البهائم: ﴿.. ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل..﴾ .. ﴿.. أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون..﴾ فالغفلة وعدم تشغيل العقل والاندماج التلقائي هي سبب الضلال والضياع .. وهي سبب استمرار الخلاف وتفاقم الشقاء الإنساني.. خمسة وسبعون عاما .. ومئات الملايين تهتف للشيوعية وتقيم التماثيل والأصنام لماركس وانجلز ولينين .. وفجأة يسقط هذا الوثن الضخم وتهجم الملايين على تماثيل بناتها لتوسعها شتماً وهدماً..

ولكن الإنسان لا يتعظ بل ينتقل من ايديولوجيا متعفنة إلى أيديولوجيا أخرى مماثلة ليبقى خاضعاً غافلاً مستسلماً..

ولو استعادت الشيوعية هيمنتها لعادت الملايين تهتف من جديد وتعيد اقامة الأصنام والتماثيل من جديد وبشكل لا يقل في غلوائه ورعونته عن ذي قبل..

ولست انكر ان البشرية حققت انجازات عظيمة هائلة في مجال العلم والطب والتقنية .. لكنها كانت انجازات القلة من المبدعين.. أما البشرية في مجموعها فإن الجهد الذي انفقته في المجالات النافعة يأتي ضئيلاً إذا قيس بما انفقته في خدمة الايديولوجيات..

لقد استنزف الصراع جهد الإنسانية جمعاء.. حيث انشغلت بالتنازع واستغرقت بالاختلاف.. فانفقت في مجال الايديولوجيا اضعاف ما انفقته في مجال العلم المحض.. ولم يكن للفكر الرصين سوى دور ضئيل في توجيه النشاط البشري.

وحتى المكاسب العلمية والتقنية جاء الكثير منها ليخدم الايديولوجيا اكثر مما كان خدمة خالصة لطالب المعرفة أو احتياجات العلم أو سعادة الإنسان..

فالايديولوجيات افسدت الإنسان وأضاعت جهد الإنسانية ووجهت النشاط البشري وجهة خاطئة وجلبت على الإنسانية الكثير من

التعاسة والشقاء..

وإذا كان النشاط العقلي هو أرفع نشاطات الناس واحراها بالتبصر والتعقل، فإن أي تأمل في هذا المجال يكشف فداحة الضياع.

تأمل فقط آلاف المطبوعات التي كانت جزءاً من الصراع بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي، لترى مقدار الجهود الهائلة التي اهدرت في ذلك الصراع الذي استمر أكثر من سبعين عاما .. كانت الايديولوجيا هي التي توجه نشاط الفكر والعلم والاعلام والعمل.

وعلى سبيل المثال فإن جريدة (برافدا) ظلت عقوداً متواصلة وهي تطبع كل يوم أكثر من ثلاثين مليون نسخة .. وكانت تحرك الدنيا وتستفز العالم .. ولكنها الآن صارت من الآثار المتحفية.. فمن كان يتوقع لها مثل هذا المصير بعد أن كانت تمارس كل ذلك التأثير..؟!!

لو جمع كل ما طبع من جريدة (برافدا) وحدها لكان كافياً لردم بحيرة كاملة من البحيرات الكبرى..

ولم تكن جريدة (برافدا) سوى جزيئة صغيرة جداً من ذلك الجهد الضخم الذي شارك فيه الاف العلماء والأدباء والفلاسفة والباحثين ورجال الاعلام والدعاية وغيرهم من صفوة المجتمعات فضلاً عن جيوش التجسس وجيوش الترويج الايديولوجي..

إنها جهود ضخمة ونشاطات متعددة كانت تجري على كافة المستويات وفي جميع الحقول .. من كلا الجانبين .. وبذلك تم استنزاف الطاقة الإنسانية في خدمة الايديولوجيات..

الاف الكتب صدرت من جانبي الصراع .. ومئات الصحف والمجلات بقيت تواصل الصدور أكثر من سبعين عاماً .. كل يوم أو كل اسبوع أو كل شهر .. وكان كل طرف يؤكد حتمية انتصاره هو وهزيمة الطرف الأخر.

لو تم جمع كل ما صدر من مطبوعات ايديولوجية خلال هذا القرن ثم القيت في أحد البحار لأفسدته باحبارها وزيفها .. وهذا شاهد واحد على فداحة التزييف الذي تتعرض له الحقيقة .. كما أنه شاهد على ضخامة الجهد البشري الذي تم تبديده في تكريس الايديولوجيات المتعارضة .. والضحايا دائماً هم قطعان البشر التعساء..

هذا الركام الضخم من المطبوعات .. صاغ مئات الملايين من العقول .. ووجه آلاف المشروعات .. وبني على أساسه ما كان يظن أنه من ارسخ العلاقات .. وكان هم كل معسكر ان يكسب مزيداً من مناطق النفوذ.. أما أن يطمع بالانتصار السريع الحاسم الذي حصل فعلاً.. فما كان ذلك يخطر

على بال أحد..

وفجأة يظهر غورباتشوف على مسرح التاريخ ويصل إلى زعامة الاتحاد السوفياتي فيحاول أن يصلح الايديولوجيا المتعفنة وإذا الطوفان البشري يندفع في الاتجاه المعاكس . وإذا المقود ينفلت منه وإذا الاعصار يقتلع كل شيء في طريقه وإذا غورباتشوف نفسه يصبح خارج الحلبة وإذاهو يجلب على العالم وعلى ذاته ما لم يكن له في حسبان..

وبذلك اختل توازن القوى.. وتبدلت الاتجاهات الانسانية وصارت الشعوب تتجه إلى الانقسام والتبدد.. بدلاً من الاتجاه إلى التكتل والتوحد حتى اوروبا الغربية ذات العراقة الحضارية امتد إليها وباء الانقسام فتعثرت وحدتها بعد ان كانت وشيكة التحقق..

ليس هذا فحسب .. بل صارت تطفو على سطح المجتمعات في أوروبا الغربية وأوربا الشرقية النعرات العنصرية .. وأصبح يبرز الطابع القبلي المتسم بالرعونة والبدائية والتخلف .. بشكل يفوق ما كانت تمارسه قبائل الموغول الهمجية في قرون مضت..

وبهذا يتضح ان الدهماء في كل المجتمعات مازالت تسيطر عليها الأفكار البدائية .. وأنها ستظل تهيمن عليها القيم العنصرية أو الاقليمية أو المذهبية..

إن العامة في كل المجتمعات ستبقى طوفاناً يتحرك بالاستجابة التلقائية أكثر مما يتحرك بالتبصر والتحليل والإدراك والتعقل.. إن الجموع البشرية تنقاد بشكل تلقائي للهياج الغوغائي.. أو تستجيب لنداء القلة من ذوي التوجهات الحسنة أو السيئة.. إن الكتل البشرية مرتهنة بالتيار العام أو على أحسن الأحوال بتوجهات القلة يقودونهم إلى شواطىء الأمان.. أو يأخذونهم إلى متاهات الضياع..

وحتى القلة .. قد تقودها الأحداث احياناً على غير ما كانت تحتسب وتتوقع .. على النحو الذي يصوره الزعيم الهندي جواهر لال نهرو .. حين قال:

«.. نحن نفتخر بصناعة التاريخ ونعمل من يوم لآخر كعبيد للأحداث التي تتوالى أمام أعيننا ويتملكنا الخوف وتأتي الكراهية في أعقابه..».

وهذا ينطبق على غورباتشوف اكثر مما ينطبق على أي زعيم آخر.. فلقد جاءت النتائج معاكسة لآماله وتوقعاته بشكل صارخ..

ولكن هل كان غورباتشوف هو السبب في كل هذا الاضطراب الذي أصاب العالم .. أم أنه هو الآخر كان مرتهناً بأحداث لا قبل له بها..؟!

تحصل اتفاقات عجيبة تؤدي إلى تغيير مسار التاريخ فلو ظهر غورباتشوف قبل ظهور رونالد ريجان .. وقبل بروز معضلة (حرب النجوم) فلربما سارت الأمور على نحو آخر..

ولو أن بريجينيف .. هو الذي واجه معضلة (حرب النجوم) لكان تصرفه مغايراً تمام المغايرة لتصرف غورباتشوف..

فالمصائر البشرية مرتهنة بتوافقات عجيبة .. فحين وصل غورباتشوف عام ١٩٨٥م إلى زعامة الاتحاد السوفياتي .. كانت الدنيا تموج بما أعلنه الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان .. عن الدخول في سباق جديد في مجال التسلح .. فقد أعلن عام ١٩٨٣م بأن «.. على الولايات المتحدة تخليص العالم من الخطر النووي .. بل عليها جعل السلاح النووي عديم الفائدة لإرغام العالم على تركه والإقلاع عنه..».

وهذا يعني أن على الاتحاد السوفياتي أن يبدأ من الصفر مشواراً جديداً في مجال الإنفاق العسكري الباهظ الذي لا تتحمله موارده .. وان يخسر كل ترسانته الحربية التي يعتبرها مصدر أمنه ومنبع جبروته..

وهي الترسانة التي اعتصر فيها كل إمكاناته المادية وموارده العلمية والتقنية والبشرية خلال خمسة وسبعين عاما .. إنه مأزق فظيع ولذلك كان الارتباك فظيعاً..

جاء في كتاب عن (حرب النجوم) لعضو جمعية الدفاع الالكتروني بالولايات المتحدة الدكتور عادل الصافي بأن «... مبادرة الدفاع الاستراتيجي اضخم وأغلى برنامج بحث في التاريخ..».

إن الأبحاث فقط تطلبت في السنوات الخمس الأولى ميزانية مقدارها (٢٦) بليون دولار «.. إن مبلغ الستة والعشرين بليون دولار المخصص للصرف للسنين الخمس في مرحلة مبادرة الدفاع الاستراتيجي الخاصة بالأبحاث فقط، توازي الصرف الكلي لأي من نظم الأسلحة الهجومية الرئيسية..».

وحسب ما قاله فريد آيكل: «.. بعد ان يكتمل نشر نظام مبادرة الدفاع الاستراتيجي فإنه يحتاج لميزانيات سنوية ضخمة .. فالصرف السنوي على النظام (ربما يصل) إلى مائتي بليون دولار...».

إنه رقم مخيف .. وسواء كان رقماً صحيحاً .. وكان المشروع جاداً.. أو كانت المبادرة كلها حرباً نفسية أكثر مما هي اتجاه حقيقي .. فإن النتيجة كانت فوق ما يتصور العقل .. فالرقم المخيف قد هز اعماق غورباتشوف قبل ان يصل إلى زعامة الاتحاد السوفياتي وما ان تولى الزعامة حتى

جعل همه الأول تجنب البدء في سباق جديد للتسلح .. وهيمنت هذه القضية على تفكيره حتى أنسته كل شيء آخر..

بعد فترة قصيرة من اضطلاع غورباتشوف بمسؤوليته الكبرى أعلن عن موقفه مما أسماه (واقع العصر النووي الفضائي) .. وكان واضحاً مقدار الفزع الذي أصابه من التحدي الجديد الذي فرضته مبادرة (حرب النجوم) وبلغ به الهلع من التحدي الجديد .. انه هدد باجهاض المبادرة عن طريق التدمير الشامل باطلاق المارد النووي قبل أن يتمكن الطرف الآخر من ابطال مفعوله حيث اعلن بشكل صريح:

«.. ونحن على وعي كامل بأن القوى الرافضة لتوجه نزع السلاح في الولايات المتحدة تبذل جهوداً متصفة بالتصميم للتصدي لذلك التوجه ولا تكف عن محاولة استدراج الاتحاد السوفياتي إلى دوامة سباق تسلح متصاعد واستفزازنا إلى الانصراف عن سبل التفاوض....».

إلى أن يقول: «... إننا نعرف جيداً مع من نتعامل .. وأمن بلدنا مقدس بالنسبة إلينا .. وهذه مسألة مبدأ لا تفريط فيه يجب ان تكون واضحة للجميع .. وانطلاقاً من ذلك الموقف نستجيب لكل تحد تواجهنا به الولايات المتحدة بما في ذلك مبادرة الدفاع الاستراتيجي سيئة السمعة .. وفي هذا الخصوص يكون من الخطأ ان يطمح أحد إلى تخويفنا ويكون من الخطأ ايضا استدراجنا إلى تبذير نفقات لا داعي لها وإذا ما اقتضى الأمر فسنستجيب لذلك التحدي استجابة فورية حاسمة لكنها لن تكون الاستجابة التي تتوقعها الولايات المتحدة بل استجابة تفقد برنامج حرب النجوم قيمته وجدواه .. وأنا أقول هذا بغرض واحد هو دعوة الإدارة الأمريكية إلى ان تزن جيداً وتعيد وزن القيمة الحقيقية لبرامجها العسكرية الجديدة ولسباق التسلح ككل من زاوية مصالح الولايات المتحدة وأمنها...».

وهكذا نرى أن غوبارتشوف رأى نفسه في بداية عهده أمام خيارين كليهما بالغ الصعوبة ... فإما أن يقحم الاتحاد السوفياتي في سباق جديد باهظ التكاليف للتسلح لمواجهة (استراتيجية حرب النجوم) .. أو أن يشعل الأرض بحرب نووية شاملة تقضي على الجميع قبل أن تصير المبادرة الامريكية واقعاً لا يمكن مواجهته..

وفي خضم هذا الارتباك الشديد .. مال إلى مهادنة المعسكر الغربي .. وصار يتودد إلى الخصوم .. وسعى إلى استمالة العالم بانتهاج تفكير جديد في التعامل عبر عنه في خطبه وتصريحاته في كتابه (إعادة البناء).

وظاهرة غورباتشوف في بدايتها: شدت الناس وأسرت العقول واستقطبت اهتمام الجميع .. وصارت موضوعاً لدراسات متباينة حول أسبابها وتوجهاتها وتخمين نتائجها، لكن لم يكن أحد يتوقع في البداية مثل هذه النتائج .. حتى أشد الناس إلماماً بأوضاع العالم مثل الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون .. كان بكتاباته الأولى عن الظاهرة: يتوقع أنه بظهور غورباتشوف سوف تتعاظم قوة الاتحاد السوفياتي غير أنه بكتاباته الأخيرة لم يخف ابتهاجه بالاضطراب السريع والتفكك الذريع الذي تمخضت عنه الظاهرة .. وان كان هذا التفكك قد جاء مخالفاً لتوقعاته..

ولا يعنيني من الموضوع جانبه السياسي .. وإنما الذي يهمني هو الجانب النفسي .. لأنني مشغول الذهن برصد الظواهر البشرية من أجل تفهم الطبيعة الإنسانية..

ومن المؤكد أن الأحداث التي مر بها العالم خلال السنوات القليلة الماضية .. وخصوصاً أحداث الاتحاد السوفياتي وتفكك المعسكر الشرقي واندلاع أحداث الانقسام والتشرذم .. كل ذلك صار مادة ضخمة لتفهم الطبيعة البشرية وسبر أغوار السلوك الإنساني..

فلقد ثبت بشكل صارخ هشاشة الأوضاع البشرية وقابلية الناس للتذبذب الغوغائي إلى أبعد مدى .. كما ثبت أن العلم والفكر والفلسفة لم تكن ذات أثر عميق على عامة الناس حتى عند أوسع الشعوب تعليماً..

فتأثير العلم والفكر على تفكير الناس في كل بقاع الأرض مازال محدوداً للغاية .. والمعارك الفكرية والفلسفية والايديولوجيا .. قد تكون أساساً لحياة أي مجتمع .. لكن دون أن يفهم الناس مضمونها الحقيقي وإنما يستجيبون انقياداً ويتحركون مع التيار من غير وعي أو فهم..

«الرياض» ٢١/٤/١٤١٤هـ/٧/١٠/١٩٩٣م.

عجز الانسان عن اكتشاف ذاته

يكفي أن تستعرض بذهنك الأحوال المتباينة للمجتمعات في كل بقاع الأرض لتدرك أي اخطبوط فظيع هذا الذي ندعوه المجتمع .. حيث يغتبط الأفراد في كل المجتمعات بالحالة التي يجدون أنفسهم فيها دون أن يخطر على بالهم أنهم بفعل المجتمع قد اغتربوا عن ذواتهم الصافية: «... كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...».

هذا الواقع البشري المطرد أدركه الذين درسوا الانسان فرداً بواسطة علم النفس .. أو درسوه مجتمعاً عن طريق تتبع الحضارة الإنسانية في شمولها أو في مفرداتها .. كما أدركه الذين درسوا المجتمعات المختلفة سواء من خلال التاريخ أو علم الإنسان أو من خلال دراسة المجتمعات القائمة ذات القيم المتفاوتة ..

فالأفراد في كل المجتمعات غارقون في استسلام مفعم بالرضا والغبطة في الجانب الاعتقادي والعقلي والمعرفي . وهذه الغبطة هي العائق عن اكتشاف الفرد لذاته لأنه لم يدرك أنه يعيش استلاباً كاملاً، فهو يتوهم أنه تام التفرد .. لذلك يندر في الناس من يخترق هذا العائق لأنه أصلاً لا يعلم بوجوده فلا يحاول اكتشافه فضلاً عن اختراقه..

وهذا العائق الصلد هو ما عبر عنه القول النبوي العظيم .. وهو الذي حاول أن يعبر عنه الفيلسوف الألماني الشاعر جوتة في عبارته الرائعة: «... نقائص الإنسان مستمدة من عصره (مجتمعه) أما عظمته وفضائله فمستمدة من نفسه...».

ذلك أن الرضا بالاغتراب عن الذات والاغتباط بالفكر السائد والاندماج فيما هو قائم والانجذاب التلقائي للقيم المهيمنة.. هو السلوك المعتاد من كل

الناس في كل مكان وزمان .. اما الانتباه لغباء هذه الغبطة والاحساس الجاد بوجوب المراجعة والفحص والاضطلاع بمهمة التحليل والتقييم: فتعتبر فضائل نادرة وخارقة يستمدها الفرد من ذاته .. حيث يكتشف هذه الذات فيستردها من الأسر ويمحضها حق التخلص من النقائص المكتسبة التي أفعمه بها مجتمعه..

إن الرجال الذين اتيح لهم قيادة الآخرين بشكل مباشر يعرفون الطبيعة البشرية أكثر من غيرهم ويدركون فيها مواطن الضعف الكثيرة.. كما يلمسون تلك المزايا النادرة التي تومض في بعض العقول.. فتكتسب بها استقلالا في الرأي وصواباً في التقدير ومرونة في استقطاب الأفكار وقدرة على الاستفادة الذهنية من كل ما تموج به الحياة من تناقضات..

الجنرال جان بيريه .. كان قائداً في الجيش الفرنسي .. واشترك في الحربين العالميتين .. الأولى والثانية .. وإلى جانب ذلك فهو مثقف ومطلع على الكثير من ذخائر الفلسفة وروائع الفكر ويستمد آراءه من تجربة مباشرة في قيادة الرجال في أحرج المواقف والتعرف على الأفراد في أصعب الظروف..

كما أنه يستند إلى رصيد ضخم من الدراسة في علم النفس وفي الفلسفة وفي الفروع المعرفية المتشابكة .. التي يساهم كل واحد منها في تجلية زاوية من زوايا الإنسان أو الكشف عن جانب من جوانب تكوينه المعرفي والنفسي والوجداني..

هذا القائد المثقف قد أفرغ خلاصة تجربته ودراسته وتأملاته في كتاب يحمل عنوان (الذكاء والقيم المعنوية في الحرب) ونقله إلى العربية أكرم ديري والهيثم الأيوبي ونشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر..

الكتاب خلاصة فلسفية علمية عن النفس الإنسانية يستفيد منه المربي والمسؤول ورئيس العمل مثلما يستفيد منه القادة ورجال الحرب..

ولقد انتهى جان بيريه في هذه الخلاصة العميقة إلى أن المتفوقين من الناس عدد محدود جداً.. وأن قلة قليلة تملك بعض القيمة الفكرية أما معظم البشر فهم غير أذكياء وقدرتهم على التفكير ضعيفة وفي ذلك يقول:

«.. لقد كشفت الاختبارات بشكل أكيد ضعف قدرة التفكير لدى معظم الناس أي أنها أثبتت حقيقة أكدتها تجربة آلاف السنين وهي ان معظم الناس غير أذكياء وتتمتع القلة بقيمة فكرية جيدة بالاضافة إلى عدد محدود جداً من المتفوقين...».

كما خلص إلى أن: «... نمو الذكاء وظهوره يحتاج إلى تدريب دائب وتوفر شروط البيئة...».

هذا الواقع الإنساني المطرد في كل زمان ومكان .. يجده الباحثون صارخاً أينما اتجهت بهم سبل البحث في الفرد والمجتمع..

وعن هذا الاطراد يقول المؤرخ الامريكي الشهير ديورانت في الجزء الحادي والعشرين من كتابه الضخم (قصة الحضارة):

«... الحضارة في كل عصر .. وعند كل أمة .. نتاج أقلية.. والمؤرخ العليم بما تتصف به السخافات من عناد شامل نفّاذ: يوطن نفسه على الاعتقاد بما سوف يكون للخرافات من مستقبل باهر مجيد.. ويدرك أن نسبة قليلة من الناس في أي جيل هي وحدها التي تستطيع أن تتحرر من المتاعب الاقتصادية تحرراً يتيح لها من الفراغ والنشاط ما تستطيع به أن تفكر تفكيرها الخاص بدل تفكير أسلافها أو من يحيطون بها .. ويتعلم هذا المؤرخ أن يبتهج إذا استطاع أن يجد في كل فترة من الفترات عدداً قليلاً .. رفعوا أنفسهم بقوة عقولهم أو بفضل مولدهم أو ظروفهم من وهدة الخرافات والسذاجة العقلية إلى مستوى من الذكاء القائم على العلم .. ويدركون به ما هم فيه من جهل لا حد له...»

هذا الواقع البشري المتفاقم والمستمر .. يؤكده المؤرخ مثلما يؤكده الفيلسوف ويكتشفه القائد مثلما يكتشفه العالم ويحس به الأديب مثلما يحس به المعلم..

عن ذلك يقول وولتر كاوفمان في تقديمه لكتاب (الاغتراب) لريتشارد شاخت: «.. فالناس يضعون ايمانهم أو رفضهم .. دون أن يتساءلوا حتى .. لماذا ينبغي أن يقابل هذا التأكيد بصورة منطقية بزعم معارض على طرف نقيض منه ..وإنه لما يظهر افتقاراً مروعاً للخيال والعلم والمسؤولية .. الزعم بأن أي شيء على الاطلاق.. يتحتم ان يكون أفضل مما هو عليه ذلك الذي لا نحبه...»

ثم يقول: «.. إن هناك نوعين من البشر: القلة التي يمكنها معالجة الاغتراب لتميزها بالقدرة على الخلق والكثرة التي لا تستطيع ذلك لافتقارها لهذه القدرة..

«... وما من شخص يظل خلاقاً طوال الوقت وما من شخص يفتقر دائماً للنزعة إلى الخلق ومن سوء الحظ أن الكثيرين يقتربون من النموذج المتطرف الأخير.. (الافتقار المطلق لنزعة الخلق).. ويرجع ذلك بصورة جزئية إلى خطأين بالغين: إن التعليم الذي تلقوه يعطيهم صورة مغرقة في الخيال عن الخلق ويقنعهم بأنهم خلاقون بهذا المعنى الاستثنائي كلية ومعظم الناس يكتشفون بسرعة .. أنهم ليسوا كذلك ثم يستسلمون وكنتيجة لذلك فإنهم يبتلعون الفكرة الزائفة القائلة بأن هناك نوعين من

الناس وغالباً ما يسم تقاعسهم نوع من الرفض لأولئك الذين لم يستسلموا .. (ولذلك فإن) معظم الناس مجرد صور هزلية لما ينبغي أن يكونوا عليه..».

ومما كرس حالة الاغتراب عن الذات ورسخ العجز المطلق عن اكتشاف مأساة الاستلاب: شيوع الوهم بأن انتشار التعليم قد بدل الحال واكسب الافراد وعياً كان السابقون يفتقرون إليه..

ولم يفطن مروجو هذا الوهم .. أن التعليم الشكلي في كل العالم ليس حياديا ولا ناتجا من نواتج العلم المحض وإنما هو نتاج المجتمع ذاته لذلك تكون مهمته في كل مجتمع تكريس الأفكار السائدة .. ومن أوضح الشواهد على هذه الحقيقة، التقلبات التي طرأت على مناهج التعليم في روسيا قبل الثورة الشيوعية وأثناء الحكم الشيعي ثم التغيير الذي أعقب الانهيار الماركسي في كل العالم..

إن مناهج التعليم في روسيا والبلدان التي كانت تابعة لها والتي كانت تدور في فلكها .. قد صارت الآن تقول عكس ما كانت تقوله في السابق بل هي في الوقت الحاضر تركز على هجاء كل شيء يرمز للوضع السابق .. من الأشخاص والأفكار والمفاهيم والمواقف .. وذلك من أجل ضمان اقتلاعها وتبرئة المجتمع من شرورها..

وهذا من أكبر البراهين على أن التعليم الشكلي في كل الدنيا ليس بابا من أبواب الوعي .. وإنما هو وسيلة لتخريج المهنيين والحرفيين وتكريس الواقع..

التعليم الشكلي يمنح الافراد فرصاً مهنية فقط ليكونوا طيارين أو أطباء أو محامين أو مهندسين أو غير ذلك من مجالات الأداء.. أما تكوين الوعي وايجاد المبدعين .. وتنشئة المفكرين .. فإن الواقع في كل العالم يحول دون الأدعاء بأنها من مهام التعليم الشكلي..

إن تلألؤ العقل لا يتحقق إلا بجهد فردي .. إنه ثمرة النزوع المستقل في التفكير .. ولذلك يكون في الغالب تجاوزاً لما يردده التعلم الشكلي .. فهو عودة إلى الذات في نقائها الفطري وانفتاح بصير على كل الآفاق من أجل اثراء الرصيد المعرفي واكتمال النضج العقلي وعدم الشعور بالامتلاء الكاذب أو الانخداع بالاحساس الواهم بالاكتفاء..

فالأفراد في كل المجتمعات مرتهنون بمنظومة القيم التي تحرك اهتمامات الناس وتوجه نشاطاتهم .. وليس التعليم الشكلي سوى جانب من هذا النشاط مهمته تأكيد ما هو قائم وترسيخ ما هو متبع..

أما ما ندعوه (الثقافة العالمية) وتحول العالم (إلى قرية) فهو امتياز

القلة ذات القدرة على الانفلات من الاخطبوط..

أما الكثرة في كل المجتمعات فسوف تظل ترزح في مصيدة الاخطبوط دون أن تدرك انها في المصيدة .. وهذا منشأ المأساة..

العقل البشري فقد نقاءه منذ أن وقع في الأسر حيث تلبس في هذا النسيج العنكبوتي الخانق.. لقد صار محروماً من صفائه الفطري وأصبح مرتهناً بحالة مسبقة ولم يعد نتاج ذاته..

مئات الملايين من الناس يولدون ويموتون ويمرون على هذه الأرض دون أن يتركوا أثراً ضاراً أو نافعاً.. ودون أن يفكروا تفكيراً جاداً في معنى اندماجهم في القطيع..

وإذا قام الملايين بعمل نافع أو ضار فإنما يفعلون ذلك في الغالب استجابة تلقائية للاتجاه العام أو انقياداً أعمى خلف فرد واحد أو أفراد معدودين يوجهونهم نحو الخير حيناً ونحو الشر في غالب الاحيان..

صانعو التاريخ خلال كل العصور مازالوا في نطاق المئات .. بل إن الدكتور مايكل هارت .. حصر التأثير في مسيرة التاريخ البشري كله بمائة فرد فقط أطلق عليهم اسم (الأوائل).

الأوائل في التاريخ الإنساني كله: مائة فرد فقط .. يالها من ضحالة مخزية لهذا المخلوق المغرور الذي تسيره الحماقة ويغمره الجهل .. ومع ذلك يحيط ذاته بالانتفاش الفارغ..

وتتضاعف الفجيعة ويتفاقم العار .. حين نعرف أن هذا العدد الضئيل من (الأوائل) يشمل كل جوانب النشاط البشري: من قادة الحرب ودعاة السلام .. إلى الفلاسفة والمفكرين وأصحاب الاكتشافات الكبرى وذوي الاختراعات المتميزة وأهل الابداع في كافة المجالات..

فنجدفولتير الفيلسوف بجوار جون كيندي السياسي.. ونجد فاسكو دي جاما المكتشف بجوار اديسون المخترع..

كما نجد شكسبير بجوار نابليون .. وديكارت بجوار ستالين .. ومايكل فراداي بجوار جورج واشنطن..

وهكذا تتضح فداحة عقم الجنس البشري في انجاب الأفذاذ على كافة المستويات مما جعل الحياة الإنسانية مليئة بالتعاسة والبؤس .. واحالها إلى سلسلة من الفواجع والتقلبات..

والسبب في هذا الاملاق البشري في المواهب الفذة: ان المجتمعات تعمل دائماً في كل بقاع الارض على تكريس الواقع وتأكيد أهلية الأفكار السائدة ولذلك لا يتاح للأفراد استثمار قابلية البزوغ .. ولهذا السبب لا تنمو الملكات العليا في الأفراد .. بل يتجه نشاط الجميع إلى الاهتمامات الشائعة

الدنيا .. وبذلك ينـدمجون في الحشـد أو القطيع ويقعـون في الارتهان العام الذي وقع فيه كل السـائرين على هذه الأرض إلا ما ندر .. على النحو الذي يصوره الاستاذ تركي السديري في مقال له قبل سنوات:

«.. إن ذاكرة التـاريخ لا تحتفظ إلا بعـدد قليل جداً جـداً لا يكاد يحصل على أي نسبـة إذا قورن بمئات آلاف الملايين من البشـر .. ذلك العدد القليل جـداً هو الذي مـثل يقظة العـقل في التـعامل مع الزمـن وأعطى لذلك الكم الهائل مـن المخترعين والمبـتكرين والمطورين والمجددين: المفـاتيح الأولى لدخول دهاليز المعرفة..».

العقل البشـري أشبه ما يكون بالأرض البور التي قـد تكون جدباء وقد تكون خصبـة .. ولكنها في كلتا الحـالتين لا تنبت إلا ما يتم وضعه فـيها .. ومع سوء الاستـخدام تفقد الخـصوبة .. بل قد تصاب بما يـسمى (جذام التربة).

وكذلك العقل .. إنه بمرونته وطول فترة قـابليته للتشكيل يكون عرضة لسوء التنشـئة وسوء الاستخـدام .. فيتوقف عن النمـو أو ينمو في اتجاه خاطىء .. ومن هنا جاء الاصـلاق الذريع في المواهب .. فصار الناس في كل المجتـمعـات مرتهنين بالعـادات أو بالانقيـاد للقلة من ذوي التأثيـر الذين يقودونهم إلى الخير حيناً وإلى الشر في معظم الأحيان..

إن تجمـيد قـابلية البـزوغ هو معـضلة الناس في كل مصـر وفي كل عصر .. حيث يتوقف نمو البصيرة .. وتطفى قابليـة الانجراف التلقائي .. وهذه ظاهرة عامة رافقت الإنسـان منذ أن تكونت المجتمعات في كل الأمكنة وفي جميع الأزمنة..

إن الناس يتركـون عقولهم خـاملة فلا يسـتثمرونـها في تكوين الرأي الراشد ولا في تشيـيد الفكر المستنير إنهم لا يكلفون أنفسـهم عناء التفكير الجـاد.. فيبقـون يرددون «... الأفكار المعلبة..» وبذلك يفـقدون جـوهر وجودهم.

وليس هذا مـن مكتـشـفـات العلم الحـديث فـقط وإنما أدرك ذلك المستنيرون في كل العـصور وحاولوا التنبيه إلى ضـرورة الانعتاق منه .. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة حرية أن توقظ الناس إلـى مغبة الاستسلام الغبي للأفكار الرديئة المعلبة .. ولكن الناس أثبتوا خلال كل مراحل التاريخ وفي كل المواقع انـهم عـاجـزون عن الاضطلاع بهـذا الـدور ولذلك فـمن الواضح ان مـعظم الناس يظلون من الدهـماء مـا بقي لهم وجـود في هذه الأرض ﴿... وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير...﴾.

إن تخلي الإنسان عن استـخدام عقله وعجزه قبل ذلك عن تنـمية قدرة

التمييز عنده .. كان وسيظل من السمات الأساسية للإنسان في كل مصر وكل عصر..

وهذا هو ما حاول التنبه إليه شكسبير في مسرحيته (هاملت) حيث يقول:

«... ما الانسان إذا كان كل همه في الحياة أن يأكل وينام؟! مجرد حيوان!.. ولكن من المؤكد ان الذي خلقنا على اختلاف ألسنتنا وعلّمنا النظر إلى ماضينا ومستقبلنا: أودع فينا قبساً من قدرته وحكمته وأراد لنا أن نستغلهما لا أن نتركهما خاملين...».

هذا المقطع من (هاملت) بهذه الترجمة جاء ضمن كتاب (مشكلات المستقبل) ترجمة محمود محمد موسى .. لكن المقطع ذاته ترجمه جبرا ابراهيم جبرا بصيغة أخرى:

«... ما الإنسان إذا كان أفضل ما لديه وخير ما يشغله .. النوم والأكل..؟! حيوان لا غير .. بيد أن الذي صنعنا وجعل فينا نفساً كبيرة كهذه تُرسل البصر إلى الامام وإلى الوراء: لم يهبنا هذه المقدرة .. هذا العقل .. ليتعفن فينا مهملاً..».

نص عميق المغزى .. ولذلك يكون ممتعاً أن نرى كيف يختلف المترجمون في نقله .. لأن هذا الاختلاف يضيف شيئاً من الثراء والامتداد ويقدم لنا نموذجاً في اختلاف المتلقي حسب التكوين النفسي للفرد ووفق الخلفية الثقافية له..

إن حاجة البشرية كلها تشتد إلى يقظة الوعي.. لتقضي على الخرافة .. ويقظة البصيرة لتدرك الحق .. ويقظة الضمير لتبتعد عن الظلم .. ويقظة إرادة الخير لتتخلى عن العدوان..

إن العالم كله يتبنى يوماً للصحة .. ويوماً للبيئة .. ويقيم الاحتفالات الكثيرة من أجل أمور مشابهة .. لكنه لم يلتفت لما أصاب العقل البشري من تلوث .. ولم يبذل أي جهد لعلاج الضمير الإنساني الذي اعتراه المسخ ولا الإرادة البشرية التي تعرضت للتشويه..

لا صلاح للبشرية إلا بترويض نزعة العدوان .. ولا ترويض لهذه النزعة إلا بتنمية قدرات العقل واحياء طاقات الروح والالتزام بمبادىء الحكمة والصدق والحب والتسامح..

«الرياض» الخميس ١٤ ربيع الثاني ١٤١٤هـ - ٣٠ سبتمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٢٢٩.

الانقياد الأعمى
وبـــاء عـــام

لا يكتشف المجتمع حماقاته إلا إذا امعن النظر في حماقات المجتمعات الأخرى .. ولا يستطيع الفرد أن يبصر نقائصه إلا إذا هو لاحظ نقائص الآخرين وحاول مقارنتها بسلوكه..

إن الواقع والتاريخ كلاهما يقدم ما لا مزيد عليه من الشواهد التي تؤكد أنه لا يوجد في الدنيا شعب في منأى عن الحمق الجماعي .. ولعل الشعب الألماني هو أوضح النماذج على استشراء هذا الوباء.. فلا يمكن أن يدعي أحد بأن الالمان غير متحضرين أو يزعم أنهم أقل وعياً من بقية الشعوب .. بل العكس هو الصحيح .. فهم أكثر الشعوب اسهاماً في مجالات العلم والفكر والفن والأدب..

وليس تفوقهم مقتصراً على التجليات العقلية والانساق الفلسفية والبناءات الفكرية والابداع الفني.. ولكنهم بلغوا الغاية ايضا حتى في مهارة الأداء بكل أنواعه واتقان العمل بجميع أشكاله .. إنهم الأوفى مهارة في مجالات العمل والأشد اتقاناً في مختلف ضروب الأداء..

ومع ذلك استهوتهم خرافات هتلر العنصرية فانقادوا له ذلك الانقياد الأعمى الذي كاد أن يزلزل الجنس البشري...

ومادام ان الألمان بكل ما يملكون من ثراء الفكر وبكل ما تزخر به حياتهم من عظمة الانجاز وتنوعه: قد استجابوا للخرافة بكل هذا الانجراف الكاسح فإن وقوع غيرهم في المهازل الجماعية هو شيء ينسجم مع تاريخ الإنسان وواقع الشعوب..

ولذلك فإن توعية الناس بهذا الواقع البشري المتفاقم .. وبما تكون من

ألزم ضروب التوعية ليكتسبوا شيئاً من الحصانة .. فينمو فيهم الحس النقدي الذي يوفر لهم بعض المناعة ضد الانجراف الأعمى..إن التعقل البصير هو البلسم المفقود.. ولذلك تشتد إليه حاجة كل المجتمعات .. بل تشتد حاجة كل الجنس البشري إلى الاصغاء إلى صوت العقل فلعل في ذلك ما يقلل من أسباب التعاسة التي يجلبها الناس للناس بسبب عجزهم عن التعقل..

إن التوسع في دراسة تاريخ المجتمعات والتعرف على عادات الشعوب والأمم في مختلف العصور وشتى الأقطار.. وان التأمل العميق في الأوضاع البشرية هي السبيل لاكتشاف منابع السلوك الفردي والجماعي.. وهي المجهر الذي تتعرى به حماقات الجنس البشري الكثيرة.. وتتجلى به مزاياه القليلة..

إن هذه المعرفة مطلب حيوي لأي مجتمع .. وحاجة ملحة لأي فرد .. لأنها تساعد المجتمع على محاولة تجنب الحماقات والاستفادة من المزايا .. كما أنها تساعد الفرد على أن يتحرى الحق وان يجتهد في بلوغ النضج..

والذي يقرأ التاريخ ويتأمل الأوضاع البشرية.. سوف يكتشف ان حالات الحمق هي الطابع السائد.. وان حالات الرشد هي الاستثناء الذي يكاد الباحث يعجز عن رؤيته لكثرة ما يحيط به من رعونة..

واقبح حماقات الإنسان هو ميله إلى الشر .. وانقياده للهوى.. واستجابته السريعة لنداء العدوان .. وعجزه الذريع عن ادراك كل هذه السوءات..

وفي القديم قال الهمذاني: «.. ما فسد الناس ولكن اطرد القياس...» فالناس منذ صاروا في مجتمعات وهم في معظم الحالات يصاغون بجهالات البشر لا بحقائق العلم ويوجهون في الغالب بأهواء الناس لا بمبادىء الحق..

ولئن تباينت نظرة دارسي الإنسان حول أسباب هذه الحماقة العامة .. فإنهم يتفقون على أنها الطابع العام في السلوك البشري...

نسبة قليلة جداً من كل مجتمع هي التي تكتشف الحماقات ولكنها في الغالب غير مسموعة الصوت ولذلك تكاد تكون معدومة التاثير مما أدى إلى استمرار وتفاقم الحماقة البشرية..

ولقد أدى شيوع الرعونة واستشراء الحمق .. إلى أن توهم بعض العلماء استحالة الوصول بمعظم الناس إلى مستوى النضج إلا بواسطة التدخل الجراحي أو التطويع العلاجي.. وهو اتجاه يتبناه علماء البيولوجيا

الاجتماعية..

ولقد تصدى لهذا الاتجاه العديد من ذوي الاختصاص من بينهم مؤلفو كتاب (علم الاحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية) الذين أكدوا ان الحمق البشري ظاهرة اجتماعية وليس حتمية بيولوجية..

غير أن الشيء الذي يتفق عليه دعاة الاتجاه الوراثي .. ودعاة الاتجاه الثقافي أو البيئي أو الاجتماعي .. أو الذين يرون ان الانسان هو نتاج الوراثة والبيئة معاً: هو أن الكتل البشرية ستظل كما كانت في كل العصور: تنقاد بالتقليد أكثر مما تنقاد بالعقل، وتنجرف بالانصياع التلقائي أكثر مما تتصرف بباعث التبصر..

أما انتشار التعليم في كل بلدان العالم فإنه لم يغير شيئاً في هذا الواقع البشري .. وكل الأحداث في كل البقاع تؤكد استمرار الغوغائية وتشهد لتلقائية الاستجابة.

ومن بين علماء البيولوجيا الاجتماعية إدوارد ويلسون وهو كما جاء في (موسوعة أبوخطوة): «.. عالم احياء أمريكي صاحب نظرية البيولوجيا الاجتماعية التي تنادي بأن السلوكيات البشرية مرهونة بتحكم وراثي وبذا تكون على النقيض من النظرية الاجتماعية التي وضعها علماء الاجتماع.. ممن ينادون بارتباط السلوك بالبيئة وبالظروف الحضارية للفرد..».

هذا العالم يعمل استاذاً بجامعة هارفارد ومن أهم مؤلفاته (البيولوجيا الاجتماعية) و(طبيعة الإنسان) و(الجينات والعقل والحضارة) و(الابداع).

إن إدوار ويلسون .. ليس على طرفي نقيض من علماء الاجتماع فقط وإنما يأتي معارضاً للنظرية السلوكية التي قال بها عالم النفس الأمريكي سكينر.. وهي نظرية في علم النفس ترى امكانية التحكم في السلوك البشري بمؤثرات خارجية وليست وراثية وهي نظرية يشهد لها الواقع اكثر مما ينفيها..

غير أن المهم أن علماء النفس وعلماء الاجتماع بكافة اتجاهاتهم المتباينة وفلاسفة التاريخ: يلتقون جميعاً على غباء السلوك البشري وقابليته للانقياد الأعمى.. فهذا ويلسون ذاته يؤكد أن «... الإنسان يفضل أن ينقاد على أن يعرف فالكائنات البشرية سهلة التلقين على نحو سخيف...».

وهذه القابلية للانقياد الاعمى هي التي اتاحت للمغامرين ان يجلبوا الكوارث والتعاسة للشعوب والأمم وللبشرية جمعاء.. فبسبب الانقياد

الأعمى استطاع العريف هتلر ان يقود كل سكان الأرض إلى حرب عالمية هائلة مدمرة امتدت سنوات .. شملت كل الأمم .. ونالت جميع الأقطار .. ولم تنطفيء إلا بعد أن ازهقت خمسين مليوناً من الناس.. وأصابت اضعافهم بعاهات مستديمة .. وخربت آلاف المدن .. وأدت إلى تغيير جذري في أوضاع الامم وحدود الدول وأنواع النظم.. كما قوضت ذلك الأمل الحالم باطراد نمو الوعي واستقرار السلم وتهذيب الطبع الإنساني .. فانهارت كل الآمال التي كانت تداعب عقول المفكرين .. واتضح ان كل مظاهر التحضر ما هي إلا قشرة رقيقة يختفي تحتها التعصب والحمق والرعونة والكبرياء والجهل .. وتبين ان الابداع في الوسائل والأدوات لم يصاحبه ارتفاع حقيقي للروح ولا انتعاش للضمير ولا اختفاء للتعصب ولا زوال للجهل ولا كف عن العدوان...

إن المانيا بكل تراثها الفلسفي وبكل انجازاتها العلمية والتقنية وبجميع شوامخها وبكافة روائعها الأدبية والفنية .. وبكل قادتها وجنرالاتها .. انقادت خلف العريف هلتر .. حتى اغرقت الأرض بالمآسي والجثث والخراب..

وكانت المانيا ذاتها هي أشد المتضررين من ذلك الجموح الأهوج .. فكانت أكثر الضحايا تعرضاً للتدمير والهلاك .. إن استجابتها الرعناء لهتاف العدوان.. قد جلبت عليها وعلى البشرية تلك الفواجع المروعة..

ولو ان شعباً قادراً على التعقل لكان الشعب الالماني هو الأحرى بهذا الامتياز ... ان مجتمعاً أنجب كانط وهيجل وشوبنهور وجوته وشيلر وانيشتاين والعشرات من أفذاذ الفلاسفة والعلماء ورجال الفكر والأدب وأهل التفوق في كل مجالات العلم والعمل: لهو الأولى بتجنب الرعونة .. لكن الواقع ان الشعب الالماني رغم كل هذه المزايا الرفيعة قد وقع في الظلال وانقاد للهوى واستجاب للحمق الذريع..

والسبب في ذلك ان الدهماء في كل مكان وفي كل عصر: لا تصغي لصوت العقل .. ولا يرقى فهمها إلى استيعاب الفكر البصير .. ولا إلى ادراك الرؤى المتعقلة.. فتنقاد الأوهام وتتجرف خلف المغامرين والمهووسين..

لقد صدرت مئات الكتب في كل اللغات من أجل تحقير هتلر واثبات تفاهته .. وهو شيء يؤكد هشاشة الأوضاع البشرية ورعونة السلوك الانساني أكثر مما ينفيهما .. لانه إذا كان هتلر بكل هذه الحقارة التي يقولون وبكل هذه التفاهة التي يؤكدون فكيف استطاع ان يلحق بالجنس

البشري كل هذه الآثار المروعة...؟!

إن هذا الاحتشاد العالمي على هجاء هتلر .. وكل هذا الاجماع على تحقيره: هو الآخر من تناقضات الجنس البشري .. ذلك أنه لم يكن بوسع هتلر أن يفعل شيئاً لو لم يستجب له شعب كامل من أرقى الشعوب الإنسانية وهذا يؤكد ان الخلل في الانقياد الأعمى عند كل المجتمعات وليس عند مجتمع دون آخر..

ولذلك يرى اينشتاين ان الجنس البشري يعاني من: «... حالة التواكل واللاوعي...» التي تشيع في كل المجتمعات بشكل لا يدع فرصة لنمو التعقل..

ديجول في المجلد الثالث من مذكراته يصف انجراف المانيا خلف هتلر فيقول: «... هذا الرجل الذي بدأ من لا شيء قدم ذاته لألمانيا في الوقت الذي كانت تشعر برغبتها في الحصول على عاشق جديد .. إنها إذ كانت متعبة من الامبراطور الذي هوى ومن الجنرالية الذين هزموا ومن السياسيين السخفاء.. فقد وهبت نفسهالعابر السبيل المجهول الذي كان يجسد المغامرة ويعد بالسيطرة والذي كان صوته الملتهب يحرك غرائزها الكامنة..

«.. هتلر .. يمسك بكافة الفرص وقد زودته الفاشية والعنصرية المختلطتين .. بعقيدة ومبدأ وقد سمح له نظام الحكم الفردي دون رادع.. (كما) قد وضعت القوة الميكانيكية بين يديه مميزات الصدم والمفاجأة .. ومن المؤكد ان الكل كان يقود إلى الطغيان وان الطغيان يقود إلى الجريمة.. ومن جهة أخرى إذا كان هتلر قوياً فإنه كان ايضاً ماهراً وقد كان يعرف كيف يخادع وكيف يداعب (يدغدغ العواطف) ... وان المانيا المأخوذة اللب حتى اعمق اعماقها قد تبعت الفوهرر في وثبة واحدة وحتى النهاية ظلت خاضعة له وخدمته بمجهود أكبر من أي جهود قدمها قط أي شعب لأي زعيم..

«... وسار كل شيء في البداية كما كان متوقعاً.. فالمانيا النازية المزودة بالة حرب رهيبة والمسلحة بقوانين لا مكان للرحمة فيها: سارت من نصر إلى نصر...».

ولولا ان دول العالم كلها احست بالخطر المتسارع الذي يحدق بها جميعاً.. لما تحركت لإنقاذ المأخوذين عنوة .. فلم يكن تحالف العالم ضد هتلر بدافع الشعور بفداحة العدوان ولا بباعث الاحساس بوجوب نصر المظلومين .. وإنما كان دفاعاً عن النفس .. لأنهم عرفوا انه لن يبقي على أحد

وعن ذلك يقول ديجول: «... وبعد أن تصبح أوروبا بأسرها .. تحت سلطان النظام الجديد .. لن يبقى أمام المعزولة عن العالم (أمريكا) إلا أن تنصاع...».

هذا الخوف الذي أصاب الجميع هو الذي وحد العالم ضد هتلر .. وكما يقول ديجول كان مقدراً «.. لهتلر ان يصادف في طريقه الحاجز البشري ذلك الحاجز الذي لا يمكن اجتيازه لقد وضع مخططه الضخم معتمداً على انحطاط الرجال وانحلالهم كأساس .. غير ان العمل على أساس ان الآخرين لن تكون لهم قط الشجاعة على الاعتراض كان يعني في الواقع المغامرة أكثر مما يجب...».

محير هذا الانسان فلا حد لصلفه وغروره وعدوانه .. ولا قعر لهوانه وضعفه وتخاذله.. وعن جبروت هتلر يقول ديجول: «.. كان مشروع هتلر فوق طاقة البشر غير انساني وقد ظل مثابراً عليه دون كلل.. حتى آخر ساعات النزاع .. ظل لا يقبل الجدل ولا تلين له قناة ولا يعرف الرحمة كما كان في أكثر ايامه مجداً واشراقاً.. ومن عظمة صراعه ومن أجل ذكراه اختار بأن لا يتردد أو يساوم أو يتراجع أبداً... ان الجبار الذي كان يحاول ان يخضع العالم لن يعرف للتخاذل وللمهادنة أي معنى..».

ثم يقول ديجول: «وعلى الرغم من طاقة المانيا ومن طاقة الفوهرر.. كان القدرقد وضع خاتمة .. ان الانتحار هو الذي وضع نهاية هتلر .. وقد جسد ذلك بنفسه .. وقد انهى المشروع بنفسه ايضا .. ولكي لا يرسف في الاغلال آثر أن يلقي بنفسه في أعماق الجحيم..».

ومن عجائب هذا الهتلر انه حتى بعد ان قرر الانتحار .. كان يرفض أن تلين طوعاً قناة المانيا .. فعهد بالقيادة لغورنغ .. وما ان علم بأنه يفاوض على الاستسلام حتى عزله واسند القيادة إلى هملر .. وما ان بلغه انه هو الآخر يحاول التفاوض حتى أبعده ونقل السلطة إلى الأميرال دونيتز.. كل هذا الاصرار على مواصلة الحرب ـ رغم تصميمه على الانتحار ورغم أنه يعرف ان المقاومة يائسة وتجلب المزيد من الدمار ليس للخصم وإنما لألمانيا..

كان فصلاً مروعاً من فصول المهازل البشرية .. وما كان لهذه المهازل المميتة ان تتكرر لولا استمرار فظاعة الحمق البشري.. واستمرار الانقياد الأعمى..

أما عن هتلر ذاته الذي أحدث في العالم كل هذا الاضطراب فإن القارىء يعرفه لا مما يكتبه عنه الآخرون .. وإنما مما كتبه عن نفسه في كتابه

(كفاحي) الذي له في اللغة العربية أكثر من ترجمة..

فرد واحد أهوج يقود شعباً من أرقى الشعوب ليسيطر به على العالم فإذا هو يقود العالم كله إلى المذبحة .. وفي هذا أكبر شاهد على ان الانقياد الأعمى وباء بشري عام ومستمر .. كما أن ذلك أكبر شاهد على ان الحمق هو السمة الأولى في السلوك البشري .. كما انه عنوان صارخ على هشاشة الأوضاع الإنسانية..

عالم النفس الالماني إريك فروم .. قضى حياته وهو يبحث ويتأمل ويكتب عن كيفية علاج الحمق البشري.. مؤملاً تبصير الإنسان بأسباب رعونته .. يحدوه الأمل في ان يتجاوز الناس اغلال الوهم .. وان تستيقظ فيهم روح السلم .. وان يدركوا فداحة نتائج العدوان .. وان يتربوا على فن التسامح .. وان يكون هدفهم تحقيق المجتمع السليم .. وان يتخلصوا من وباء الانقياد الأعمى .. وقد يكون لهذا حديث آخر إن شاء الله.

«الرياض» ٣٠ ربيع الأول ١٤١٤هـ - ١٦ سبتمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٢١٥.

مرونة العقل البشري
.. مزيــة ورزيــة

تولد الحيوانات مبرمجة بالغرائز برمجة كاملة ولذلك لا تتغير معيشتها ولا تخطيء في سلوكها فنمط حياتها محدد بشكل دقيق صارم لأنها غير مكلفة فلا خيار لها في كيفية حياتها ولا مسؤولية عليها فيما تأتي أو تدع ولذلك تولد مكتملة التوجيه ناجزة التكوين..

أما الإنسان فهو مكلف: ﴿... وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه..﴾ وصعوده متوقف على جهده: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ...﴾ وهو يجهل كل شيء لم يتعلمه: ﴿... فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه...﴾.

فالحيوانات تأتي إلى الحياة وكأنها تعرف ما يجب أن تفعل .. وهي تتجه غريزياً إلى حيث يجب أن تتجه فلا تتعدد أمامها الخيارات .. وبذلك تسير حياتها على منوال ثابت وتؤدي واجباتها الوجودية بدقة مذهلة كما هو واضح في طريقة حياة النحل والأسماك والطيور والنمل ودود القز والعنكبوت وغيرها..

العصافير تنشيء أعشاشها بنفس الطريقة منذ وجدت وحتى الآن وستظل تفعل ذلك إلى أن تنقرض .. إنها تقيم العش بشكل متقن منذ البدء فلم يطرأ عليه مزيد من الاتقان خلال القرون ولم يصب بشيء من الإهمال .. فالعصفور يرث طريقة اتقان اقامة العش مثلما يرث شكل الريش أو المنقار..

والنحل يصنع خلاياه ويسعى لإنتاج العسل بنفس الطريقة وبذات المستوى من المهارة .. لأنه ولد مكتملاً فلم يكن بحاجة إلى أن يتعلم وليس

بإمكانه أن يزداد مهارة عن أسلافه .. فالعمل مكتمل ولا يتطلب مزيداً من الاتقان. فلا النحل اللاحق بقادر على الاضافة ولا الحذف ولا العمل بقابل لأي منهما .. وإنما كل شيء مبرمج بدقة متناهية تثير الذهول..

والقطاة تهتدي إلى وكرها في الفلاة دون تردد أو بحث .. وإنما تنصب على الشجرة التي تحتضن الوكر كما ينصب السهم على الهدف..

وكر خفي في قلب شجرة وسط آلاف من الأشجار المماثلة .. ولكن القطاة لا تتوه ولا تتردد ولا تبحث وإنما تنجذب إلى وكرها الخفي كما ينجذب الحجر إلى الأرض..

الحشرة المعروفة بدودة القز.. تنسج خيوط الحرير بنفس الطريقة وعلى نفس المستوى من الدقة منذ وجدت وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها..

والقط يقفز من جدار إلى آخر بمهارة يغبطه عليها لاعبو السيرك وبرشاقة لا يستطيعها الإنسان إلا بتدريبات مضنية ومتواصلة..

إنه التكوين الناجز والبرمجة المكتملة .. لأن الحيوانات موجهة غريزياً وليست متروكة لجهدها ولا موكولة لاختيارها .. ولذلك لا يعتريها النقص ولا تتعرض للخطأ في حدود المهام التي خلقت من أجلها..

أما الإنسان فهو بمثابة مشروع مقترح فهو مفتوح لكل احتمالات التألق والانطفاء.. ولكل مستويات الفجاجة والنضج .. ولجميع مراتب الصلاح والطلاح .. ولكافة امكانات الخير والشر..

إن ميزة الإنسان الجوهرية أنه مكلف .. وهذه الميزة الرفيعة والباهظة تجعله مسؤولاً عن ترقية نفسه ولذلك لا يولد ناجزاً .. فخروجه من الفجاجة إلى النضج ومن الرعونة إلى الحكمة ومن الأثرة إلى الإيثار: متوقف على جهده الذاتي .. وهذا يتطلب منه أن يجاهد على جبهتين: ضد أهوائه وغرائزه.. وضد عادات المجتمع وتحيزاته..

ومعضلة الإنسان أنه لا يشعر بحاجته إلى هذه المجاهدة .. فهو في الغالب يتوهم أنه قد ورث كل الكمال في العقل والجسم .. وأنه يمثل كل الكمال في الفعل والسلوك..

الإنسان لا يدري أنه ولد مفتوحاً وليس ناجزاً.. ولا يعرف شيئاً عن كنه البرمجة الرديئة التي افعمه بها المجتمع .. ولذلك يظل يعيش في وهم الكمال فلا يفطن لضرورة الفحص والمراجعة..

إن انعتاق الفرد من عبودية رغبات الذات واكتشاف سوءات المجتمع والتعرف على مفاتيح البرمجة السيئة التي هو مصبوغ بها: تحتاج إلى

استنارة في العقل ومرونة في الفكر وسعة في المعرفة وتسام في الأخلاق..

فإن لم ينعتق الفرد من رق أهوائه ويتخفف من هيمنة البرمجة التي صاغه بها مجتمعه: فإنه يصبح عاجزاً عن توجيه حياته بالمستوى الذي يليق بالفرد المكلف..

ومصدر عجزه ليس إخفاقاً في محاولة الانعتاق .. ولكنه قعود عن المحاولة .. إنه آت من عجزه عن الوعي بما تعرض له من برمجة .. فهو لا يبذل أي محاولة لاكتشاف حقيقة ذاته .. لأنه يعيش وهم التفرد فلا يبحث عن الشفاء إلا من اقتنع بوجود المرض..

توفيق الحكيم حاول التنبيه إلى معضلة الفرد وهو يتحرك ضمن هذه المساحة الشاسعة .. ليلفت النظر إلى أن هذه القابلية المرنة التي يولد بها الفرد .. تفتح له أوسع الافاق ولكنها قد تكبله بأثقل القيود .. وقد توصد عليه في أضيق المساحات..

يقول توفيق الحكيم في (التعادلية) وهو الكتاب الذي أوجز فيه خلاصة فكره: «... فالعقل قبل أن يبدي رأيه سيبحث ويلاحظ ويقارن ويستنتج سينظر إلى الطير وهو يبني عشه هذا البناء المحكم وإلى النحل وهو يقوم بأعماله العجيبة في الخلية ويتساءل: في أي مدرسة يتعلم الطير والنحل هذه الأعمال البارغة؟ فتجيبه الملاحظة: إن الطير والنحل وأكثر الحيوانات والحشرات لا تتعلم ولا تتدرب ولكنها تولد وفي أعماقها هذه المعرفة المخزونة فيها ـ تلك التي تسمى (الغريزة) فتدفعها دفعاً وتحركها تحريكاً لصنع هذه الأعاجيب... عندئذ يتساءل العقل: والإنسان .. لماذا يولد ولا يستطيع هو أيضاً أن يبني بيته الجميل ويغرس بستانه الرائع بغير تعليم ولا تدريب؟ ... ما بال الإنسان يولد عاجزاً حتى عن المشي والكلام ولا يختزن في جوفه حضارته كالنحل؟ ما باله يولد متروكاً لنفسه مجرداً من الغرائز الانشائية محتاجاً إلى اكتساب معارفه بنفسه خطوة خطوة؟..

نعم .. الحيوان يولد مكبلاً بالمعرفة المتحجرة أي الغريزة والإنسان يولد مجرداً.. أي حراً.. وعليه هو ان يكتشف المعرفة من جديد في كل مرة يولد .. إن المعرفة المتحجزة عند الحيوان تلك التي تولد معه .. هي معرفة مفروضة عليه فرضاً لا يستطيع ان يتجنبها ولا أن يحيد عنها ولا ان يبدل أو يغير فيها ولا ان يجدد في لبها أو شكلها .. إن خلية النحل هي خلية النحل منذ وجد وإلى أن ينقرض .. وليس في مقدور النحل أن يصنع خلية

على صورة أخرى أو يمتنع عن صنعها عامداً أو يعيش ليصنع شيئاً آخر.. تلك هي الجبرية التي لا حرية معها..

أما الإنسان فلم يفرض عليه نوع من المعرفة يقيده ويكبله ويجبره على صنع شيء بعينه طول حياته على نحو خاص لا يملك ان يتجنبه أو يغيره أو يحيد عنه .. ان النحلة تولد وهي تعرف بالضبط ماذا هي صانعة في حياتها لأنها مهمتها معروفة محددة..

أما الطفل فيولد ولا أحد يدري ماذا هو صانع في حياته .. لأن مهمته ليست معروفة ولا محددة كمهمة النحلة والنملة بل إن سلوكه في الحياة هو الذي سيحددها..».

وهكذا فإنه ليس للإنسان إلا ما تعلم .. إنه حصيلة جهده .. ونتاج سعيه .. وثمرة استمرار محاولاته .. ومن لا يلتزم بالجهد الكثيف المنظم فقد جهل طبيعة ذاته وتخلى عن مسؤوليته ونكص عن واجبه وعجز عن أداء دوره..

الإنسان لا يكون انسانا بالمعنى الذي يقتضيه التكليف إلا إذا هو تعامل مع الحياة .. ليس بوصفها ملهاة أو مغنماً آنياً ولكنها مسؤولية باهظة لابد ان يتحقق فيها التعادل بين الحق والواجب.. وبين الذات والآخر.. ولا يكون ذلك إلا عن وعي حقيقي بالمسؤولية الفردية ... وهي مسؤولية تستوجب الالتحام مع الوجود بعقل مستقل وفكر مفتوح وضمير حي..

ليس الإنسان إنساناً إلا بقدر ما يعلم وبقدر ما يلتزم بمقتضيات هذا العلم.. وبقدر ما يدرك أن العلم محيط هائج وتيارات متضاربة لا يستطيع ركوبه إلا من تتوفر لديه الرغبة الصادقة في العبور والقدرة المكينة على توجيه السفينة..

نصيب الإنسان من الإنسانية يكون موازياً لنصيبه من المعرفة أو على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الذي كتب يقول:

«... الإنسان إنسان بفضل قوة ثقافته .. وطبيعة الإنسان الفذة هي التي تتمثل في قدرته على الخروج من الطبيعة عن طريق ثقافية..».

أو على حد تعبير الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون: «.. العقل هو الإنسان والمعرفة هي العقل وليس الإنسان إلا ما يعرف .. أليست لذائذ العاطفة والحب أقوى من لذائذ الحواس؟ أليست لذائذ العقل أعظم من لذائذ الحب..؟ أليس حقاً أننا لا نشبع من لذة البحث عن الحقيقة..؟ وأن المعرفة وحدها تنقي العقل من جميع أنواع التهيج والاضطراب.. كم من الأشياء موجود ولا نتصور وجوده .. وكم من الأشياء ينال تقديرنا أكثر من قيمته

وقدره..؟ هل هناك سعادة كسعادة انتشال عقل الإنسان من فوضى الأشياء واضطراباتها..».

ولكن مرونة العقل البشري التي هي ميزة الإنسان العظيمة تتجه في الغالب إلى الانحدار.. بدلاً من ان تتجه للصعود .. إن المجتمعات تغتال هذه القابلية فتملؤها بالتقاليد الرديئة وتلوثها بالتحيزات الغبية الخاطئة: ﴿... وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله...﴾ و﴿... قليل من عبادي الشكور...﴾ .. فالحمق البشري قد افسد هذه القابلية .. وأهواء المجتمعات قد أغلقت هذا الانفتاح .. وضيق التفكير العام قد وجه هذه المرونة توجيهاً خاطئاً..

يقول المؤرخ الامريكي الشهير ول ديورانت في كتابه الضخم (قصة الحضارة): «.. إن التقاليد لتكون أساساً ثابتاً مكيناً تراه مستقراً تحت الظواهر الاجتماعية كلها .. فهي بمثابة الصخرة الراسخة في أسفل البناء وقوامها الوان الفكر وضروب الفعل التي خلع عليها مر الزمان هالة من تقديس وهي تمد المجتمع بشيء من الثبات والنظام.. فالتقاليد .. تشبه الوراثة والغرائز .. والتقاليد هي الاطراد المكرور .. ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقاً لا شعورياً .. العمل الآلي هو انسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجي إذا تكرر .. أو للموقف المعين إذا تجدد حدوثه .. اما التفكير الأصيل والتجديد في السلوك فهو اضطراب في مجرى الاطراد ولا يستطيعه الإنسان إلا في الحالات التي يريد فيها أن يغير من سلوكه المألوف بحيث يلائم الموقف الذي يحيط به أو في الحالات التي يأمل فيهاأن يكافأ على تجديده وتفكيره كسباً موفوراً .. فالجماعات محكومة بعادات هي في صرامتها وفي استحالة الخروج عليها كأي قانون .. وستظل التقالد حتى النهاية هي القوة الكامنة حين يقرر الإنسان أي نوع من السلوك ينبغي أن يسلك وحين يحكم على أنواع السلوك بالخير والشر .. ستظل التقاليد .. هي الحكم الذي يقضي في حياة الإنسان..».

ديورانت .. الذي يقرر هذه الحقيقة البشرية .. لا يقول ذلك عن تسرع .. ولكنه أمضى عمره المديد وهو يدرس المجتمعات المتباينة .. ويقارن بين الحضارات المتعاقبة .. لقد درس أحوال البشر في شتى العصور وبكافة الاقطار .. دراسة المؤرخ الموسوعي الملم بعوامل الفعل الإجتماعي .. وبعقلية الفيلسوف المدرك لتعقد أسباب الأشياء.. فهو حين يؤكد دور العادات في برمجة عقول الأفراد وتوجيه سلوك الناس وتحديد مجالات نشاطات البشر فإنه يتحدث عن علم ودراية .. فالتقاليد هي عقل المجتمع ..

والأفراد هم نتاج هذه التقاليد..

وفي فصل عن (التفكير) تناول جيمس هارفي روبنسون .. ظاهرة التقليد .. كنوع شائع من أنواع التفكير .. ولقد جاء هذا الفصل ضمن الجزء الثالث من كتاب (العلم: أسراره وخفاياه) الذي ترجمه الدكتور محمد جمال الدين الفندي والدكتور محمد صابر سليم: والفصل مأخوذ من كتاب (العقل والاختراع) لروبنسون.. وفيه يقول:

«... واضح أن توصلنا للأشياء الهامة ليس نتيجة للمعرفة أو الفكر الحصيف ولا هو إملاء من اهتمامنا الشخصي إن الغالبية العظمى من آرائنا هي تحيز محض وبالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .. إنها همسات صوت الجماعة .. إنها ليست أفكارنا ولكنها أفكار الآخرين الذين لايزيدون عنا في المعرفة وقد حصلوا على هذه الأفكار بذات الإهمال والشرود .. كما فعلنا نحن (ولذلك فـ) إنه لفخار لنا أن نعيد النظر في أفكارنا..».

ثم يقول: «.. إن أكثر الأفكار أهمية .. نادراً ما تكون نتيجة لاعتبارات عقلانية ولكن نتيجة الأخذ بدون وعي من الجو الاجتماعي الذي نحيا فيه .. فما دمنا نستغرق في همسات الجماعة فإننا لن نكون قادرين أبداً على تفحصها بعيداً عن العاطفة .. فكيف نستطيع التخلص من هذا الحصار العاطفي لننفك عن ميولنا وتصوراتنا الانحيازية..».

ويعجبني الأستاذ عابد خزندار .. وهو يحوم كثيراً حول هذه النقطة حين يقول: «.. الإنسان الأول هو الذي ولد طليق الجناح .. أما نحن فقد تناسلنا من الأسر .. وولدنا في الأسر: أسْر الجينات وأسْر الأعراف والتقاليد .. الأعراف هي التي تحدد ذوقنا .. رغم ان كلا منا يزعم ان له ذوقه الخاص .. إن الذوق ليس إلا أعرافاً يضعها المجتمع أو يرثها من جيل سابق..».

ويقول: «... هل يترتب على ذلك ان الأخلاق نسبية وأن المعايير التي تعيش بها الفضيلة والرذيلة .. والحق والباطل .. هي أيضاً ليست ثابتة بل تخضع للتغير والتلون..؟! .. وأن ما يحدث في الصومال يبرر التدخل الأمريكي والدولي، وما يحدث في فلسطين والبوسنة لا يبرر ذلك..؟! أي أنه ليست ثمة معايير ثابتة وأن لكل حالة لبوسها ولكل حادث حديثاً..؟!»

إن عابد خزندار .. يرى أن الحياة البشرية كلها لم تعد أكثر من تقليد في تقليد حيث فقد العقل البشري عذريته ولم يعد قادراً على التفكير المستقل ولا على السلوك المتفرد ولا على الإنتاج المبدع.. فالخزندار يكرر التأكيد بأن الناس كلهم صاروا مقلدين ولا يستثني أحداً .. ويصر على أن دعوى

الإبداع ما هي إلا وهم في وهم .. أكد ذلك في مقالاته التي جمعها بكتابه الذي صدر عن (الإبداع) ويعيد تأكيد هذا المعنى في مقالاته التي ينشرها في جريدة «الرياض» تحت عنوان (سيرة ذاتية).. إلا أنه لم يستطع الإفلات من الاعتراف بأن الحضارة البشرية ما هي إلا الحصيلة التراكمية للاضافات والتحويرات الضئيلة التي يسبغها اللاحق على إنتاج السابق.. لذلك فهو يعترف بأن التحديق الشديد في السائد .. من أجل فحصه وتحليله .. هو السبيل إلى تجديد الحياة وتنمية الفكر وتطوير العلم وتغذية الحضارة وفي ذلك يقول: «.. العادة تقتل الرغبة .. ولهذا لا مناص من كسر العادة أو القاعدة من وقت إلى آخر .. وهذه وظيفة الفن وبالطبع رسالة الأدب..».

ولكن رغم ضآلة الاضافات .. ومع ندرة القادرين على كسر العادة وتجاوز القاعدة .. فإن التقدم في كل مجالات العلم والعمل والإصلاح: يتوقف على هذه الاشراقات رغم خفوتها وندرتها مما يستوجب أن تحظى بالاهتمام والتركيز والرعاية..

غير أنه لا قيمة لأية اشراقات ذهنية ولا جدوى من أية ابتكارات تقنية إلا إذا كانت مصحوبة بطاقة أخلاقية مهيمنة تضمن التوجه إلى الخير بدل التوجه إلى الشر.. والسعي الحثيث إلى الصعود بدل الانقضاض في مهاوي الهبوط.. وحشد الطاقة الإنسانية للبناء بدلاً من تبديدها في الهدم..

إن مرونة العقل البشري مزية عظيمة .. لكن عفونة التقاليد أحالت هذه المزية إلى رزية.. فالعقل المفتوح للفهم عند الولادة .. استحال بالتنشئة إلى عقل مغلق بالتعصب .. والنفوس المهيأة للحب والوئام.. صارت بالتنشئة مشحونة بالكره والخصام.

«الرياض» الخميس ٢٣ ربيع الأول ١٤١٤هـ - ٩ سبتمبر ١٩٩٣م - العدد ٩٢٠٨.

الموضوعية .. حقيقة أم وهم ..؟!

ينصاع الناس لرغباتهم أكثـر بكثير مما يظنون .. ومن هنا يغيب عنهم الحذر .. فيقعون تحت سيطرة أحكامهم المسبقة ويجحفون في حكمهم على الأشخاص والأفكار والأشياء والمواقف دون أن يعلموا.

هذا عن الذين يرغبون في نزاهة التقييم .. أما الذين يتعمدون التخلي عن الموضوعية ويرتضون الوقوع في رذيلة الجور فهؤلاء لا يجدي معهم تحريك الوعي لأنهم يرتكبون حماقة العدوان عن ترصد واصرار .. لذلك فإن هذا المقال ليس موجها إليهم..

إن الذي ينتبه لتصرفات الناس يجد ان أحكامهم على الاشخاص والأفكار والأشياء والمواقف مرتبطة أشد الارتباط بحالات الرضا والسخط .. فهم يذمون إذا صاروا غاضبين: ما كانوا يمدحونه وهم راضون .. وهذا هو عين الهوى والجور.. وهو محض التناقض والبعد عن الموضوعية..

والخطورة في الوضع ان العدوان في احكام الناس بعضهم على بعض .. ليس حالة شاذة .. ولكنه السلوك النمطي المعتاد .. فالناس لا يشعرون بأي غضاضة وهم يكررون ارتكاب هذا التناقض الشنيع في الأحكام .. تبعاً لتذبذبهم بين حالات الرضا والسخط .. غير أنهم في الغالب لا يفطنون لهذا العدوان ولا ينتبهون لهذا التناقض ومن هنا تشتد الخطورة.

فالإنسان ما دام راضياً فإنه يجد ألف تبرير للقبول واسباغ الثناء لكنه إذا انتابه الغضب لا يتردد في نقض كل أحكامه السابقة .. ولا يخطر على باله انه بذلك يسفه نفسه ويتناقض في مواقفه..

وهذا التناقض المضحك في أسبابه والخطير في نتائجه قد يحصل

خلال لحظات .. كما في العلاقات داخل الأسرة الواحدة: (.. ما رأيت خيرا قط..) وقد لا يكون التناقض بمثل هذه السرعة وإنما يحصل بعد تغير المصالح كما في العلاقات .. بين الأفراد أو بين الفئات .. وكما في علاقات المجتمعات بعضها ببعض .. ولكنه في كل الأحوال رغم تفاهة الأسباب قد يهدم الأسر ويقوض المجتمعات ويلحق الأذى بالأبرياء..

والذي يكون نصيبه من نكد الحياة: عملاً يضعه في مجرى طوفان السلوك العام .. حيث تتصادم الرغبات وتتضارب المصالح: تتكشف له بشاعة الأهواء ووخامة الجور ورعونة السلوك . كما تتكشف له تفاهة الأسباب وفداحة النتائج..

إن الناس وهم يلهثون خلف مصالحهم وأهوائهم تتساقط عنهم الأقنعة المفتعلة ويزول الوقار المصطنع ويتعرى الواقع بكل ما فيه من نتن وبشاعة..

ولو كان داخل كل فرد (صندوق أسود) يسجل له سلوكه في حالات تهالكه على المال أو على الجاه أو على النفوذ لربما تراجع الكثير من العقلاء عن هذا التهالك بعد أن يكتشفوا شناعة التعري النفسي..

وربما ان مصدر الانجراف خلف الأهواء والانهماك في التحيز .. هو ان كل الناس يتوهمون انهم موضوعيون في آرائهم .. وأنهم عادلون في احكامهم وانهم واقعيون في مطالبهم .. وبهذا الوهم المطرد ترتكب أفدح الأخطاء وتزاول أشنع صور الأذى ويلحق الناس بعضهم ببعض الكثير من حالات العدوان..

إن الإنسان يستحسن من نفسه كل فعل .. ويستطيب من ذاته كل رأي .. ويبرر لهواه كل مطلب .. فلا يرى التحيز الذي تتسم به احكامه .. ولا يبصر الجور الذي تصطبغ به مواقفه..

الإنسان ليس موضوعيا بطبعه .. كما ان البرمجة الاجتماعية للشخصية الفردية .. تطمس فيه قابلية التجرد والحياد .. فالموضوعية والتجرد من السمات العقلية والأخلاقية الرفيعة النادرة المكتسبة.

إن أكتساب الموضوعية لا يتحقق إلا بالمجاهدة الواعية المستنيرة فهي مثل كل الغايات العالية تحتاج إلى صدق في الطلب وسخاء في المهر واخلاص في مداومة الوصال وترفع عن كل غرض يعرقل سلاسة التوجه..

ومع أن الموضوعية شرط أساسي لنزاهة الآراء واستقامة السلوك وثبات المواقف وعدالة التقييم .. ومع ندرة وجودها في البشر فإنه لا يبذل

في سبيل تكوينها أي جهد يتلاءم مع اهميتها البالغة..

بل ان الأفراد يجدون أنفسهم مغمورين في مجتمعات تطفىء بممارساتها جذوة الموضوعية.. ولذلك فإن اعادة احياء هذه الجذوة تتطلب وعيا حادا كما تتطلب جهدا استثنائياً موصولاً..

فالأفراد في كل المجتمعات ينشأون وهم غارقون في التحيز فهم لا يسمعون ولا يرون إلا ما يرسخ رذيلة التحيز في تكوينهم سواء على مستوى الأسر فيما بينها أو على مستوى الافراد أو على مستوى المجتمعات فكل اسرة ترى أنها الأفضل وكل فئة تعتقد أنها الأكمل وكل مجتمع يتوهم انه الارقى فينشأ الأفراد على هذا التمجيد الأخرق للذات .. ويكبرون وهم يعتبرون قصور الأخرين حقيقة ثابتة.. وان ثلب الآخرين ليس تجنياً وإنما هو سلوك مألوف وراشد وبذلك تنبني نفوسهم على التحيز وتندثر فيهم قابلية الموضوعية..

هذه الحقيقة البشرية أصبحت معروفة تمام المعرفة لعلماء النفس والمحللين النفسيين والفلاسفة والمؤرخين ولكل المهتمين بدراسة الطبيعة الإنسانية والمشغولين بالتعرف على أسباب التعصب ودوافع الاختلاف وعوامل شقاء الجنس البشري..

إن دراسة التاريخ بتجرد .. والتأمل في أوضاع الناس بامعان كلاهما ينتهي إلى حقيقة أن الناس هم مصدر شقاء الناس .. وان غياب الموضوعية وانطفاء حس الانصاف .. وتفاقم ظواهر التحيز .. وعجز العقول عن اكتشاف تحيزاتها ووهن الضمائر عن الاضطلاع بمسئوليتها: هي السبب الأول لتفاقم الشر وانتشار البؤس..

جورج برنارد شو يرى أن التحيز: «.. قاعدة سارية في مجال النشاط الإنساني برمته .. فالاستعماري الانجليزي الذي يرى أن قيام دولة اجنبية بغزو انجلترا أفدح نكبة .. يؤمن بأن قيام انجلترا بغزو دولة اجنبية هو نعمة وبركة على المغلوبين..».

أما جوردون البورت فيران: «.. تحطيم الذرة أسهل من تحطيم رأي متحيز..».

والعلامة ابن خلدون قد فطن لآفة التحيز الفظيعة وادرك أن ميول الناس هي التي توجه تصرفاتهم .. واكتشف الضلال الذي يعتري عقول البشر حين يتحيزون لرغباتهم وينقادون عميانا لاهوائهم ..حيث يقول:

«.. إن النفس إذا خامرها تشيع لرأي قبلت مايوافقها من الاخبار لأول وهلة .. وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد

والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله..».

هذه الآفة البشرية العامة رغم اطرادها وشناعتها لا يفطن أحد لشيوعها ولا يتصدى أحد لمقاومتها .. ومع انها من أشد الآفات الاجتماعية فتكا بالمجتمع وأكثرها ايذاء للأفراد وأقواها تفريقا للجماعات وأوسعها نشراً للشقاء الانساني..

إن التنبيه المتكرر لهذه الآفة .. قد يوقظ بعض الضمائر ..وقد ينير بعض العقول .. وقد يؤدي ذلك إلى تقلص جموح الأهواء وضمور الشر وتراجع الأذى .. وهذا مطلب يستحق كل ما يبذل في سبيله من جهد وما يتحمل من أجله من عناء..

ومع ان التخلص من هذه الآفة الراسخة يحتاج إلى استنفار طاقة العقل وطاقة الوجدان فهو لا يتحقق بسهولة إلا ان الشيء المؤكد ان بعض الناس لو ادركوا مقدار الجور والتحيز الذي تتسم به احكامهم على الاشخاص والأفكار والأشياء والأحداث والمواقف .. لما رضوا بارتكاب الجور ولتراجعوا عن الكثير من صور التحيز الذي ينتج عن توهم النقاء والتجرد والموضوعية..

فالتحيز هو الاصل في أحكامنا .. أما الموضوعية فهي حلم يسعى إليه ذوو العقول النيرة .. وأمل يحرص عليه أصحاب الضمائر الحية .. لكن رغم سعيهم الحثيث .. ورغم أملهم الصادق .. فإن الموضوعية الناصعة تظل حلماً بعيد المنال..

ولكن أهل العقول النيرة وأصحاب الضمائر الحية وذوي النوايا الحسنة يتضاعف حرصهم على الاقتراب من الموضوعية كلما تزايد وعيهم بصعوبة تحقيقها فإدراكهم لاستحالة بلوغ الموضوعية الكاملة .. يضاعف حرصهم على بلوغها ويوقظ فيهم النزعة النقدية للذات .. وبذلك يكونون أكثر انتباهاً لمصايد التحيز وأشد تحرزاً من ضغوط دوافع التبرير..

وإذا كان هذا شأن الموضوعية مع القلة المستنيرة ذات الضمائر اليقظة والاحاسيس الإنسانية الرفيعة .. فإن الموضوعية تصبح على المستوى العام بالنسبة لغير هؤلاء القلة .. وهما فضفاضا يضاعف اسباب الصلف والاختلاف والقطيعة والعدوان..

إن الذي يجور في أحكامه على الأشخاص والأفكار والأحداث والمواقف .. وهو يعي احتمالات وقوعه في اهواء الذات .. ويدرك امكانات سقوطه في فجوات الانحياز يبقى قابلاً للتراجع عن الجور ومستعداً للرضوخ لواجب الانصاف..

أما الذي لا أمل في رجوعه عن جوره وهواه فهو الذي يتوهم انه ملتزم بالموضوعية رغم انغماسه في طوفان التحيز.. وهذه حال معظم الناس .. فهم يبقون متمسكين بمواقفهم مهما بلغت من الجور والتحيز.. لأن تحيزهم يحول بينهم وبين رؤية الحقيقة الموضوعية المجردة..

إن عامة الناس في الغالب خاضعون للتحيز خضوعاً مطلقاً .. مما يستحيل معه التعرف على الحقائق مهما كانت ناصعة .. انهم أسرى التحيزات .. انهم مثل الطوفان المنحدر لا يستطيع أحد من الخلق رده عن مجراه..

ويبلغ التحيز نهاية سوئه حين ينتهي ببعض الناس إلى التوهم بأنهم أصحاب الحق المطلق وبأن كل المخالفين على الخطأ البواح وبأن مهمتهم قسر الآخرين على ما توهموه الطريق الصحيح..

وكل المجتمعات تربي الأجيال على التحيز المطلق للذات .. والانحياز التام ضد الآخرين.. فكل مجتمع يربي الناشئين على أن الناس في المجتمعات الأخرى .. جبناء وانذال وغير متحضرين ويعيشون في العمى والضلال..

فالتحيز للنفس والبعد عن الموضوعية في تقييم الآخرين هو الصفة الثابتة التي تصطبغ بها احكام الناس .. سواء على المستوى الفردي في علاقات الأفراد.. أو على مستوى الفئات داخل المجتمع الواحد .. أو على مستوى نظرة كل مجتمع إلى المجتمعات الأخرى..

ينقل جون هرمان راندال في المجلد الأول من كتابه (تكوين العقل الحديث) عن العالم الفرنسي بطرس رامو.. كيف ان المجتمعات والفئات والجماعات تنشيء الأجيال على التحيز المطلق للذات والرغبة الجارفة في التغلب .. والافتتان الصريح على الحقيقة .. وانه بسبب تنشئته على هذا التحيز كان يحرص على ان يحجب الحقيقة ولكن بعد ان استيقظ ضميره واكتشف الوهم الذي كان يعيشه .. كتب يقول:

«.. جادلت وخاصمت بكل ما اوتيت من قوة .. وإذا كنت ادافع في الصف عن قضية ما بالاستناد إلى المقولات فقد كنت اعتقد ان من واجبي ألا اتنازل لخصمي قط حتى ولو كان مائة مرة على حق وإنما كان علي أن ابحث عن تمييز في غاية الدقة لكي احيط الموضوع بكامله بالغموض .. ولو كنت أنا المخاصم من جهة أخرى فقد كان كل همي وجهدي ينحصران لا في تنوير الخصم ولكن في التغلب عليه بحجة من الحجج سواء كانت صالحة أم سيئة .. هذا ما تعلمته ووجهت إليه توجيهاً...»

حينما اشتعلت الحرب العالمية الأولى عارضها بشدة الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل وقاوم دخول انجلترا فيها .. واعتبر ان تقاليد المجتمعات هي التي تغرس في الأفراد نزعة العدوان .. ورأى ضرورة ادخال تعديلات جذرية على البناء الاجتماعي وألف كتابه الذي تمت ترجمته إلى اللغة العربية بعنوان (نحو عالم أفضل) كما صدرت له ترجمة أخرى جديدة بعنوان (أسس لاعادة البناء الاجتماعي) وقد تولى الترجمة الدكتور ابراهيم يوسف النجار .. ونشرته المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر في بيروت..

وفيه يقول برتراند راسل: «... إن التعليم الحالي في التاريخ .. وبعض المواضيع المثيرة للجدل هو مضر بشكل مؤكد .. (حيث يكون تركيزه على) غرس وجهات نظر خاصة على هذه المواضيع .. فالتاريخ يدرس في كل (أمة) بشكل يعظم تلك (الأمة) .. يعلم الأولاد كي يعتقدوا بأن (امتهم) كانت دائماً على حق وتقريباً منتصرة دائماً وانها تتفوق في كل النواحي الأخرى على كل (الأمم) الأخرى .. ولما كانت هذه المعتقدات مشبعة بالمدح فإن قبولها يتم بسهولة وبالكاد تستطيع ان تزحزحها المعرفة المتأخرة من براثن الغريزة..»

ويورد برتراند راسل مثالاً عن التزييف الذي ترتكبه المجتمعات في حق التاريخ فواقعة (واترلو) اشتركت فيها فرنسا من جانب وانجلترا والمانيا من جانب آخر .. وكانت تفاصيلها معروفة تماماً.. ولكن الالمان يتناولونها بطريقة تختلف عن الطريقة التي يتناولها بها الانجليز ومثل هذا الاختلاف في التناول حصل ايضا بالنسبة للفرنسيين .. وهذا مثال بسيط يؤكد البعد عن الموضوعية وجنوح كل مجتمع إلى تأكيد دوره وتعظيم انتصاراته والادعاء بانجازات لم تتحقق وعن ذلك يقول راسل.

«... لنأخذ مثلاً بسيطاً: ان الحقائق حول معركة واترلو معروفة في كل تفاصيلها وبدقة تامة ولكن هذه الحقائق تختلف كثيراً عندما تدرس في المدارس في انجلترا وفرنسا والمانيا يتصور التلميذ العادي في انجلترا ان الالمان بالكاد قد لعبوا أي دور .. والتلميذ العادي في المانيا يتصور ان والينغتون قد هزم فعلياً قبلما انقذ بلوخر ماء الوجه بخيالته .. لو درست الحقائق بشكل مطابق للواقع في كلتا الدولتين لما وجد التكبر القومي دعماً كبيراً ولما كان أي من الدولتين ليشعر بحتمية النصر في حال نشوب الحرب ولكان الاندفاع لخوض الحرب أخف وهذه هي النتيجة التي يجب منع وقوعها فكل دولة تتمنى ان تذكي نار الافتخار القومي .. ولكنها تعلم

ان لا سبيل للحصول على هذه النتيجة إلا من خلال تحوير التاريخ وهكذا يعلم الأولاد المساكين بالتحريف .. تشجع الأفكار غير الصحيحة التي تصف تاريخ العالم والتي تدرس في مختلف الدول .. على المنازعة وتخدم لترك القرمية على شراستها..»

ثم يقول راسل: «... يفرض أولئك الذين ينهمكون في التربية بعض العادات العقلية ولكن هذه العادات كلها هي ضد الحياة يجب المحافظة على الاستقلال وعوضاً عن التهافت القاسي يجب على التربية ان .. تنمي العدل في التفكير .. عوض الاستهزاء يجب أن نغرس الاحترام وبذل الجهد من أجل الفهم..»

ثم يقول: «... إن الأسباب المباشرة لهذه الشرور هي القبول واخضاع التلميذ الفرد إلى أهداف لا تعير الأشياء العقلية أي اهتمام .. ولا يتم اصلاح جذري إلا بمزيد من الاحترام..».

والظاهرة التي تناولها الفيلسوف راسل.. أكدها القائد العسكري الانجليزي شيلفورد بيدويل في كتابه عن (الحرب الحديثة) فكل مجتمع يزرع في أفراده مجافاة الموضوعية والانخراط في حماقات التحيز .. ولذلك تشتد الحاجة إلى استنفار طاقات العقل والوجدان للتخفيف من شرور التحيزات وتوجيه الناس إلى مراقبة رغباتهم والحد من أهوائهم .. حتى تنمو فيهم الموضوعية وينغرس فيهم الحس الإنساني حيث ينفر الناس من الظلم وينجذبون للإنصاف .. وبذلك تخف أسباب الشحناء وتتقلص عوامل الحقد ويسود التآخي ويشع الحب .. أو على الأقل تخف حدة البغضاء وتقل أسباب التوجس .. ويفطن الناس لفداحة التعامل بعقلية الصياد..

«الرياض» ـ الخميس ١٦ ربيع الأول ١٤١٤هـ ـ ٢ سبتمبر ١٩٩٣م ـ العدد ٩٢٠١.

الفهرس

صدر من كتاب *الرياض*

١ ـ امرؤ القيس العربي ـ ديسمبر ١٩٩٣م ـ فوزان الدبيبي.

٢ ـ ربيع الحرف ـ فبراير ١٩٩٤م ـ نورة خالد السعد

٣ ـ اللغة مفتاح الحضارة ـ مارس ١٩٩٤م ـ عدد من المختصين.

٤ ـ الكشكول ـ ابريل ١٩٩٤م ـ أ.د. حسن ظاظا.

٥ ـ أوراق رياضية ـ مايو ١٩٩٤م ـ د.أحمد بن محمد الضبيب.

٦ ـ قراءة في الفكر الأوروبي الحديث ـ يونيو ١٩٩٤م ـ هاشم الصالح.

٧ ـ من يقرأ المصباح ـ يوليو ١٩٩٤م ـ د. يحيى ساعاتي.

٨ ـ نقد الحداثة ـ اغسطس ١٩٩٤م ـ د.حامد أبو أحمد.

٩ ـ الانتخابات الامريكية ـ سبتمبر ١٩٩٤م د.عبدالعزيز إبراهيم الفايز.

١٠ ـ مساءلات في الأدب واللغة ـ أكتوبر ١٩٩٤م ـ د.عبدالسلام المسدي.

١١ ـ الاطفال والتلوث البيئي ـ نوفمبر ١٩٩٤م ـ د.نوري ابن طاهر الطيب ـ بشير بن محمود جرار.

١٢ ـ الضفة الثالثة ـ ديسمبر ١٩٩٤م كمال ممدوح حمدي.

١٣ ـ مأزق القيم ـ يناير ١٩٩٥م مسلم بن عبدالله مسلم.

١٤ ـ وسم الإبل عند بعض القبائل ـ فبراير ١٩٩٥م ـ صالح غازي الجودي.

١٥ ـ افكار في التنمية ـ مارس ١٩٩٥م ـ د.عبدالله حسن العبادي.

نبذة عن الكاتب

الإسم : ابراهيم البليهي

الميلاد : ١٣٦٤هـ

العمل : المدير العام للشؤون البلدية والقروية بمنطقة القصيم

- التحق بالعمل الحكومي بعد الاعدادية وأكمل دراسته الثانوية والجامعية منتسباً.
- نال بحثه الجامعي درجة الامتياز فتولت كلية الشريعة بالرياض طبعه ونشره.
- عمل بعد تخرجه مباشرة رئيساً لبلدية حوطة بني تميم فرئيساً لبلدية خميس مشيط، فرئيساً لبلدية منطقة حائل.
- انتقل للعمل بالوزارة وبعد بضعة شهور تم تعيينه بوظيفة مدير عام الشؤون البلدية والقروية بالمنطقة الشرقية وبعد شهور انتقل لعمله الحالي بالقصيم
- قبل تخرجه عمل بجريدة الدعوة في المساء حيث كان آنذاك موظفاً بوكالة البلديات ومنتسباً لكلية الشريعة

من مؤلفاته :

- سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري - وهو بحث جامعي.
- حائل والخدمات البلدية - الجزء الأول عام ١٤٠١هـ
- حائل والخدمات البلدية - الجزء الثاني عام ١٤٠٣هـ
- برنامج تشجير وتجميل مدن القصيم عام ١٤٠٧هـ
- النبع الذي لا ينضب وهو عن أهمية الجهد البشري في تحقيق الازدهار
- يعمل لانجاز أعمال عن (العقل البشري: امكاناته ونقائصه) و(عبقرية الاهتمام) و(العلم ومهارة الأداء)